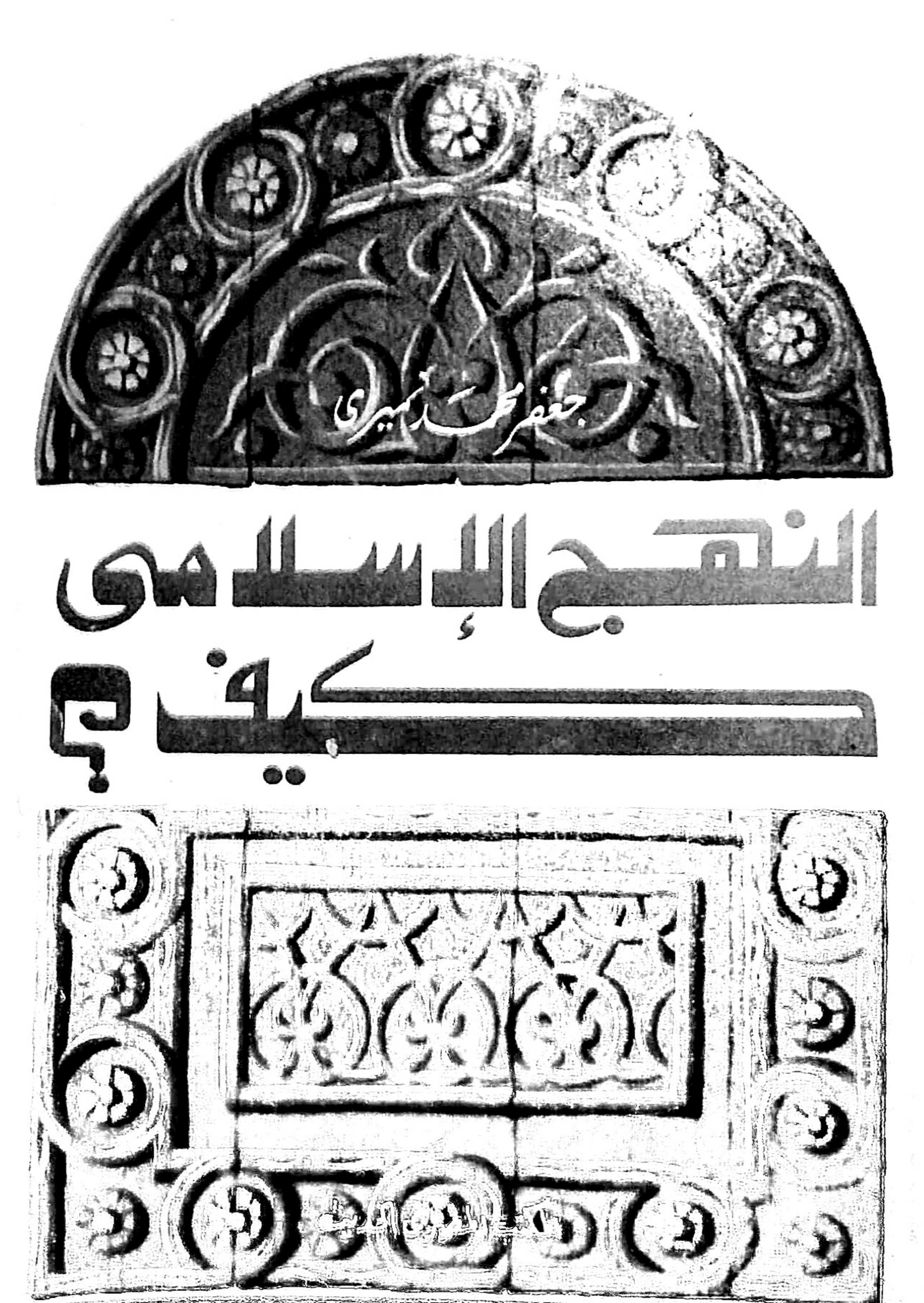


النهج الإسلامي كيف؟

Dr.Binibrahim Archive

المكتب المصري الحديث


جعفر محمد نميري
النهج الإسلامي
كيف ؟

جعفر محمد نميرى



Dr.Binibrahim Archive

بسم الله الرحمن الرحيم

اهدنا الصراط المستقيم

صدق الله العظيم

الاهـــداء :

إليه صاحب العبقريات .. وصاحب هذه الكلمات ..

لهذه عقيدة وتلك عقيدة .. ولكن العقيدة التى

ظفرت كان معها حليف من الغد المأمول .. ولم

تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع

الأمل ..

عباس محمود العقاد

هي تجربة الخطر .. إذا انتشرت انتصرت

وإذا بادت أبادت معها مجرد الأمل في

إمكانية تكرارها ..

معمر محمد خيري

استهلال

أعلم وأدرك وأشهد انها بمنطق التاريخ والجغرافيا وايقاع العصر تجربة الخطــر ٠

تجربة اذا انتصرت انتشرت ، واذا بادت أبادت معها مجرد الأمل فى تكرارهـــا ٠

ذلك أن التبشير بالأمل يظل دوما غير تجسيد الأمل ٠٠٠ التبشير وهج يهتدى به ، بينما التجسيد واقع يعايشه الناس ٠

التبشير وعد ، بينما التطبيق اذا حاد ولو بحسن النوايا عن الجوهر، لكان وعيدا بما لا يطيق الناس وبما عليه لا يصبرون ٠

التبشير فكر ودعوة واستشهاد بأمجاد ماض ، بينما التجسيد معايشة لواقع له متطلبات حاضر وتطلعات مستقبل ٠

التبشير هو رفع رأية تلونت بمطاق الماضى ، بينما التجسيد معايشة لمحدودية الحاضر بما يفرضه ويفترض فيه ٠

ولعل الخطر فى الخطر فى مرحلة الانتقال من التبشير الى التجسيد ، ان البعض يتصورونها احتكام الى الماضى ، بل حكم من الماضى على واقع الحاضر واحتمالات المستقبل ٠

بل ان البعض يتصورونها مرحلة ينتقل فيها مجمل الحاضر الى مجمل الماضى برموزه ومسمياته وهياكله وعلاقات أفراده ،رغم أن الزمان لايتكرر والعصر لا يرتد ، بل ان مجد المــاضى ووهجه الممتد ما كان ليكون مجدا لولا أنه نفسه كان تمردا على ما سبقه ، ولولا أنه كان ممهدا لمــا لحقه ، ولولا أن الجوهر الأصيل فيه كان ومازال وسيظل هو نهج التغيير الذى نادى به وبشـــر ٠

ولسوف يظل الفاصل المانع للصحوات الاسلامية على امتداد التاريخ الاسلامى ، انها صحوات تخلفت عن مكانها وزمانهـا يوم كان القياس وحده مرجعها ، وانها سبقت زمانها ومكانها وأضاءت بوهجها مسيرة الانسان التواق لكمال العدل وعدل الحضارة يوم كان الاجتهاد محركها وباعثها .

فالدين قديم قدم حاجة الانسان له ، الا أن الانسان متغير بتوالى المتغيرات عليه .

والدين ايمان ومناسك وشعائر لا يطاولها الزمن مهما تراكم الزمن ، ذلك انها موصولة بخالق يتصل به كونه المتغير ، من هنا كان ثبات الموصول به ملزم بثباته ، فالشهادة بالله واحد هى شهادة ثبات لا يطاولها تغير الزمان ولا المكان ، والشهادة بالنبى رسولا هى فوق تباين الأزمان ، والصلاة واجبة تقاربت مواقيتها أو تباعدت مواقيتها حسب موضع المؤمن من أقطار الأرض تعادلا أو تباينا فى حركة الليل والنهار ، كذا الصوم وكذا الحج فى أشـــهر معدودات ، وكذا الزكاة فريضة واجبة أعطت الأرض أم اجدبت فهى موصولة بقدر ونصاب ، فيما عدا المناسك والشعائر وقبلهما التسليم والايمان ، فان جوهر الدين يحكم بغير خصومة مع منطق الزمن وايقاع الحياة ومتغيرات الظـــروف .

والذين قالوا لى كفى وأنا على مشارف التطبيق ، كان منهم المشفق باخلاص الحادب ، وكان منهم المنكر برؤية المتشكك ، وكان فيهم من لم يخفى حقده على الأصل والجوهر فى التبشير والتطبيق معا .

هؤلاء وهؤلاء لهم دوافعهم والتى هى الأصل فى نواياهم . غير هؤلاء وهم الذين اشفقوا كانت لهم رؤاهم تحركها قناعاتهم ، فلا العصر هو ذات العصر ، ولا الزمان هو ذاك الزمان ، يوم كان الأمر أمر رسالة ورسول ، يوحى اليه فاذا به امتثالا ومعه الذين آمنوا ، غيرهم فهو لا يكرههم على الهدى فالله يهدى من يشـــاء .

ولعلنى والذين معى كنا على بينة من أمر أنفسنا ، ما كنا كالرسول فيما يوحى اليه ، ننظر الى السماء نستلهم الهدى،وانما كنا على نهج الرسول بشرا يلتزم بما أوحى اليه فكان ناموسا للعالمين ، ثم كان يجتهد رأيه فيما هو دون ذلك ، يشاور الناس أمرهم ، هكذا كانت سنته وهكذا أمره ربه فى كريم آياته ، ثم كنا على نهج السلف ، والذين عرفوا أقدارهم فما تجاوزوا قدراتهم فجاهدوا واجتهدوا .

هكذا أعز الله دينه ، فما تحرج عمر بن الخطاب أن يمنع عن المؤلفة قلوبهم نصيبهم مما نص عليه الكتاب بأنه لهم ولليتامى والمساكين وفى الرقاب والعاملين عليهـــا وفى سبيل الله .

هكذا أعز الله دينه ، فما تحرج عمر بن الخطاب أيضا أن يجعل غنائم المسلمين ما هو منقولا منها دون ما هو ثابت ، وأن يجعل الخمس للجند ، وان يجعل لله ورسوله أربعة أخماس . فقد فاض الفىء على حاجة الجند ، فما جاز لهم ما سبق وقنن لهم من أنصبة فيه .

أقام الديوان ، وكتب المال ، وأعاد التصنيف والتبويب والتوزيع بما رأى من متغيرات عصر .

قطع القطع فى عام الرمادة ، أوقف الزكاة فى عام القحط ، عفا عثمان بن عفـــان مخافة الفتنة ، مات دون حق فى الاجتهاد فقضى شهيدا غفر الله له .

المشفقون حدبا قالوا ، لا الزمان هو الزمان ولا المكان هو المكان ، فما الناس وأمرهم ، كالناس وأمرهم فى الزمن القديم .

فلا السودان مهبط دعوة ، ولا السودان أرض رسالة ، بل وما كان السودان كسائر ديار الاسلام ، بشائره كانت جنده ، وانما هو قناعة الناس به ، أقبلوا على الدين الجـــديد طواعية حيث لا خيار بين الاســـلام والحرب والجزية .

وقلت لهم أنه كذلك لأنه صادق فى الناس فطرتهم ، ومن كانت فطرته أصل عقيدته فالالتزام بها نهجا للحياة أيسر ، بل هو أقرب الى الفطرة التى رحبت بالعقيدة .

ولقد قالوا أن السودان ليس غيره ، تتعدد الأجناس فيه بتعدد الألوان داخله ، الغلبة للاسلام بمقاييس العدد ، الا أن غير الاسلام داخله نشط وفـــاعل .

وقلت لهم ، انه الاسلام ما نؤمن ، ما أكره الناس فى دينهم ، بل انه دعا لاكتمال الدين أن يكون اعترافا بكل دين بأنبيائه ورسله وكتبه ، ما عرفنا منها وما لم نعرف ، من جاء ذكره فى الكتاب مفصلا ، ما ألمح اليه الكتاب تلميحـــا .

واننا تعايشنا فى ظل دين يدعو للتعايش ، لنحن أقرب الى مودة المؤمنين من مودة المتعايشين على خلاف عقيدة ، ودين يخاصم دنيـــا .

وقالوا كلها الحدود يخاصمها الزمن ، وهو زمن يتغنى اللسان فيه بانسانية الفرد وحقوق الانسان ، وأقول انه بالاسلام قد تجاوزنا بريق ما يقال ، وعايشنا رحمة وعفوا ومغفرة .

فمن بين عشرات أقيم حد القطع عليهم ، لم يكن بينهم سوى حالتين فحسب توفرت فيهما النية القاطعة ، بينما غيرهم ، كان ممن نالهم العفو شاملا قبل اقامة الحدود ، وأتيحت لهم فرص التوبة واستبانوا بالنذير الواضح ما عليهم لو عادوا ، وحينما عادوا كان العهد ملزما ولازما .

وما بالنا والقطع وهو عقاب وان أودى ببعض قدره ، فانما يحفظ الحياة بباقى قدرة على الحياة مطهرة وشريفة .

مالنا والقطع رغم أن القطع رحمة ، رحمة بمن كانوا يؤذون فى أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ماذا عن القتل وهو بالعدل فى كل بلد ، نفس بنفس، حتى تستقيم الحياة فلا اعتداء على نفس حرم الله قتلها .

ماذا عن القتلة ، وقد أباح لهم شرع الله أبوابا ومخرجا منها العفو ، وقد عفى عن بعضهم ولى الدم فوهبه حيـــاته ، ومنهم من ارتضى دية ، فافتدى بالمال نفســـه .

ماذا عن الزكاة ، وهى وان كانت لليتامى والمساكين وفى سبيل الله، فانها أيضا للمال لا يكتنز ، للمال لا يتجمد ، للمال حركة وبركة حتى لا ينضب بركوده ، أو ينضب بما يســـتوفى منه فى كل حول حـــق لله وللمحتـــاجين من عبـــاده .

ورغم ذلك كله فهى تجربة الخطر ، ذلك اذا ما تجمدت وركنت الى القياس لا تتعداه ، تجنبت الاجتهاد لا تضيف به الى الحياة من جوهر الدين ما يثرى الحياة ويغنيها شرفا وفضيلة وخيرا ورفاهية ورخاءا .

هذا الكتاب وان صادق التجربة وهى على مشارف مشارفها ، فهو امتداد بالتبشير لمـــا سبقه ((النهج الاسلامى لماذا)) ، وهو تمهيد لمـــا قد يشاء الله ان يلحقه ، النهج الاســـلامى الى أين ، حصيلة التجـــربة وقد تجســـدت .

وان كانت فصول هذا الكتاب تتلاحق ، فانها بالحق تتداخل ، ولقد كان ذلك قصـــدا مقصودا .

فما كان الدين انعزالا عن الحياة بكل ما فيها ، وما كان النهج الاسلامى كيف الا تطويقا لمسالب التجربة ، تطويرا للايجابى فيها ، رؤية من خلاله لما كان ، واستشراقا من خلاله لما يمكن أن يكون ٠

ذلك أن النهج الاسلامى كيف ، تماما كالنهج الاسلامى لماذا ؟ درب ونهج ومنهج استلهمناه من جوهر الدين الحنيف ، دين هو للدنيا والآخرة ، دين لا يخاصم الحياة بل هو يطورها ، دين لا يعصم البشر أن يكونوا بشرا، حسبهم أجر المجتهد اذا أخطأ له أجره ، واذا أصاب تضاعف الأجر ٠ وهكذا تتابع فصول هذا الكتاب ٠

تقديم

المنهج الإسلامي كيف..؟
لماذا

كان مقدراً أن يكون « النهج الإسلامى كيف » ، مجرد إضافة اجتهاد إلى ما سبقه « النهج الإسلامى لماذا . . ؟ » .

إلا أنه فى رحاب الإسلام جوهر وعقيدة ، وفى الكتاب آيات توجيه ، ومن الرسول نهج وتوجه ، مما يجعل الالتزام بالوافد صنوا لما سبقه ، لايقف الاجتهاد عند حدود ما كان ولو تمهل ، ولا يجرى الإهمال للجديد إذا ما استقر ، وإنما التجديد كان الإسلام وبالإسلام وللإسلام أيضاً .

نرى الآيات المكية فى كتاب الله الكريم غير تلك التى أوحى بها فى مدينة الهجرة ، نرى ماتصدعت لها بالإجلال شعاب مكة ، وجبال مكة من وحى يوحى غير تلك التى كرمت بها يثرب من آيات الله البينات ، حيث كانت فى الأولى ركائز عقيدة ، وكانت فى الثانية أصول تشريع وأركان مجتمع وعناصر حياة .

نرى أن الكتاب فى أم الكتاب ينسخ آيات أو ينسها ليأتى بخير منها أو بمثلها ، وما ذلك إلا جوهر التجديد بالإسلام .

نرى فى الكتاب وفى نهج الرسول ما أوحى به المولى سبحانه ، وما أخذ به الرسول صلوات الله عليه وسلامه تدرجاً ماهو إلا تأكيد لسنة الله فى خلقه، سنة الله فى كونه ، حيث التفاعل والتبادل متغيرات تغييراً .

نرى فى نهج السلف الصالح من الخلفاء والأئمة ما كان مشروعاً فى رحاب اجتهاد مشروع ، وهو اجتهاد تفسير وليس اجتهاد إضافة .

فما كان لفرد أن يضيف إلى الإسلام فى دستوره ، أو إلى الإسلام فى نهج رسوله ، إلا وكان على الإسلام خارجاً ، من الدين مارقاً ، ملعوناً فى الدنيا والآخرة .

كان الاجتهاد تفسيراً ليس لما هو أصيل وثابت بقداسة النص وكمال النهج ، وإنما كان التفسير مقصوراً على ماهو وافد وجديد ومستحدث فى نهج الحياة نفسها ، .

من حيث هى صلة موصولة بخالق واحد ، ومن حيث ما يجرى فيها مقدراً عليها مكتوباً لها ، وبحيث مايبقى منها ، فما ينفع الناس فهو لله ورسوله ، وأما الزبد فيذهب جفاء .

كان اجتهاد السلف الصالح والأئمة نظرة شمول لإيقاع التغيير فى الحياة ، ماهو عابر فيها ، وما هو طارىء وماهو مؤهل للاستقرار والاستمرار .

هكذا خالف الخليفة أبو بكر صاحبه عمر ؛ حينما رأى ابن الخطاب أن التسليم بالإسلام يحفظ للمسلم دمه وماله ، بينما رأى الخليفة أن إنكار المسلم لحق المسلم فى ماله زكاة أو صدقة يعادل الزيغ والشرك والنفاق جميعاً .

هكذا امتنع عمر عن مال المسلمين وهو صاحب حق فيه بحكم ولايته ، بينما أصاب عثمان منه بحق ولايته .

وما كان الخلاف فى كل هذه الحالات إلا اختلافات رؤية لمتغيرات عصر ، أو هى متغيرات عصر فرضت زاوية للرؤية تناسبها ولا تتعارض مع الإسلام عقيدة وجوهراً .

فما كان الصاحب الأمين خليفة ، إلا صاحب ولاية على عقيدة استقرت بشرائعها فى مجتمع مسلم جديد ؛ ولأنه مجتمع يقوم على شرائع الإسلام ويستند إليها ، فإن رؤية صاحب الولاية للتسليم بالإسلام لاتكفيه دون التزام بالإسلام شرائع وقواعد : بينما العادل ابن الخطاب فى موقع الشورى من صاحبه ، لم يكن يخالفه الرأى فيما رأى ، وإنما يخالفه الرؤية لمكامن الحرج فى وقت الحرج تلك التى سادت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان الارتداد عن الإسلام جانباً منها ، وكان ادعاء النبوة جانباً آخر .

تلك كانت رؤية لعمر تعجل بها محاصرة الفتنة بالاكتفاء والرضا بمن يعلن التزامه بالإسلام توحيداً وعقيدة ، حتى لو امتنع عن الالتزام بالإسلام شريعة ونصاً ، واجبات وحقوقاً .

رؤية خالفتها رؤية ، صاغت كلا منهما متغيرات وفدت دون أن تمس فى وجدان الراعى أو وجدان صاحبه جوهره الإيمان وجوهر الالتزام بل وغاية الحرص على الإسلام ونصرته .

وما كان من عمر بن الخطاب فيما أخذ نفسه وآله من شدة بلغت حدود الحرج حينما مست ضرورات الحياة فى بيته وأهله : مقارنة فى بسطة من العيش أصابت عثمان وأهله فى عهده ، سوى اختلاف متغيرات بين عهد عمر بن الخطاب ، حين كان مال المسلمين صنوا لدماء المسلمين ينشرون به دين

الله ، يجهزون الجيوش ، ويعدون الغزوات وينطلقون فى الأرض براية لا إلــه إلا الله ، محمد عبده ورسوله لترتفع فوق رايات الفرس ورايات الروم . بينما كان عهد عثمان رغم الفتن والمواجع ، عهد انبساط فى رقعة الدولة الإسلامية ، حيث فاء عطاؤها بما كفى ، فاكتفى المحكوم والحاكم .

● ● ●

تلك وقفات ألزمت الفكر بالتوقف أمام متغيرات لحقت الأمة الإسلامية بل والعالم من حولها منذ صدور كتاب النهج الإسلامى لماذا . . ؟ وهى ذاتها التى اقتضت التمهل والتبصر قبل الشروع فى كتابة حتى السطور الأولى من كتاب النهج الإسلامى كيف . . ؟ بحيث أصبحت أداة الاستفهام فى الكتاب الأول « لمــاذا » لازمة ومواجهة بالنسبة للكتاب الثانى « كيف » .

ما أعنيه وأقصده هو محاولة للإجابة على سؤال هو عنوان هذا التقديم ، لماذا « النهج الإسلامى كيف » . . ؟

ذلك أن الاجتهاد فى الفكر وهو محاولة محكومة بما يحكم الآخرون عليها ، ليس مجرد محاولات إضافة لمكتبة إسلامية عامرة ، امتد عطاؤها إلى مايزيد على ألف وأربعمائة عام ، ويتواصل عطاؤها إلى ماشاء الله ويأمر .

وإنما الاجتهاد هو جهد موكول لغاية ، هى أن يكون النهج الإسلامى دربنا ، مسار تقدمنا ، راية صفوفنا ، عزة توحدنا ، مجمع إرادتنا ، قــيما للفــكر والمسلك ، للفرد وللجماعة ، لنــا نحن جموع المسلمين .

ولأن الإسلام ونهجه هو إشبــاع احتياجات عصر بحكم تلاؤم الإسلام مع كل عصر ؛ فإن « لمــاذا » التى فرضت بالإيجاب كتاب النهج الإسلامى حين صدر ، إنما هى نفسها التى تفرض بالإيجاب أيضاً كتاب النهج الإسلامى « كيف » حتى قبل أن يصدر .

● ● ●

فلماذا كتـــاب عن النهج الإسلامى كيف . . فى هذه المرحلة ؟ .

. . على نطاق السودان . . ، فليس هناك مايميزه عن غيره من أمة الإسلام المنتشرة ، أو التزام دون البـــلدان المبعثرة على خريطة العالم ، رغم تجاور بعضها إلى حد التداخل ، بل ورغم عداء بعضها لبعض إلى حد القتال .

النهج الإسلامى بالنسبة للسودان حاجة تقدم وحاجة نمو ، والأهم هو حاجة عبادة وتوحد بالإسلام وتوحد فيه ، لأن السودان لايريد أن ينعزل عن الأمة المسلمة ولأن السودان يريد أن يكون عنصر وئام للأمة الإسلامية ، فما كان السودان بنهج الاسلام يتطلع إليه إلا جزءاً من أمة واحدة ، هى خير أمه أخرجت للناس بالتزامها بالإسلام نهجاً وبالإسلام رشداً ورشاداً . .

ولا أرانى مدعياً على أمة أنتمى إليها باللسان والمكان والثقافة والمصير ، وهى أمتنا العربية ، لست مدعياً عليها لو قلت أنها هوية ووجود تقترب من شواطىء العدم ، مالم يعصمها من الله عاصم .

عاصم هو الإسلام نهجاً ، عاصم هو الإسلام منهجاً ، عاصم هو الإسلام شريعة وديـنـــاً ومساراً وغاية .

فعلى مشارف قرن هجرى يبدأ ، وعلى مغارب قرن ميلادى يوشك أن يبلغ غروبه ، ما الجديد على أمة تتصل حدودها بين محيط وخليج ، تزايدت ثرواتها بما لم يحصره الخيال ، تعاظمت قدراتها بما لم يتم للأولين حين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، تزايد جندها ، وتعددت جيوشها ورغم كل ذلك تعددت هزائمها ، أضرمت معاركها مع النفس انتحاراً ،

بينما العدو للأرض غاصب وللحق مغتصب ، ولغير الاستسلام الكامل لأمة بكاملها رافض ؟

هى أمة ازدوجت هويتها ، فإذا بها شق من هوية تواجه الشق المناهض، من هويتها .

هى باسم القومية العربية تواجه إسرائيل ككيان ودولة ، بينما إسرائيل باسم اليهودية تواجهها كدين وعقيدة ، وعندما يكون للخصم حرية الاختيار فيما يهاجم ، فإنه بتحديد مواضع الضعف فى خصمه يحشد له ويجند .

وهكذا احتشد بالحماس الفاعل وليس بالتأييد السلبى فى مواجهة الأمة العربية كل أعداء الدين الغالب فى الأمة العربية ، فإذا بالجنسيات تسقط ، وإذا بالأيدولوجيات تتوارى ، بل إذا بالحدود تذوب وجموع من كل جنس وأرض يتوافدون على إسرائيل باسم الدين لمواجهة قومية يمكن بالإسلام أن تكون أكبر خطر عليه .

اختار العدو فينا مايوحده ، واختار العدو منا مالا يجمعنا ضده ، فإذا كان ذلك رغم حيويته وأهميته لم يصمد غير مرة والأصح بعض مرة ، فإن علينا أن نراجع ما اخترناه وسيلة لتوحيد صفوفنا ، نراجعه لاننكره ، وإنما نراجعه لنزيد عليه ، وإن كان الأصح نراجعه ليضاف الجوهر والأصل له وهو الإسلام .

● ● ●

لأننا فى أمة ماتوحدت أبداً إلا بالإطار الإسلامى الذى جمع المحبة به رسول السلام والوئام . وماحية الخصام والانقسام، ومبعث الهناءة والصفاء، وجمع الصفوة فى الفكر ، والصفوة فى العلم بل والصفوة فى التعامل مع اللغات الأخرى ، وهم قدرة منفردة على الاتصال بالحوار عبر أقطار اختلطت اللغة فيها بما وفد إليها .

ضعف الإسلام فى النفوس ، تسابق المسلمون لمراتب الدنيا ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، بدأت اللغة فى الاضمحلال ونحن ساهون ، دخلت عليها لغات كادت أن تعصف بها . فهناك عربية مشوبة بفرنسية ، وهناك فرنسية مشوبة بعربية ، وهناك بدوية لاتفهم فى الحضر ، وهناك تراكم سنوات ساد فيها العجم جنداً ، والعجم لغة ، والعجم ثقافة ، فضاعت الأصول أوكادت ، ولولا رحمة من الله سبقت حفظت اللسان العربى بالقرآن العربى ، لما بقى فينا حتى ولو من الصفوة ما يمكن من اتصال بحوار ، إلا أن الصفوة ولو تفوقت، إلا أن الصفوة وإن كانت من الأمة ، إلا أنها ليست جماع الأمة . . . جماع الأمة هم جند الأمة وأدواتها فى التحرير والتعمير .

جماع الأمة هم ضميرها الواحد ، ووجدانها الواحد وتوجهها الموحد .

● ● ●

فنحن نعيش فى السودان ، حيث توحدت اللهجات المحلية من خلال قاسم مشترك هو اللغة العربية ، وما كان ضعيفاً منها أدخل الكلمات العربية بنفس معناها ولكن بنطق يختلف ، ولذلك فأنه من واجبنا انتهاج الإسلام الصحيح الذى يبدأ ويقوى بتعلم اللغة العربية التى لايكون بخلافها إسلام .

ولننظر فماذا نرى فى بعض مناطق المسلمين ؟ . .

** بدو الصومال غير بدو نجد .

** رحالة المغرب غير عرب العراق .

** عامية مصر ، غير فصحى الحجاز .

** عربية السودان حتى فى السودان ، يضاف إليها ويحذف منها بحسب المناطق .

وحينما تضيع من أمة وسيلة الحوار ، فإن الاجتماع على هدف يحتاج فى البداية إلى جهد التعريف به ، وإلى جهد الدعوة له .

ولأن الهوية القومية سادت ، فإن الهوية الإسلامية تراجعت ، وكان المطلوب أن تتوازن ، حيث لاتناقض بين هوية جوهرها الثقافة العربية ، وهوية جوهرها القرآن العربى وأساسها القرآن العربى ومنشؤها القرآن العربى .

وعلى طريق سارت فيه هوية قومية خاصمت أو على الأقل ابتعدت عن هويتها الدينية ، فلا تكافل بل خصومات ، ولا تحالف وإنما صراعات ، ولا تساند وإنما اقتتال بالحق والباطل . فما دام ما يجمع من الممكن أن يفرق ، فلقد سادت الفرقة فينا حتى ونحن نقاتل عدوا واحداً ، بل سادت الفرقة فينا حتى تحكم فينا عدو واحد .

ولأننا بغير الإسلام اعتصمنا ، فإننا على غير هداه تخبطت خطانا .

وإذا بنا نواجه حتى بالإسلام أنفسنا ، فى حرب شرع القرآن حدودها ، حيث واجب المسلم أن يصلح ، وحيث واجب المسلم أن يفرض الصلح على الباغى حتى يفىء .

وإذا بنا نمسك المال عن أنفسنا ، فإذا به لغيرنا بل فإذا به لعدونا . . .

ولأننا على غير الإسلام التقينا ، ولغير الإسلام واجهنا عدو الإسلام وعدونا ، فقد ضاقت بنا الأرض ، ولم تتسع إلا بنصير يناور ، وصديق يخادع ، وحليف يتحالف مع عدونا علينا بالسلاح والمال والرجال أيضاً .

كل ذلك والأرض بما رحبت ، قد انتشر الإسلام فيها وتكاثر المسلمون في رحابها ، فإذا استنجدنا لتخليص مقدسات الإسلام فى القدس فبغيرهم ، وإذا انطلقت صيحاتنا واعروبتاه وليس واسلاماه ، فإن صدى الصيحة يغيب فينا ولا يرتد لسوانا ، فما توجهنا إليهم ولا استنجدنا بهم .

وإذا بنا بالهوية اللغوية ، لانتعامل معها إلا فى حدود إمكانياتها وبغير تطوير ، فإذا نحن انصرافا عنها ، نتعامل مع العصر بمستحدثات العصر ومفرداته .

وهكذا لامس التقدم العلمى أطراف أصابعنا ، دون أن ننال منه مايكفى لتطوير أوطاننا ، وشحذ طاقاتنا ، واستثمار ثرواتنا ، وصنع تقدمنا .

ولو كان الاعتصام بالإسلام عقيدة وهوية ، لما كان هناك حاجب يعزلنا عن نصرة دين الله اجتهاداً وجهاداً فى سبيله ، بل لكنا كما كان السلف تمسكاً براية التوحيد وعقيدة التوحيد ، غزوا للفكر وإضافة للفكر ودفعاً للتقدم .

ولو أننا اعتصمنا بالعقيدة الإسلامية كنهج وهوية لأخطأنا ما أصابنا أفراداً وجموعاً ، فما عرف الإسلام ترفعاً عن العمل أياً كانت ساحاته ، ولا أقر الإسلام ترفاً للفكر ليكون بديلا لضرورة الجهد ، ولكنا فى أرضنا أصحاب أرضنا ، لا يستثمرها غيرنا نيابة عنا ، بل ولا يستنزفها بدلا منا غريب على العقيدة والأرض والتراب .

● ● ●

النهج الإسلامى كيف . . لماذا . . ؟

لأنه محاولة اجتهاد لمن يلتزمون بما أمر القرآن عباده أن يتواصوا بالصبر ، فلا عجلة فى تجاوز تراث قرون ولا تسرع فى إزالة رواسب أجيال ، ولامناص من الغوص فى عمق ما كان ، حيث الرسالة والرسول والسلف الصالح والأئمة ، بحثاً عن الدرب الصالح للعمل الصالح ، بغير اغتراب عن عصر نعيشه ، بل وعصور تعيشها ما بعدنا من أجيال .

● ● ●

النهج الإسلامى كيف . . . لماذا . . ؟

لأننا على مشارف هاوية ما عادت النجاة منها ممكنة بمجرد التوقف عندها ، وإنما النجاة منها فى تجاوزها دون السقوط ، حيث لاعاصم إلا الإسلام منهجاً ، والإسلام درباً .

ولكن كيف . . . . ؟

هذا هو موضوع الكتاب . . .

● ● ●

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ

رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ

كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا »

« صدق الله العظيم »

النهج الإسلامي كيف ؟

الفصل الأول

جغرافية المكان وبناء الأمة

جغرافية المكان وبناء الأمة

عكس ما كان شائعاً ومألوفاً ، فإننى لم أكن أشارك الكثيرين اعتقادهم بأن اتساع مساحة السودان تشكل عائقاً أمام بناء الأمة السودانية الموحدة ، ذلك أن الذين اكتفوا بقراءة السودان من خلال المليون ميل مربع التى يشغلها من القارة الأفريقية ، كانوا تماماً كالذين ظنوا أن امتداده من خط عرض (٤) إلى خط عرض (٢٢) ، يمكن أن يشكل اختلافات فى المناخ والنبات والتربة ، تختلف باختلافها نوعية السكان من حيث العرق والثقافة والمناشط الاقتصادية .

ولقد كان أصحاب هذا المنطق يستندون إلى علم الجغرافيا وفروعه ، وهو نفس العلم الذى ساند منطقى المخالف لرؤيتهم ، ولا أعتقد أن الفارق الكمى لدرجة الاستيعاب لهذا العلم هو الأصل فى اختلاف الرؤية ، وإنما هو الاختلاف فى التعامل مع علم الجغرافيا وهو علم تطبيقى لا تحكمه نظريات جامدة ولا معادلات إحصائية ثابتة ، ولكنه يمثل منهجاً وإطاراً للرؤية

يساعد على إدراك العلاقات المتبادلة بين مختلف العوامل ، والتى تشكل فى مجملها الظاهرة الجغرافية ببعدها المناخى والجيولوجى والسكانى والنباتى والحيوانى فى إطار واحد . ولعلنى أخالف الذين اختلف معهم فى رؤيتهم لجغرافية السودان ، لأننى لم أكتف بالنظر إليه من خلال خطوط الطول والعرض فوق الخرائط ، وإنما درست جغرافيته وتاريخه كوحدة متكاملة من ناحية ، ولأننى — ولعل هذا هو العامل الأهم — كنت قد درست الطبوغرافيا من خلال دراستى للملاحة الجوية ، ولقد أتاح لى ذلك رؤية شاملة للسطح على امتداد السودان ، بالإضافة إلى أننى ومن خلال خدمتى فى القوات المسلحة ، أكاد أكون قد طفت بكل أنحاء السودان بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك السير على الأقدام .

ولهذا فإننى أخالف وأختلف مع الذين يرون أن مجرد اتساع مساحة السودان ، يعنى وجود اختلافات جغرافية ومناخية وثقافية وعرقية بين مختلف أجزائه . ١

ذلك أن المساحة قلت أو كبرت لاتمثل وحدها عوائق أمام التجانس الثقافى والعرقى ، فنحن نجد على سبيل المثال أن المنطقة الواقعة على جانبى جبال الألب فى أوربا ، وهى من حيث المساحة لاتقارن بمساحة إقليم واحد من أقاليم السودان الثمانية ، تضم قوميات وأجناس وثقافات بل ولغات مختلفة ، بالإضافة إلى أنها كيانات دولية متمايزة ، تتمثل فى النمسا وسويسرا وإيطاليا ، مما يقطع بأن عوائق الاتصال الجغرافية والمتمثلة فى جبال الألب ، هى الأصل فى هذا التمايز ، بينما تتميز الرقعة الجغرافية التى يشغلها السودان بالتواصل بغير عوائق طبيعية ذات شأن ، فبخلاف تلال الأماتونج فى أقصى الجنوب ، وتلال مره فى أقصى الغرب ، وتلال البحر الأحمر فى أقصى الشرق ، لاتوجد عوائق طبيعية فى السودان تحول دون تواصل الرقعة الجغرافية التى يشغلها فى القارة الأفريقية .

وبنظرة مقارنة بين النيل الأبيض الذى ينحدر بتدرج هادىء من جوبا وحتى الخرطوم ، نجد أن الانحدار العنيف للنيل الأزرق داخل أثيوبيا لايشكل مجرد عائق أمام التجانس القومى وحده ، وإنما أمام الاستثمار الاقتصادى لمياه النهر أيضاً ، بينما نفس النهر وعند خروجه مباشرة من الهضبة الأثيوبية يتهادى فى السهول السودانية ، ليشكل رابطة حيوية بين جنوب وشرق ووسط البلاد .

فإذا أضفنا إلى طبيعة السطح تنوع بل تدرج المناخ ، فإننا نكون إزاء ظاهرة مناخية فريدة ، ففى الوقت الذى تتقارب فيه درجات الحرارة فى معظم فصول السنة فى جميع أجزاء السودان ، فإننا نجد أن هناك تدرجا فى توزيع الأمطار من الجنوب إلى الشمال ، فهناك الأمطار الاستوائية وشبه الاستوائية فى بعض مناطق الإقاليم الجنوبية ، وهناك الأمطار الصيفية فى جنوبى دارفور وكردفان وأعالى النيل ، وهناك قلة الأمطار والتى تصل إلى حد الندرة فى أقصى شمال البلاد ، وبذلك تتكامل المناشط الاقتصادية التى تقوم أساساً على الزراعة والرعى معاً ، وتشكل محركاً لحركة السكان الداخلية طوال العام من الشمال إلى الجنوب والعكس . فبينما يؤدى الجفاف مثلا إلى تحرك قبائل الكبابيش والبقارة جنوباً ، نجد أن زيادة الأمطار فى الجنوب تؤدى إلى حركة من المناطق المنخفضة الرطبة إلى الأماكن المرتفعة والأقل رطوبة ، وفى الوقت الذى يتقلص فيه النشاط الرعوى فى وقت الجفاف ، تتزايد الحاجة إلى العمالة الزراعية فى المناطق المروية وخاصة منطقة الجزيرة فى الإقليم الأوسط ، ومناطق الزراعة المطرية فى الإقليم الشرقى ، الأمر الذى يؤدى إلى تحرك بشرى شبه دائرى يشمل معظم مناطق السودان ومن كل مناطق السودان .

كذلك فإن التداخل بين مناطق السودان المختلفة فى الشرق والجنوب والغرب والشمال ، أدى إلى اختزال الدور الذى كان من الممكن أن تلعبه

المساحة الواسعة من حيث الإطلال والاتصال بالعالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر ، والذى تمتد الشواطىء السودانية على ساحله من قرورة فى الجنوب إلى حلايب فى الشمال ، وهو اتصال لم يقتصر على الإقليم المطل على البحر الأحمر وحده ، وإنما عم كل أقاليم السودان ، حيث لا توجد عقبات طبيعية تحول دون امتداد خطوط السكك الحديدية . أو مد الطرق البرية من الميناء إلى الداخل أو العكس ، بينما نرى أن جبال الألب على سبيل المثال ، تمثل عوائق استدعت شق الانفاق ، أو نرى أن العزلة الجغرافية قد أدت إلى التعامل مع موانىء أجنبية كما هو الحال بالنسبة لبعض الدول الأفريقية .

إن السطح المنبسط للسودان لم يؤد إلى التجانس الجغرافى بشقيه النباتى والحيوانى فحسب ، بل إنه أدى إلى تحقيق التجانس العرقى والثقافى أيضاً .

فإلى جانب الحركة الداخلية المستمرة للسكان فى جميع أنحاء السودان والتى تدعم التجانس القومى ، كانت الهجرات العربية القديمة للسودان والتى دخلت السودان عبر منافذ متعددة ، لم تكن مقصورة على البحر الأحمر فى الشرق ، وإنما وفدت على السودان من الغرب والشمال أيضاً . كما أن تلك الهجرات لم تتوقف حيث دخلت ، وإنما كانت دائمة الحركة والانتشار فى جميع أنحاء السودان ، ثم إنها فى حركتها إلى السودان وفى داخله ، لم تتحوصل فى تجمعات متمايزة ، وإنما اختلطت وتفاعلت مع كل مكونات البيئة الجغرافية والبشرية ، ولعل هذا هو السبب فى سيادة الثقافة العربية فى جميع أنحاء السودان ، فبالرغم من تعدد اللهجات فى السودان والتى تصل إلى حوالى الثلاثمائة لهجة ، إلا أن لغة الاتصال بين مختلف القبائل سواء فى الجنوب أو الشمال أو الغرب أو الشرق هى اللغة العربية .

كذلك فإن التشابه فى التركيب اللغوى للهجة النوبة فى شمال السودان ولهجات الباريا فى أعالى بحر الجبل فى الجنوب ، لا تؤكد وحدة الثقافة

فقط ، وإنما الوحدة العرقية والثقافية المتشابهة للنوبة السودانية والتى تقع على حدود مصر الجنوبية والقبائل التى تعيش فى جبال النوبا فى غرب السودان ولتنهض دليلا أيضاً على أن الحركة البشرية كانت وما زالت دائمة ومتصلة فى جميع أنحاء السودان ، وهى حركة تتعزز بتكامل المناشط الاقتصادية ، والتى نرى صورتها المثلى فى النزوح بين الرزيقات والمسيرية والدينكا على سبيل المثال ، والذى تدفع إليه الحركة الموسمية للرعاة بين الشمال والجنوب على ضفاف بحر العرب .

• • •

إن الواقع الجغرافى لا يشكل بمفرده إمكانيات التجانس القومى وبناء الأمة الواحدة فحسب ، بل إنه يؤدى إلى خلق مناخ نفسى يؤدى ذات الغرض وبصورة فعالة ، فالسهول السودانية المنبسطة تعطى الإحساس بالأمان وبالتالى بالثقة بين سكانها ، بينما يتميز سكان المرتفعات بسيادة الشكوك والريب فيما بينهم كانعكاس طبيعى لاحتمالات المباغتة عبر دروب ومسالك غير منظورة ، كذلك فإن التداخل بين احتياجات الزراعة المطرية والزراعة المروية للأيدى العاملة وفى أوقات مختلفة ، أدى بالفعل إلى إلغاء دور المكان والمساحة كعوامل فاصلة بين السكان ، ومع هذا كله فإن العوامل الجغرافية والتاريخية لا يمكن الركون إليها وحدها ، لتشكل وحدة الأمة ، فبالرغم من فاعليتها المؤكدة إلا أنها تحتاج إلى تواصل زمنى غير محدود ليتأكد دورها فى صياغة وحدة الأمة الواحدة ، ولذلك فقد كان من الضرورى أن يستثمر الواقع الجغرافى بمعطياته التاريخية والاقتصادية والمناخية لتحقيق عدة أهداف متداخلة وهى :

أولا : تأكيد التطابق بين الوحدة الجغرافية للسودان والوحدة القومية للسودان .

ثانياً : استثمار المعطيات الجغرافية والمناخية لتلعب دوراً متكاملا في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى جميع أنحاء السودان وبصورة متكاملة ومتعادلة فى وقت واحد .

ثالثاً : استثمار الواقع الجغرافى فى السودان وحوله لإقامة علاقات تقوم على أساس من التعاون والتكامل مع الدول المجاورة من ناحية ، ومع الأسرة الدولية من ناحية أخرى .

وبهذا التدرج وفى إطاره كانت بداية خطواتى منذ خمسة عشر عاما ، أى منذ أن توليت السلطة فى السودان .

ففى إطار التعرف على الواقع الجغرافى لمختلف مناطق السودان والذى يقوم على الاعتراف بالتنوع المتكامل بين مختلف أجزائه ، نجحت فى معالجة قضية الجنوب السودانى وهى المعالجة التى تأكدت فعاليتها لا بالنسبة للجنوب وحده ، وإنما بالنسبة لمختلف أقاليم السودان وذلك بنقل السلطة للجماهير لتشارك فى حكم بلادها .

فاليوم هناك حكومات إقليمية ومجالس تشريعية إقليمية فى الجنوب والشمال والوسط والشرق والغرب ، وهناك إلى جانب خطط التنمية الاقتصادية القومية والتى قطعت شوطاً كبيراً ، هناك خطط التنمية الإقليمية والتى لا تتناسب مع احتياجات الإقليم فقط ، وإنما مع موارده أيضاً ، والتى روعى أن تحقق فائضاً لاحتياجات باقى الأقاليم وللتصدير الخارجى كذلك ، وإذا كانت التنمية الإقليمية قد تأخرت لبعض الوقت ، فإن ذلك لا يرجع إلى صعوبات التمويل وحدها ، وإنما يرجع إلى الحاجة الماسة إليه بالنسبة للسودان كله ، فمعظم المشروعات القومية التى اكتملت وتلك التى هى على وشك الاكتمال مشروعات للتنمية الأساسية ، كالطرق العابرة

لكل السودان ، وشبكة الاتصالات السودانية « سودسات » والتى ساعد مناخ السودان وطبيعة سطحه المنبسط أن تغطى ٩٠ ٪ من المليون ميل المربع الذى يمثل المساحة الكلية للسودان .

كذلك الحال بالنسبة للاستثمار الواسع للموارد القومية ومن بينها على سبيل المثال مشروع قناة جونقلى ، والذى سيؤدى إلى توفير مليارات الأمتار المكعبة من المياه اللازمة للرى بالإضافة إلى تغيير اجتماعى واقتصادى شامل فى منطقة المشروع .

كذلك فإن الطاقة الكلية لمصانع السكر ومن بينها مشروع سكر كنانة ستصل قبل نهاية هذا العقد إلى حوالى مليونى طن من السكر سنوياً ، وهى أيضاً تمثل استثماراً ناجحاً لصلاحية التربة والمناخ لهذه النوعية من الإنتاج الزراعى الصناعى المتكامل ، والذى لن يوفر احتياجات السودان وحده ، وإنما سيمثل ركيزة للتكامل مع الدول المجاورة فى الشرق الأوسط وأفريقيا من هذه السلعة الهامة .

إن الوعى بالطبيعة الجغرافية الغنية والمتنوعة فى مختلف مناطق السودان ، لم يساعدنا فقط على التوسع فى الإنتاج الزراعى ، كما هو الحال فى مشروع الرهد والسوكى ، والتكثيف الزراعى فى مشروع الجزيرة ، وإنما كان هو الأساس فى التوسع فى صناعة النسيج والغزل والتى يمكن أن تستوعب الزيادات المتوقعة فى إنتاج القطن ، كذلك الحال بالنسبة لمعاصر الزيوت والتى تواكب التوسع السريع فى زراعة الحبوب الزيتية ، سواء فى المناطق المطرية أو المناطق المروية .

كذلك فإن السودان كجزء من الكتلة الصلبة فى أفريقيا ، والتى تتكون من صخور القاعدة الأساسية فى معظمها بالإضافة إلى بعض التكوينات

الرسوبية ، قد ساعده ذلك على إيجاد طبيعة جيولوجية متجانسة فى كل أنحائه ، ولهذا فإن الجهود المبذولة حالياً فى التنقيب عن البترول لا تقتصر على منطقة واحدة ، وإنما تشمل الغرب والشرق والوسط والشمال والجنوب فى وقت واحد .

وبطبيعة الحال فان البيئة الجغرافية المتجانسة والتى تشكل قاعدة التماثل الثقافى ، قد ساعدت أيضاً فى الجهود التى بذلت وتبذل فى مجال التنمية الاجتماعية والخدمات ، حيث لا توجد عوائق تحول دون انتشار الخبرات والكفاءات وسهولة تعاملها فى كل أنحاء السودان ، بالإضافة إلى إمكانية الاستفادة من خدمات التعليم فى مختلف مستوياته بصورة متكافئة ، ولكل السودانيين مهما اختلفت مناطقهم .

فجامعة جوبا وجامعة الجزيرة تضم كل منهما طلاباً من غرب وشرق وشمال وجنوب السودان ، وجامعة الخرطوم هى جامعة قومية تماماً ، كذلك الحال بالنسبة لغيرها من الجامعات والمعاهد العالية التخصص .

ولا يقف الدور الذى تلعبه الجغرافيا عند حدود سياستنا الداخلية ، بل إنها تشكل الأساس فى سياستنا الخارجية أيضاً ، فالسودان المتجانس قومياً ، يملك كل مقومات التكامل البشرى والاقتصادى مع جيرانه الثمانية ، ويكفى أن أشير إلى طول خط الحدود السودانية الأثيوبية والذى يصل إلى ١٢٠٠ كيلو متر ، وهى حدود يتداخل السكان على جانبيها بصورة مذهلة ، فالقبائل ليست متداخلة فقط ، وإنما هى قبائل موحدة لا يفصلها سوى الخط الوهمى للحدود والذى لا يحول دون تحركها بل ولا يحول دون استثمارها للموارد الاقتصادية فى البلدين بصورة متساوية ، كذلك الحال بالنسبة لباقى الدول المجاورة للسودان ، كمصر وكينيا وتشاد ويوغندا وزائير وأفريقيا الوسطى ، ولهذا فان تعاملنا مع هذا الواقع

الجغرافى بأبعاده البشرية والاقتصادية لا يقف عند حدود التسليم به ، وإنما نسعى لتقنينه بل واستثماره لصالح السودان وجيرانه فى وقت واحد .

من هنا كانت اللجان الوزارية المشتركة بين السودان وكل الدول المجاورة له خطوات على طريق تحقيق التكامل والتوسع فى تجارة الحدود ، كخطوة أيضاً على طريق تحقيق التكامل الإقليمى .

ومن خلال هذا الواقع الجغرافى وبسببه ، فإننا نرى أن الاستقرار والأمن فى الدول المجاورة لنا ، ليستا مجرد ضمانات استقرار فحسب ، وإنما قاعدة للازدهار والتنمية بالنسبة لنا ولهم وفى وقت واحد .

إن اضطراب الأحوال فى أى من الدول المجاورة لنا يعنى وعلى الفور أن نتحمل نصيبنا منه كاملا شئنا أم أبينا ، فأرضنا المتاخمة لهم هى ملاذ مئات الآلاف من اللاجئين ، وحدودنا المشتركة بل المتداخلة لن تعرف الهدوء فى ظل غياب الاستقرار فى أى منها ، بالإضافة إلى أننا ندرك أننا نمثل الصيد الثمين بالنسبة للأطماع الدولية ، وأن أى محاولة للسيطرة الأجنبية على أى منها إنما هى خطوة على الطريق إلينا ، وعلينا فى هذه الحالة ألا نقف جامدين انتظارا للخطر المؤكد .

إننا على سبيل المثال ، لم ننظر إلى اضطراب الأوضاع فى تشاد فى أى وقت من الأوقات ، إلا أنه مدخل جديد للسوفييت للسيطرة على كل أفريقيا ، وفى المقدمة السودان ، بما فى ذلك مصر وهى من أكبر الدول نفوذا فى القارة وأكثرها تأثيراً فى الشرق الأوسط . ولذلك فإننا سعينا منفردين وبالتعاون مع منظمة الوحدة الأفريقية ، أن نضع حداً للنزاع فى تشاد ولقد نجحنا بالفعل حينما تشكلت حكومة وحدة وطنية فى تشاد ، وهى الحكومة التى كان من المفروض أن تجرى انتخابات لقيام حكومة دائمة هناك ، إلا أن

مسعانا لتحقيق الاستقرار فى تشاد كان يلاحقه بل يسابقه تخطيط الاتحاد السوفييتى متستراً وراء أطماع القذافى ، والذى كان اغتياله لدبلوماسيين سودانيين فى العاصمة إنجامينا بداية تحركه داخل تشاد بآليات سوفييتية وخبراء سوفييت وألمان شرقيين وكوبيين ، ولذلك فإننا فى السودان ندرك أننا لا نواجه العقيد القذافى وإنما نواجه الاتحاد السوفييتى الذى يحركه ، والذى لن ينسى للسودان أبداً ولن يغفر للسودان مطلقاً ، انه استطاع أن يقضى على خرافة أكبر حزب شيوعى فى العالم العربى وأفريقيا وهو الحزب الشيوعى السودانى ، كذلك فإنه لن ينسى ولن يغفر أن السودان كان أول من فتح باب خروجه الكبير من المنطقة ، وإذا كنا نرى أن أمن السودان لا يتجزأ من أمن واستقرار الدول المجاورة له فى الغرب والجنوب ، فإننا نرى أيضاً أن أمننا لا ينفصل عن أمن البحر الأحمر الذى نطل عليه ، ولهذا فقد دعوت وما زلت لتحييد البحر الأحمر والمحيط الهندى وإبعاده من الصراع الدولى ، بل إننى فى الوقت الذى طالبت فيه بعقد قمة لدول حوض النيل لبحث سبل التعاون فى استثمار النهر اقتصادياً ، كنت قد نجحت فى عقد مؤتمر لبعض الدول المطلة على البحر الأحمر من أجل تحييده وإبعاده عن الصراع الدولى ، ذلك أننى أؤمن بأن الأمن السياسى هو ركيزة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفى النهاية ، فإن تميز الوضع الجغرافى السودانى فى القارة الأفريقية والمنطقة العربية بالإضافة إلى تكوينه الجغرافى الفريد ، يلقى على عاتق السودان مسئولية سياسية واقتصادية تجاه العالم .

فالسودان بموقعه الجغرافى ركيزة استقرار وأمن وسلام وهو بوتقة تفاعل لمختلف الثقافات ، وهو داعية تعاون اقتصادى وسياسى بين العرب وأفريقيا وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، من خلال الموارد المتاحة لكل الأطراف سواء كانت مالية أو مادية أو تكنولوجية .

بالإضافة إلى أن إمكانيات السودان الواسعة والتى تشكل أنجح معدلات إنتاج الغذاء فى العالم ، وهى النهر والمطر والطقس والتربة الصالحة بمئات الملايين من الأفدنة ، إنما هو واحد من الحواجز الرئيسية فى العالم أمام وحش الجوع الزاحف عليه ، وهو بهذا أعظم مصدر للطاقة ، تلك التى يحتاجها البشر لا تلك التى تلتهمها الآلات .

● ● ●

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْـدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْـكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَـمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)»

« صدق الله العظيم »

النهج الإسلامي كيف ؟

الفصل الثاني

من التعامل إلى التكامل

عثرات على الطريق

من التعامل إلى التكامل

عثرات على الطريق

ما يربط مصر بالسودان ، شىء ما يختلف عما تردد منذ أوائل هذا القرن عن علاقات العواطف بين الشعبين ، كما يخرج عن دوائر اهتمامات مصر الثلاثة كما بشر بها عبد الناصر ، وعبر عنها محمد حسنين هيكل الكاتب والصحفى المصرى القدير .

لا يقف السودان عند أى من هذه الدوائر ، لا الدائرة العربية التى تجمع مصر بالعرب ، ولا الدائرة الأفريقية التى تربط مصر بالقارة ، ولا الدائرة الإسلامية التى يندرج فى إطارها كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فى كل مكان وزمان ، بل إن علاقة السودان ومصر خرجت حتى على اهتمامات مصرية لاحقة بالعالم الثالث وعالم عدم الانحياز .

ما يربط مصر بالسودان شىء كذلك الذى تتسم به عاطفة الإنسان ، عندما تتوازن داخله رغبة عميقة فى الاندماج مع رغبة عميقة فى إثبات الذاتية والهوية .

هناك فوارق تحتم التكامل ، إلا أنها نفسها عقبة أمام مزايدات الاندماج.

هناك فى مصر دولة عمرها من عمر الزمان ، سبعون قرنا أما هنا فى السودان فالأمر يختلف .

هناك فى مصر تجانس بشرى ، الغريب أن النيل المنحدر من السودان كان هو الأصل فيه ، النهر وانتظامه ، الرى ومتطلباته ، الزراعة ودوراتها ، ثم الالتصاق بالنهر نفسه ، حيث البعد عنه هجرة إلى صحارى مصر الشرقية والغربية ، ثم صحراء التيه المقدسة فى شبه جزيرة سيناء .

أما هنا فى السودان ، فإن النهر بثرائه ، النهر بروافده ، المطر بدوراته ، المساحة باتساعها ، السكان بتعدد جذورهم العرقية ، الثقافات السائدة ، اللغات المتعددة ، الأديان والمعتقدات ، كل ذلك صاغ من المعادلة السودانية البشرية ما يختلف عنها فى مصر .

السودان الواحة والساحة والسهل والسفح والغابة والنهر والبحر والجبل ، الامتداد الجرافى فى المكان والتناثر غير المحدود فى السكان ، كل ذلك صاغ للسودان توجهات غيرها فى مصر ، توجهات لعل أهمها وأخطرها أن الوحدة الوطنية المؤمنة بالجغرافيا فى مصر ، هى ذاتها الوحدة الوطنية المهددة بالجغرافيا فى السودان .

فى مصر ، الشريط الضيق حول النيل يتجمع المصريون حوله . . فى السودان ، التعدد فى روافد النهر ، بل والتعدد فى منابع النهر يتفرق الناس به ، إضافة إلى غيرهم ، تغريهم الأمطار كثرتها أو ندرتها إلى الترحال هرباً منها أو بحثاً عنها .

فى مصر حيث وحدة النهر وضبط الرى والحفاظ على دورة الزراعة جعل من الدولة ضرورة حياة . . وفى السودان حيث تعدد المصادر وتنوع

الموارد ، جعل من الدولة فى بعض المراحل سياجاً وهمياً افتراضياً كخطوط الطول وخطوط العرض .

السلطة للقبيلة وزعامتها ، للعشيرة وقيادتها ، للادارة الأهلية ، والتى غذاها وساعد على نموها وتأكيد فعاليتها عهود من الاستعمار الطويل ، رأى فى حكم الجزء بالجزء ضماناً لسيادته الكلية بغير تكاليف . .

فى مصر كانت أقدم المعارك معركة التوحيد التى قادها الملك مينا فى الزمن القديم ، حيث وحد الوجهين البحرى والقبلى تحت زعامته وفى ظل سلطانه وتاجه .

فى السودان كانت معارك التوحيد هى معارك التحديث حيث القديم مطلوب بعائده ، وهو تكريس الفرقة ، والحديث مطلوب لعائده وهو تحقيق الوحدة .

فى السودان خاض الاستعمار آخر معاركه وأخطر معاركه بتكريس الانفصال بين الجنوب والشمال ، وخاضت الطائفية أعتى معاركها حفاظاً على التجزئة ، حيث يصر كل صاحب سلطان أن ضمانات سلطانه ، هى الاحتفاظ بالجزء متصارعاً مع الجزء إلى ما لا نهاية .

فى مصر حيث الانتماء للوطن ضرورة حياة ، فى السودان حيث الانتماء للوطن يمر بمنزلقات الانتماء إلى الأسرة ، إلى القبيلة ، إلى العشيرة ، إلى الطائفة ، إلى العرق ، إلى الإقليم .

فى مصر تجمدت النظرة للسودان عندما يبهر فى أحداث سنة ١٩٢٤ ، والحق أن الحق مع أصحاب مثل هذه النظرة . .

لماذا . . ؟

* * لأن أحداث سنة ١٩٢٤ فى الخرطوم كانت ارتجافة الحياة الأولى بعد ما يشبه الجمود التى عاشته الحركة الوطنية المصرية بعد انكسار عرابى ، وبعد ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر .

لماذا . . ؟

* * لأن أحداث سنة ١٩٢٤ فى الخرطوم ، كانت الرد المتأخر لمذبحة دنشواى سنة ١٩٠٨ والتى شنق وسجن فيها العشرات من الفلاحين المصريين فى هذه القرية المصرية فى قلب الدلتا ، بواسطة قوات الاحتلال البريطانى .

لماذا . . ؟

* * لأن ثورة ١٩٢٤ كانت التجسيد الحقيقى للمعنى الحقيقى للكفاح المشترك بين مصر والسودان ، بين كل مصر وكل السودان ، وبغض النظر عن نتائج الثورة ، فإن من رموزها على عبد اللطيف وعبد الفضيل ألماظ من جنوب السودان ، على ملاسى من شرق السودان ، محمد صالح جبريل من غرب السودان ، عبيد حاج الأمين ، وحسن شريف ، صالح عبد القادر ، وعلى البنا من أواسط وشمال السودان . . ولقد كانت بأهدافها توجهاً كلياً من السودان لمصر .

لماذا . . ؟

* * لأن من مضاعفات ثورة ١٩٢٤ ، مصرع السيرلى ستاك فى القاهرة بواسطة الأخوين عنايت ، ومن نتائجها سحب الجيش المصرى من السودان ، إلا أن إيجابيات ثورة سنة ١٩٢٤

فى السودان ، ثم مضاعفاتها ونتائجها فى مصر بدلا من أن تكون إضافة إلى عمق الروابط بين البلدين ، تحولت من تلاقى الكل بالكل فى البلدين ، إلى تلاقى الكل فى مصر بالجزء فى السودان .

كيف . . ؟

فى مصر :

** كانت السنوات التى تلت سنة ١٩٢٤ بدايات انطلاق التعدد الحزبى ، وهو تعدد له جذوره الطبقية ، كما أن له جذوره التاريخية ، كما أن بعضه كان وليد إدارات القهر فى مصر والمتمثلة فى القصر والإنجليز .

كان هناك الحزب الوطنى أو ما تبقى منه بعد وفاة مصطفى كامل ، ونفى محمد فريد .

كان هناك حزب الوفد ، وما صمد منه بعد انشقاق السعديين فى مرحلة ، وحزب الكتلة فى مرحلة ثانية .

كان هناك حزب الأحرار الدستوريين ، وهو حزب المحافظين وأهل الصفوة وأصحاب النفوذ المالى والعقارى والزراعى ، كانت هناك بدايات التوترات الاجتماعية عبرت عن نفسها بتنظيمات تدرجت من الفاشية إلى الاشتراكية واكتسبت مع ذلك شرعية علنية .

كانت هناك حركة المد الإسلامى ممثلة فى جماعة الإخوان المسلمين .

كانت هناك تنظيمات الشيوعيين المتصارعة والتى تميزت بغير استثناء بوجود العناصر الأجنبية «الأوربية» فى عضويتها بل وفى المستويات العليا من قيادتها ، إضافة إلى فكرها الأممى وعدائها لكل ما هو قومى ، بما فى ذلك أية ارتباطات بين مصر والسودان إلا على أساس وحدة الطبقة العاملة .

غير هؤلاء ، كانت هناك الحركة الوطنية المستقلة والتى كانت تقوم بنشاطاتها من خلال مبادرات فردية أو بواسطة مجموعات عمل صغيرة ، ومن رموز هذه الجماعات المغفور له محمد أنور السادات .

فى السودان . . .

كانت القوى الحديثة فى حالة من القوة ومن الضعف معاً . .

كانت من القوة بحيث كان صوتها العالى مسموعاً سواء أكان صوت الخريجين ، أم صوت العمال ، خاصة فى مراكز تجمعهم فى مدن عطبره وبور سودان والخرطوم .

وكانت من الضعف حيث أن ارتفاع الصوت لم يكن كافياً حتى يستطيع أن يجذب قواعد جماهيرية كانت قد التصقت بتجمعات طائفية ، استغلت فى الجماهير عواطفها الدينية وقادت الجماهير فى طريق مسدود ، ومع ذلك فقد كان التحام الصفوة ممثلة فى القوى الحديثة مع القاعدة الجماهيرية حيوياً ومطلوباً .

وبغض النظر عن أهداف وأغراض ومطامع ومطامح ، فقد نشأت الأحزاب السياسية الكبرى فى السودان ، وهى تكاد تكون تمثيلا لقوى طائفية فاعلة فيها ، حزب الأمة بغير مواربة كان لطائفة الأنصار ، مجموعات الأحزاب الاتحادية قبل أن تتحد وبعد أن انفرطت ، فإنها جميعاً كانت

بشكل أو بآخر ترتكز على طائفة الختمية ، إلى غير ذلك من التجمعات والتنظيمات السياسية المشروعة وغير المشروعة وكان بعضها يحاول أن يشكل قواعده من هؤلاء جميعاً ، باستثناء الحزب الشيوعي السوداني بالطبع .

الإخوان المسلمين في السودان كانوا بالفكر على الأقل امتداداً لحركة الإخوان المسلمين في مصر .

الحزب الشيوعي السوداني كان روافد اتصلت ثم انفصلت عن التنظيمات الشيوعية المصرية .

الاحزاب الاتحادية كانت صلتها بمصر تمر عبر صلاتها بطائفة الختمية .

الأحزاب الاستقلالية خاصة حزب الأمة كان اتصاله بمصر سلبياً لأسباب عديدة ، منها أنه كان بالتناطح بين قاعدته – طائفة الأنصار – وبين طائفة الختمية ، يسير دائماً في الاتجاه المضاد .

هل يمكن أن يكون في ذلك نوع من التوازي بين الحركة السياسية في مصر في هذه الحقبة ، والحركة السياسية في السودان في نفس الفترة .. ؟

مع التجريد والتبسيط والتركيز على التشابه السطحي نستطيع أن نقول نعم .

مع التدقيق والتحليل واستنباط العوامل الموضوعية بالقطع سوف نقول لا .

التشابه السطحي ، يضع حزب الوفد أقرب إلى الأحزاب الاتحادية في السودان ، قبل اتحادها وبعد انفراطها .

حزب الأمة ، أقرب إلى الأحرار الدستوريين ، من حيث أن كلا من التنظيمين يمثل مصالح خاصة لطبقة خاصة ، بالإضافة إلى الطابع المحافظ لدى كلا الحزبين .

التنظيمات العقائدية هنا وهناك ، كانت تلتقى فى مسار التوجيه الأممى سواء كان علمياً كما هو الحال بالنسبة للشيوعيين ، أو دينيا كما هو الحال بالنسبة للاخوان المسلمين ، إلا أن كليهما ، كان على درجة من الخصومة لفكرة الروابط الخاصة بين مصر والسودان .

فى مصر وفى نفس الفترة ، كانت قضية الجلاء لا تنفصل عن قضية الوحدة مع السودان ، شعار زايد الكل على رفعه ، حتى إسماعيل صدقى رئيس حكومات الأقليات والرجل ذو القبضة الحديدية ، كان يردد قولا له ، أو قولا منسوباً لغيره « تقطع يدى ولا تفصل السودان عن مصر » .

حزب الوفد دشن عودته إلى الحكم بعد فوز كاسح فى انتخابات برلمانية فى أوائل الخمسينات بقرارات متلاحقة منها :

** إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ .

** عزل الحاكم العام للسودان .

** إعلان صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملكاً لمصر والسودان .

حزب الأحرار ، والحزب الوطنى ، وتنظيمات الأقليات العقائدية ، لم تعارض ذلك النهج ولم تؤيده ليبقى سؤال . .

هل اتصلت الحركة السياسية فى مصر بتوجهها الشامل للسودان ، بالحركة الوطنية فى السودان بتوجهها الجزئى نحو مصر ؟

نعم ولا . .

الأصل الكل فى مصر بالبعض فى السو دان ، وحتى فى مثل هذا الاتصال ، كان صوت العواطف والشعارات هو الأعلى ، وحدة الدم ، الرحم ، القربى ، النيل .

وهنا لابد من وقفة . .

النيل . . رابطة بين مصر والسودان . . حقيقة جغرافية جزئية ، تناقضها حقيقية جغرافية كلية تتعلق بالسودان فى المقام الأول . فالسودان الذى لايربط النيل كل أجزائه ، كيف يكون الرابط الأوحد بين مصر بكل أجزائها ، ذلك يعنى استبعاد غرب السودان كله ، وشرق السودان معظمه .

ولأن التجاهل للحقيقة الجغرافية ، يقود دائماً إلى تجاهل الحقيقة التاريخية ، فإن الاتصال بين مصر والسودان كان يلاحق النهر ومساراته ، ولأن النهر فى السودان غيره فى مصر حيث الانسياب الموحد للمجرى الموحد لاتعترضه العوائق ، إلا تلك التى صنعها الإنسان المصرى ممثلة فى سد أسوان ، وخزانات نجع حمادى والقناطر الخيرية .

ولأن النيل فى السودان روافد بل وأنهار يصل مجموعها إلى أربعين نهراً ، وحيث مسار النيل الأزرق غير مسار النيل الأبيض رغم لقاء النهرين فى الخرطوم ، وحيث السدود والمستنقعات عقبات فى مجارى الأنهار ، فإن الاتصال السياسى بين مصر والسودان وقف عند الخرطوم ولم يتعداها . توقف عند الخرطوم لايتطلع إلى ما وراءها . وكأن اتحاد النهرين فيها مدخلا لاتحاد القطرين من خلالها .

عند الخرطوم ، تجمعات سياسية تشابهت فى الشكل مع نظائر لها فى القاهرة ، بينما هى بما وراء السطح الهادىء امتداد لرحلة النهر الطويلة من المنابع حيث الروافد والمستنقعات والسدود ، ولأن الجغرافيا هى أم التاريخ فإنها صاغته فى أعالى النهر غيره عند أسافله ، فى أعالى النهر عروق مختلفة ، ثقافات مختلفة ، ألوان مختلفة ، لغات مختلفة ، تقاليد وأعراف وأديان مختلفة كذلك ، مع انحدار النهر وامتداداته واتساع حوضه فى الغرب والشرق والشمال ، صاغت الجغرافيا أيضاً تاريخاً آخر للتكوين البشرى ، مناشطه ، الاقتصادية ، توجهاته الثقافية عاداته المغروسة فى بطون الزمن .

فى الغرب حيث السكان عرب هاجروا من الجزيرة العربية والمغرب العربى فاستوطنوا فى السودان ، فى أعماق الغرب (نوبـــا) ترجع بعض جذورهم للنوبة الشمالية وإن اختلطوا بأهل المنطقة من الأفارقة الخلص ، فى الشرق حيث يسود الجنس الحامى ، خليط من قبائل متداخلة مع أثيوبيا ، وقبائل استوطنت فى الامتداد الهائل لصحراء مصر الشرقية إلى سفوح جبال البحر الأحمر فى السودان .

فى الجنوب ، قبائل نيلية ، تداخلت مع قبائل فى أثيوبيا وكينيا وزائير وأفريقيا الوسطى والكونغو .

حتى الشمال فإنه ليس معروفاً بل أكاد أقول إنه غير مقبول المصارحة بأن التكوين البشرى بموقعه الأقرب إلى مصر ، إنما هو عازل بشرى ثقافى بين مصر والسودان ، رغم أنه ممتد فى مصر والسودان ، أقصد ذلك النوبة المصرية السودانية ، بعاداتها وتقاليدها وثقافاتها ولغتها أيضاً .

ورغم هذا فإن اتصالات مصر الثلاثينيات والأربعينيات وجانب من الخمسينات بالسودان ، كانت اتصالات بالمظهر الشكلى للنشاط السياسى

فى السودان ، لامن حيث جوهره ، وإنما من حيث تشابهه الشكلى مع التنظيمات السياسية هنا وهناك .

هل كانت الصدمة بعد ذلك مفاجأة فى مصر سنة ١٩٥٦ يوم أعلن استقلال السودان . . ؟

نعم كانت كذلك ، إلا بالنسبة للقيادة السياسية الجديدة فى مصر .

بل هى كذلك حتى بعد مرور ذلك التاريخ بسنوات وأكاد أقول حتى الآن . .

لماذا ؟

لأن التاريخ المكتوب فى مصر عن السودان ، مازال مدوناً بأقلام عايشت العاطفة النبيلة وتعاملت مع الجزء فى السودان باعتباره الكل الشامل .

ما وعت ولا عرفت ولا أدركت ، أنها كانت طوال الوقت تحاور باسم الوحدة مع السودان ، رموز الانقسام والتجزئة فى السودان .

حاورت الطائفية وواجهاتها الحزبية ، حاورت العقائدية بطموحاتها الفكرية ، حاورت الانتماء للذات حيث السودان رؤاها ورؤيتها ، حدوده مطامحها ووجوده قصور إدراكها عن إدراك حجمه المتنوع مكاناً وسكاناً .

وبردة الفعل العاطفية أيضاً ، كان التوجه المصرى نحو السودان مختلفاً بعد إعلان استقلال السودان .

كان السودان واحدة من عقبات المفاوضات المصرية فى كل العهود ، كان إعلان ضم السودان للتاج المصرى ذروة التأزم فى العلاقات المصرية البريطانية فى كل العهود .

كانت الوحدة مع السودان والجلاء عن مصر أشبه بالقضية الأسطورة ، حول أيهما أسبق فى الوجود البيضة أم الدجاجة . .

وجاء عبد الناصر :

جاء يحمل ذات الرؤية المصرية التقليدية للسودان أنه كيان شامل كامل التجانس يتجه بالضرورة للوحدة مع مصر .

وكيف لايكون الأمر كذلك . . ؟

لقد خرج نفسه فى مظاهرات الطلاب فى الإسكندرية سنة ١٩٣٦ يهتف للجلاء عن مصر والسودان ، ولوحدة مصر والسودان .

لقد جاء هو نفسه إلى السودان وأقام فيها ضابطاً فى منطقة جبل الأولياء ، وشاهد وعايش الود السودانى الأصيل ، ثم لقد عاش وعايش وفوداً سودانية فيما قبل الثورة تنزل بالأسابيع فى فندق الكونتننتال فى قلب القاهرة ، قرأ تصريحاتها ، وسمع خطاباتها ، وهى تؤكد حتمية الوحدة بين البلدين .

بل لقد كان هو نفسه شاهداً على المعركة الانتخابية قبل الأخيرة والتى سبقت قيام الثورة حين رشح سودانى نفسه فى دائرة عابدين ، شهد التفاف الناس حوله ، تأييد الآلاف له ، ذعر السفارة البريطانية من هذا الإجراء ، تدخل الحكومة المصرية لإقناع المرشح السودانى بالانسحاب من انتخابات تجرى فى مصر ولمصر .

بل إنه هو نفسه رغم مرارات الأحداث التى عايشها مباشرة بعد تفجير الثورة ، يرى حوالك الظلمات نوراً يؤكد له أن الوحدة مع السودان حتمية ، وارتباط مصر بالسودان أبدى ، وإلا لماذا كان غضب البعض فى السودان

لاعتقالات ومحاكمات الإخوان المسلمين فى مصر ، وقبل ذلك لإقصاء محمد نجيب .

كان على قناعة إذن بأن مصر للسودان ، والسودان لمصر فلماذا التوقف الشكلى أمام تأكيد ماهو مؤكد ، ولماذا الإصرار على طلب اعتراف بريطانيا بالوحدة المصرية السودانية ، والأهم لماذا الخوف من الاستفتاء حول تقرير المصير فى السودان . هل هناك شكوك حول الاختيار إذا ما كان الخيار للسودان الاستقلال أم الاتحاد مع مصر . . ؟

هناك ما يمكن أن يقال حول ذلك الجزء القصى من جنوب السودان ، قد يكون لهؤلاء رأى يختلف ، قد يكون لهؤلاء رؤية لاتتطابق مع ماهو مأمول ، بل ماهو مؤكد .

يزور صلاح سالم السودان مع تركيز خاص على جنوب السودان ، عايش الناس هناك ، حاورهم ، شاركهم حياتهم حتى رقصاتهم ، عاد وقد ازداد اليقين يقيناً .

داخل القوات المسلحة السودانية ، كانت النواة الأولى لأول تنظيم للضباط الأحرار ، هدفه هو الإسراع بسودنة القوات المسلحة ، هدف البعض من أعضائه ، هو مسابقة الزمن والاستيلاء على السلطة وإعلان الوحدة مع مصر بغير استفتاء .

التفاعلات السياسية فى السودان هى دائماً نتاج لتكوينه الجغرافى والدمجرافى والثقافى ، للتنوع داخله ، للقوى السياسية غير الفاعلة فيه ، إلا بقدر قدرتها على الاعتماد على تناقضاته وصراعاته الطائفية ، الإقليمية ، العرقية ، التعدد الحزبى والذى هو واجهة لهذه الصراعات والتناقضات جميعاً .

فى يوم رائع ونبيل ، تجتمع كلمة الأمة على مطلب الاستقلال ، يطلبه الجميع بغير استثناء ، ومن داخل الجمعية التأسيسية يتحدد موعد الاستقلال ، يتحدد يوم رفع العلم . يرفع العلم ، تقوم واحدة من أولى الجمهوريات المستقلة فى أفريقيا .

يخرج الإنجليز من السودان قبل أن يخرجوا من مصر ، يعلن استقلال السودان فى أول يناير سنة ١٩٥٦ ، يخرج آخر جندى بريطانى من مصر فى ١٨ يونيو من نفس السنة .

هل كان الذى حدث مفاجأة صادمة لعبد الناصر . . ؟ مفاجأة . . نعم . . صادمة لا . . بدليل أنه أول من وصل إلى مقر البعثة السودانية فى القاهرة ليهنىء بالاستقلال يوم إعلان الاستقلال .

ثم هو وليس غيره ، الذى قرر أن تزداد فرص الطلاب السودانيين فى الالتحاق بالجامعات والمعاهد المصرية ، وهو دون سواه الذى قرر إنشاء فرع لجامعة القاهرة فى الخرطوم . وهو دون سواه ، الذى أعلن أن السودان المستقل سند لمصر المستقلة .

يبقى ما بعد المفاجأة . .

بعضه عابر ، ومنه أفول نجم صلاح سالم ، وإلغاء وزارة شئون السودان فى القاهرة .

وبعضه عميق ، مامس الوجدان المصرى فداراه بالصمت النبيل .

كانت الرؤية المحدودة للسودان ، والتعامل المحدود مع السودان قد صور الأمور على نحو غير ماجرت عليه .

الاستقلال وليس الوحدة :

عمر الحاج موسى الصديق القديم ، والزميل ، وزير الأعلام والأمين المساعد للاتحاد الاشتراكى السودانى ، رحمه الله وغفر له ، كانت له حول ما حدث بين السودان ومصر وقفة تأمل ، كان يسأل دائماً . . كيف فات على مصر الحضارة والعراقة ، أن طرح الأمر بصورته التى طرح بها كموضوع للاستفتاء ، ليس له إلا نتيجة واحدة لابالنسبة للسودان وحده ، وإنما لأى شعب من شعوب الأرض . أن تقول لمثل هذا الشعب، ماذا تختار الاستقلال أم الوحدة ، وكأن الاستقلال والوحدة متناقضان ، وكأنهما متعارضان ، بل وكأن القبول بالوحدة رفض للاستقلال ، من ذا الذى يرفض أن يكون مستقلا فى هذه الحالة ؟ .

عمر الحاج موسى يضيف :

قبول مصر لهذه الصيغة ، نتاج ونتيجة للرؤية الجزئية للسودان ، والتعامل الجزئى مع السودان .

ويقــول . . .

تعاملت مصر مع الجزء وكأنه الكل ، من خلال رؤيتها للجزء كأنه الكل ، فكان ما كان .

● ● ●

ما بعـــد الاســـتقلال :

كان يتحتم على السودان المزيد من الانشغال بالداخل، كانت سنوات الاستعمار الطويلة أشبه ما تكون بالأطار الذى يغطى التناقضات فتبدو فى نطاقه

وكأنها خامدة ، كانت السيطرة الأجنبية تقهر الإرادات المحلية ، كان المستعمر الغريب وكأنه حكم محايد تلجأ كل الأطراف إليه وتحتمى كل الأطراف به وتتجسد ذاتيتها فى ظله .

الإرادات المحلية بمعناها الأشمل كانت تعنى الطائفية . . الإرادات المحلية بمعناها الأعمق كانت تعنى طموحات الانشطار العرقى والثقافى والدينى ، فحين يسود الولاء الجزئى تتعدد الولاءات الجزئية .

هكذا أدى الاستقطاب الطائفى إلى تمايز إقليمى ، ثم تمايز عرقى .

فحين يسود نفوذ طائفة الأنصار فى الغرب وبعض المناطق المحدودة فى الوسط ، وحين يسود نفوذ طائفة الختمية فى الشرق وبعض مناطق الشمال ، فإن المواجهة الطائفية تتحول إلى مواجهة إقليمية بالوعى أو اللاوعى ، بالشعور أو باللاشعور .

وحينما لاتوجد جذور الانتماءات طائفية فى الجنوب ، فإن الجنوب يسقط فى دائرة اللاإنتماء القومى ، لينتمى إلى مايميزه .

ما الذى يميزه . . ؟

خصائصه العرقية والثقافية .

وما الذى يميز غيره . . ؟ ؟

أيضاً وأيضاً خصائصهم العرقية والثقافية .

• • •

هكذا سبقت الانشقاقات السياسية داخل الكيانات الطائفية ممثلة فى أحزابها ومنظماتها وتنظيماتها السياسية بل وحتى فى كيانها الأسرى ، سبقت ذلك انشقاقات من داخلها تتمركز حول خصائص ثقافية وعرقية وإقليمية .

هكذا تبلورت مطامح الانشطار العرقى والثقافى من داخل طائفةالأنصار ، لتبرز منظمة سونى فى غرب السودان ، هكذا تبلورت مطامح الانشطار العرقى والثقافى من داخل طائفة الختمية لتبرز منظمة مؤتمر البجة فى الشرق .

بل وهكذا أعلنت الحركة الانفصالية فى الجنوب عن وجودها الدامى ، فى إطار التشرذم السياسى والانتماء الشامل المفقود .

ليس صدفة أن تكون مقدمات الاستقلال بروز حركة انفصالية فى الجنوب . . وليس صدفة أن يواكب الاستقلال بروز مطامح انفصالية فى الغرب والشرق .

كل ذلك وواجهات الانتماء الطائفى فى صراعها الأبدى حيث القتال مستمر منذ أغسطس سنة ١٩٥٥ ، حيث السودانيون يسقطون بأيدى السودانيين فى جنوب السودان . . حيث التدخلات الدولية فى حرب العبث فى جنوب الوطن اتسعت لتشمل الكل وعلى رأسهم إسرائيل .

كانت قضية الجنوب موكولة بكاملها للقوات المسلحة . . . كان ذلك منطقياً باعتبارها أولا وأخيرا مؤسسة قومية ، إلا أن الاهتمام السياسى فى العاصمة كان مطلوباً طبعاً ، بصورة توازى الاهتمام بمشاكل وقضايا الآخرين خارج نطاق الوطن السودانى .

فى مثل هذا الواقع ، كان المطلوب من السودان ككيان مطلوب توحيده ، أن تكون هموم وحدته سابقة على أى هموم وحدوية أخرى ، حتى ولو كانت مصر طرفها الأصيل .

كان المطلوب من السودان تأكيد وحدته الوطنية قبل أن يعاود الحياة فى ظل الحلم القديم ، حلم الوحدة مع مصر فيما قبل الاستقلال .

قبل الاستقلال كان السودان فرضية ككيان موحد لديه ما يبرر طموحه للوحدة مع مصر .

بعد الاستقلال كان السودان إرادات موزعة يستوجب السعى لتأكيد وحدتها ، قبل مجرد التفكير فى الاتحاد مع غيره ولو كان مصر الشقيقة والقريبة منه .

كشف الواقع السياسى فى سودان مابعد الاستقلال ، أن مصر التى اتجهت بشمولها للسودان ، إنما حاورت الجزء وتحاور معها الجزء من السودان

كانت تلك حقيقة صادمة ، حتى لهؤلاء الذين رفعوا راية الوحدة فى السودان ، عاشوا بها ، وماتوا وإيمانهم بها لم يتزعزع .

مصر تصورت ، أو تصور البعض فيها أن ما جرى كان نتاج خديعة سياسية لعبت فيها المناورات بل المؤامرات دوراً فى السودان ، ولم يكن ذلك صحيحاً ، ما جرى كان صداماً بين نوايا طيبة وواقع جغرافى وثقافى وبشرى لم يدخل فى حساب الطرفين ، وبالطبع لم يكن فى حساب نواياهم .

بعد الاستقلال . .

فى السودان . .

اختلاف ، فائتلاف ، فاختلاف . .

تنظيمات العقائد ، تتصارع بالفكر وللفكر ، فى غير ساحة وبغير ساحة .

فى مثل هذا الواقع تسقط حتى الدهشة من مسارات الاهتمام السياسى فى العاصمة الخرطوم .

ما كان يشد الاهتمام أيامها . .

** أحداث الساقية الحمراء فى المغرب . .

** المذبحة فى بنزرت . .

** حرب التحرير فى الجزائر . .

** الحرب الأهلية الأولى فى لبنان سنة ١٩٥٨ . .

الوحدة المصرية السورية ، الشروق والغروب مابين فبراير ١٩٥٨ وسبتمبر ١٩٦١ .

** الحرب فى الهند الصينية ، فيتنام فيما بعد . .

** حركة الكفاح المسلح فى كينيا بقيادة جومو كينياتا . .

** الصراع الدولى فى الكونغو . .

وغير ذلك الكثير والكثير :

المهم أنه فى إطار هذا الاهتمام ، سقط كل اهتمام بما كان يجرى فى جنوب الوطن .

ولقد كان ذلك الكثير يغرى بأكثر من سؤال . . . هل انتقل السودان فجأة من واقع القبيلة إلى شكل الدولة مباشرة بغير تمهيد ، وبهذا سقط الانتماء الكلى للكيان الكلى الذى يفترض أن الدولة تبسط نفوذها عليه ؟

هل تحول السودان بالاستقلال بمعناه الشامل باعتباره استقلالا للسودان كله ، إلى طموحات الاستقلال الجزئى والانشطار الجزئى والهوية الجزئية ، عرقياً وثقافياً وإقليمياً وطائفياً ، وأكاد أقول حزبياً أيضاً ؟

بل حزبياً أيضاً ، فنى الأسابيع التى سبقت قيام ثورة ٢٥ مايو كان التواجه الطائفى الحزبى العرقى قد تسلح بالفعل ، تبلورت ميليشياته ، وتحددت قواته والتى كانت تمارس التدريب تهيؤا ليوم الصدام القريب .

مليشيات نعم . . بعضها طائفى ، وقد تزود بالسلاح بتمويل من مصادره الخاصة ، وبعضها طائفى أيضاً وقد تزود بالسلاح مباشرة من حركة التحرير الإريترية ، وبعضها عقائدى فى اليمين واليسار ،وكلاهما وجد السلاح طريقه إليه ، إضافة إلى تجمعات التشرذم العرقى والتى توفر لها السلاح من مختلف المصادر .

كل ذلك والحرب العبثية فى الجنوب استمرار للاستنزاف البشرى والاقتصادى للسودان كله .

كل ذلك وما حولنا كان مصدراً للسلاح لكل من يطلبه فضلا عمن يدفع فيه أى ثمن .

** كانت الحرب الأهلية فى الكونغو مصدراً .

** كانت الاضطرابات فى تشاد مصدراً .

** كانت الحرب الأريترية مصدراً .

** كان التخويف من الخطر الشيوعى فى السودان مصدراً .

** كان التلويح بالتواجد الشيوعى فى السودان مصدراً .

فإذا أضفنا إلى حرب السنوات السبع عشرة فى الجنوب حروبا صغيرة موسمية على هامشها بين بعض القبائل ، فى غرب البلاد وفى خطوط التماس بين الغرب والجنوب ، فإن ذلك قد يعطى صورة لما كانت عليه إرهاصات الوضع فى السودان عقب الاستقلال مباشرة ، وما وصل إليه الحال فى السودان ولسنوات طويلة .

على الجانب السياسى . .

ظل الخلاف على الدستور مظلة حجبت الدستور عن دولة أعلنت استقلالها منذ أحد عشر عاماً .

كان الخلاف الحزبى مدخلا للائتلاف الحزبى ، مقدمة للاختلاف من جديد .

ظهرت عشرات التسميات لكيانات سياسية ، بعضها فروع لأصول انشقت عليها ، وبعضها منابعها من الخارج وتسمياتها من الخارج مثال ذلك حزب التحرير الإسلامى .

شاع الحديث عن الناصرية كاتجاه سياسى من الممكن أن يكون فاعلا فى السودان .

شاع الحديث عن البعثية نسبة إلى حزب البعث العربى الاشتراكى ، بأجنحته المتفرقة بل والمتصارعة أبدا فى سوريا والعراق .

شاع الحديث عن القوميين العرب ، والوحدويين العرب ، والاشتراكيين الديمقراطيين ، وجبهة الجنوب ، ومنظمة سانو ، ومنظمة سونى ، ومؤتمر

البجة ومؤتمر الدناقلة ، إضافة إلى عشرات التجمعات القبلية والإقليمية والتى اتخذت من دورها الاجتماعى المعلن مدخلا إلى وجودها السياسى المستقل . .

كل ذلك والتداخل الدولى فى قضية الجنوب ينافس الكل على المشاركة فيه إقليمياً ودولياً .

فى هذا المناخ القاسى ، ماذا فعل الزمن بحلم الوحدة المصرية السودانية القديم . . ؟

فعل الزمن مالا يخطر على بال . .

بعد الاستقلال مباشرة ، تحولت المزايدات للوحدة مع مصر ، إلى تحفظات تجاه مصر . . لماذا ؟

لأن رموز السلطة الجديدة فى الدولة الجديدة كانت محسوبة بتاريخها على الوحدة الاندماجية مع مصر ، ولقد كانت نفسها هى التى بادرت بإعلان الاستقلال ، دون التقيد حتى بشرط الاتفاقية فيما يتعلق بتقرير المصير .

ولأنها كانت كذلك ، ثم أصبحت بعد ذلك غير ذلك ، فإنها بالنسبة لرموز الحركة الاستقلالية ظلت متهمة بماضيها حيث لم يغفر لها حاضرها ، وظل هؤلاء بالنسبة لأنفسهم محسوبين على إنجاز الاستقلال باعتباره كان رؤياهم وجهدهم طوال سنوات طويلة ، فإذا جاء حتى عن طريق غيرهم ، فهو لهم ، ولذلك فلقد كان مطلوباً من رموز الدولة وقيادتها بعد الاستقلال أن تؤكد اتجاهها الجديد بردود الفعل العكسية . .

** أن تكون مع مصر أكثر تحفظاً . .

** أن تكون بالنسبة لمصر أقل وداً . .

هكذا تجمع فى الساحة السودانية العديد من العوامل العكسية والمعاكسة لتيار الوحدة التاريخى مع مصر . .

** منها ماسبق ذكره ، عن الفعل وردود الفعل العكسية .

** منها ما تأصلت جـــذوره بالحركة الاستقلالية بموافقتها التاريخية ، والتى رأت فى تحقيق الاستقلال تأكيداً وتعزيزاً لوجهة نظرها القديمة ، والتى كانت يوماً مجرد الاستقلال عن مصر ، ثم أصبحت دوماً رفع راية العداء أو على الأقل التحفظ بالنسبة لمصر .

** منها ماهو وافد ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، فى اليمين كانت حركة الإخوان المسلمين فى السودان ، تعاطفاً مع آلاف من الإخوان المسلمين فى مصر توزعوا بين مختلف السجون والمعتقلات منذ سنة ١٩٥٤ ، فصاغ ذلك موقفهم عداء للسلطة الحاكمة فى مصر ، إضافة إلى موقفهم الإسلامى الأممى الرافض للروابط التى لايكون الدين أساسها وسندها وركيزتها .

فى اليسار . .

كان الشيوعيون فى السودان مع ناصر منذ عقد صفقة السلاح الأولى مع الاتحاد السوفيتى ، ثم كانوا مع ناصر يوم أمم قناة السويس ، ثم كانوا مع ناصر يوم واجه العدوان الثلاثى ، ثم كانوا مع ناصر يوم تولت أجهزة الدعاية فى بلده الترويج للدور الحاسم للانذار السوفيتى لفرنسا وبريطانيا وإسرائيل فى إنهاء عدوان سنة ١٩٥٦ ، وإهمالها للدور الأمريكى فى إنهاء هذا العدوان . .كانوا مع ناصر حين أعلن الوحدة مع سوريا ، ثم كانوا حيارى بالنسبة لناصر يوم

اعترض الحزب الشيوعى السورى عليها ، ثم كانوا ضدها وضده وضد مصر معه يوم توالت الأحداث بعد ذلك فى مصر والمنطقة :

** اعتقال الشيوعيين المصريين بالجملة فى ليلة ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

** تصاعد الصراع بين ناصر وعبد الكريم قاسم ، حول هوية الحكم وتوجهاته الماركسية فى العراق .

ثم انهم دائماً وأبدا مع وحدة الطبقة وليس وحدة الكيانات .

● ● ●

مصر من جانبها وعقب إعلان الاستقلال مباشرة فى السودان ، كانت وكأنها على موعد مع البديل .

محمد حسنين هيكل ، الكاتب المصرى ، واللسان الناطق باسم عبد الناصر طرح نظرياته حول أمن مصر ومجالها الحيوى ، والذى لن يكون شمال مصر حيث البحر ، ولا جنوب مصر حيث السودان ، ولا غرب مصر حيث الصحراء الليبية ، وإنما هو شرق مصر حيث المشرق العربى .

استقل السودان ، فلنتجه شرقاً ، هكذا قال هيكل أو نقلوا عنه .

واتجهت مصر شرقاً . .

وحين دعت للقومية العربية ، تداعت كل المقولات القديمة عن روابط النيل والقربى والتاريخ والمصلحة التى تربط مصر والسودان .

أصبح السودان كأى قطر عربى آخر ، مداره ومجاله العالم العربى ، مكانه حين يأتى زمانه أن يكون واحداً من أقطار الوطن العربى الواحد الكبير .

ثم تحولت المقولة إلى نبوءة ، وتحولت النبوءة بما يشبه المعجزة إلى حقيقة ، يوم أعلن عن قيام وحدة بين مصر وسوريا .

شرفة مبنى مجلس الوزراء فى القاهرة تشهد فى اليوم الأول من فبراير سنة ١٩٥٨ إعلان الوحدة المصرية السورية .

أعلنها يومها ناصر ، ثم أعلنها بعده شكرى القوتلى رئيس الدولة السورية يومها ، والمواطن العربى الأول بعد ذلك .

فى هذا اليوم بالذات ، فى تلك اللحظة نفسها تحركت المشاعر فى القاهرة بسؤال . . وتحركت المشاعر فى الخرطوم بحركة . .

السؤال فى القاهرة ، جاء وكأنه صحوة متأخرة من غيبوبة الصدمة بعد إعلان استقلال السودان فى أول يناير سنة ١٩٥٦ .

سؤال يقول :

ألم يكن السودان أولى . . ؟

فى الخرطوم :

تبلورت المشاعر فيما لا يمكن تحليله سياسياً وإنما نفسياً ، كانت الفرحة بالاستقلال فى السودان مازالت زاهية ، كان التحفظ بالنسبة لمصر فى السودان مازال فعالا ، ومع ذلك وبإعلان الوحدة المصرية السورية انطلق فى الخرطوم

نفس السؤال الذى طرح فى القاهرة ، متطابقاً فى معناه مختلفاً فى أسلوب التعبير عنه .

ألم يكن السودان أولى . . ؟

السؤال فى القاهرة رغم عمقه ، طغت عليه مشاعر الاحتفال بالوحدة ، ورسم الألوان الجديدة للأعلام الجديدة ، واختيار الاسم الجديد « لدولة كبرى قامت فى هذا الشرق تصون ولا تبدد ، تحمى ولا تهدد ، لا تتحزب ولا تتعصب ولا تنحاز » .

أغنيات تترنم بالوحدة ، قصائد تشيد بها ، تصريحات ومقالات ، ودوى كبير على امتداد العالم كله .

فى الخرطوم . .

لم يحرك الضجيج العالى فى القاهرة وفى دمشق سوى مرارة السؤال .

ألم يكن السودان أولى . . ؟

ولسوف يبقى ما حدث بعد ذلك ، بل ما يحدث دائماً ، هو التفسير الوحيد المتاح لمثل هذا السؤال ، حين يثار فى السودان أو مصر .

ماحدث لا يمكن ربطه إلا بالعامل النفسى لعمق جذوره ، والتى لاتكون مظاهره وإن خالفت جوهره إلا تعبيراً عنه ، كما يعبر الغضب عن الاهتمام ، بل وكما تكون المبالغة فى إظهار الكراهية دليلا على حب مكبوت أو مقموع .

ما حـــدث . .

إنه وفى الحيز الزمنى المحدود بين إعلان الوحدة كتوجه من جانب مصر ولسوريا ، إلى إعلان إجراءات التقنين للوحدة بين مصر وسوريا ، بالاستفتاء الشعبى ، فى البلدين تمهيداً لقيام الدولة الموحدة ، فى هذا الوقت بالذات فجرت الحكومة القائمة على الأمور فى السودان ، قضية نزاع على الحدود بين مصر والسودان فى منطقة حلايب .

حلايب إحدى نقاط التماس ، بل إحدى نقاط التداخل بين مصر والسودان قرب ساحل البحر الأحمر .

خلافات لها من النظائر عشرات بين السودان ومصر ، بين السودان وليبيا ، بين السودان والكونغو ، بين السودان وأثيوبيا ، بين السودان وأفريقيا الوسطى ، بين السودان وتشاد ، فلماذا مع مصر وحدها ، ولماذا فى هذا التوقيت بالذات . . ؟

أيام ويجرى الاستفتاء على اندماج دولتين فى دولة واحدة ، فى وقت تكون فيه إحدى الدولتين متهمة بالتغول على أراضى الغير والتوسع عبرها .

هل لهذا الأمر دلالة . . ؟ ربما . .

وإذا وصل الأمر إلى التهديد برفع الأمر للتحكيم الدولى والمنظمات الدولية فإن القضية تصبح قضية تشهير على مستوى العالم فى وقت يترقب فيه العالم خطوات توحيد طوعى ، فإذا به يواجه باتهامات تتصل بالاعتداء على السيادة . . ثم هل وقف الأمر عند ذلك . . ؟

أبداً . . فمع ضجيج الفرح الكبير بالوحدة بين سوريا ومصر ، تخرج فى الخرطوم مظاهرات تتهم مصر بمطامع التوسع .

هل هناك تفسير للأمر غير ما ذكرنا . . ؟

محاولة غير عادية لطرح سؤال غير مطروح بالكلمات . . .

ألم يكن السودان أولى . . ؟

ولأن السودان أولى . .

• • •

فقد تحولت العلاقة مع مصر من ود موصول إلى جفوة ، بلغ من شدة الإحساس بها أن إزالتها كانت من أولى شعارات وبيانات الحركة العسكرية التى قام بها الفريق عبود واستولى بها على السلطة فى نوفمبر سنة ١٩٥٨ .

ثم كان الدليل على إزالتها ، ما يناقض أهدافها على المستوى الشعبى جزئياً على الأقل ، بل على الأخص فى أقرب مناطق السودان تداخلا مع مصر فى وادى حلفا .

كانت الاتفاقية المصرية السودانية على التعويضات عن الأراضى التى سيغمرها النيل فى الأراضى السودانية بعد قيام السد العالى .

السلطة العسكرية الحاكمة فى السودان أيامها ، رأت فى الاتفاق دليلا على زوال الجفوة « المفتعلة » بين السودان ومصر .

أهل المنطقة المتضررة فى أقصى شمال السودان وجدوا فى الاتفاق تأكيداً للجفوة جغرافياً وبشرياً ، فالسد العالى وبحيرته الممتدة سيمثل مانعاً صناعياً للتداخل الجغرافى والبشرى بين البلدين ، إضافة إلى ضياع مصالحهم الخاصة بالموطن والممتلكات .

• • •

مصر فى نشوة الوحدة مع سوريا ، تناست السودان ، انشغلت بالوحدة ، ثم انشغلت بإمكانية امتدادها مع اليمن الشمالى أولا ، ثم مع العراق بعد ثورتها الأولى فى يوليو سنة ١٩٥٨ ، ثم الحرب الأهلية اللبنانية الأولى ، ثم بعد ذلك مباشرة انشغلت مصر بمحاولات الحفاظ على ما تحقق . .

** تأمين الثـــورة العراقية فور اندلاعها .

** التـــأمين ضد الثورة العراقية بعد تحولها من القومية إلى الأممية ، من الهوية العربية إلى الأيدولوجية الماركسية .

** حماية الوحدة السورية المصرية من مخاطر تهددها فى دمشق ، ومخاطر تهددها حول دمشق ، ثم مخاطر تهددها من الغرب الغاضب على كيان قادر على تهديد إسرائيل ، ومن الشرق الساخط على كيان يحارب الماركسية ويحاصر دولتها الأولى فى المنطقة والمتمثلة فى العراق .

ولأن الضغوط كانت متصاعدة ، فلقد توقفت مسيرة الوحدة فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ .

● ● ●

بعدها بعـــام . .

اندلعت حرب الاستنزاف المصرى فى اليمن .

بعدها بعدة أعوام . .

فى الســـودان . .

قامت حركة شعبية فى السودان ساندتها القوات المسلحة السودانية أطاحت بالحكم العسكرى فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ .

ردة الفعل المصرية ، تمثلت فى مقال واحد ، كتبه محمد حسنين هيكل تحت عنوان « ثم ماذا بعد فى السودان » .

ولهيكل أسلوب فى الكتابة . يتميز بالسلاسة إلا أنه أيضاً لايخلو من التعالى .

مقاله المذكور كان فيه من المعلومات مايشبع ، إلا أنه كان فيه من توجيه للمعلومات ما يصطدم بتيار شعبى أحس بأنه أنجز الكثير ، فإذا به يجد من يقول له إنه لم ينجز شيئاً ، ولن يحقق شيئاً على الإطلاق .

مقال هيكل اجتهادات كاتب مهما قيل عنه وفيه اقتراباً من السلطة فى مصر أو تعبيراً عنها ، فإنه لم يضف جديداً لعشرات المقالات والتحليلات التى تناولت ثورة أكتوبر فى السودان على امتداد العالم ، بعضها معها ، وبضعها ضدها ، وبعضها تماماً كمقال هيكل لايبشر بأمل .

ومع ذلك فلقد فجر مقال هيكل وحده ثورة من الغضب فى السودان ، ثورة بلغت مالم يسبقها أبدا ، ولم يماثلها مطلقاً حتى أيام حلايب المشهورة .

المظاهرات تتجه للسفارة المصرية ، تحاصر السفارة المصرية ، يتصادم المتظاهرون مع رجال قوات الأمن السودانية ليسقط قتيل وعدد من الجرحى .

مرة أخرى لامجال إلا للتحليل النفسى لهذه الظاهرة ، فأنت لاتعاتب من لايهمك إذا تناولك بما لاترضى ، إلا أنك تغضب ممن يهمك إذا لم يشاركك الفرح بما أنجزت ، بل وأن يستثير فى النفس اليأس مما أكملت إنجازه .

• • •

مصر وليس هيكل . .

الاتجاه وليس الكلمات . .

التباعد بالمشاعر ، وليس الغمز واللمز المباشر والصريح . . سنوات ويأتى يوم النكسة فى الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ . . اليوم الأول وشطر من اليوم الثانى ، كان السودان يضج بنشوة النصر المعلن ! ! .

فى جوبا ، كنت واحداً من عشرات الضباط السودانيين الذين تقدموا بطلب إلى القيادة العامة للمشاركة فى القتال على الجبهة المصرية ، ثم كنت إيماناً ولا أقول حماساً قد وضعت البديل لرفض طلبى ، هو إحالتى للتقاعد حتى أشارك جيش مصر قتاله النبيل .

اليوم الثانى بعضه ، واليوم الثالث ومنذ بدايته تكشفت أبعاد الهزيمة . .

اليوم الرابع يعلن عبد الناصر التنحى . .

وكأنها ينابيع الغضب تفجرت فى السودان كله ، فى الخرطوم هتافات الرفض المدوية لتنحى عبد الناصر ، والتى كانت من القوة كأنها تحاول أن تصل بصداها حيث يقيم فى منزله بمنشية البكرى بالقاهرة .

يخفت صوت القتال على الجبهة المصرية الإسرائيلية ، يعود عبد الناصر عن قراره بضغط من الملايين من شعبه وشعوب العالم العربى وطبعاً شعب السودان .

تنحسر موجة العاطفة لتتسرب مشاعر الحزن بطيئة عميقة فى كل وجدان ، تطرح الأسئلة نفسها بألف صيغة . .

ماذا جرى ؟ لماذا جرى ؟ وكيف يمكن استعادة ما ضاع ؟ ولم يكن استعادة ما ضاع أرضاً يمكن تحريرها بعد عام أو بعد مائة عام .

ما ضاع كان هيبة لقوة ، ومكانة لزعامة ، ومكاناً لقيادة ملأها عبد الناصر على مدى السنوات من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٧ — ، بانتصارات وإن كان بعضها كالنصر ، إلا أنه لم تكن فيها هزيمة مؤكدة .

مشاعر الحزن فسرها البعض هنا فى السودان باعتبارها فرصة لاتعوض .

لم يعد لمصر ولا لعبد الناصر ذات البريق القديم ، بعد الهزيمة لم تعد مصر نموذجاً يغرى بالتقارب ، فلتكن الهجمة إذن على النسر الجريح ، على الرابطة ، على العاطفة ، على الوجدان ، الذى لم يتحدد ولم يتجسد أبداً بغير الكلمات .

الوحدة ، النيل ، الكفاح المشترك ، صلات الرحم والقربى ، عواطف سادت ساندتها الكلمات . . نموذج خمد بريقه لتقضى عليه الكلمات أيضاً .

مزيد من التوضيح مطلوب ، إيغال فى الجرح الدامى ، تشف فى الكيان الذى قام إلا أنه لم يستقم بعد من تأثير الضربة .

مصر ، لا عبد الناصر ، كانت هى الهدف . .

● ● ●

فى الجمعية التأسيسية هنا فى الخرطوم ، ترتفع كلمات الشماتة من البعض وكأنهم يستوفون أحقاد السنين .

يطالب البعض بعون رمزى لمصر ، يتمثل فى أجر يوم واحد من مرتب أعضاء الجمعية التأسيسية . . يرفض بعضهم بل يرفض أحدهم بالصوت العالى ، وهو يظن أنه وفى هذه الحالة بالذات يعبر عن رأى الملايين .

الملايين كان لها رأى آخر . .

رأى ادخرته لتسمعه للدنيـــا . .

ليس مجد مصر فى مصر وبمصر وحدها ، وإنما مجد مصر فى السودان وبالسودان معها .

تلك دلالة ما أسماه عبد الناصر بعودة الثقة من استقبال شعب السودان له يوم حضر فى الخرطوم أول مؤتمر للقمة العربية بعد النكسة .

دليل يضاف إلى دلالات الانتماء .

أن التوجه الكلى للجزئى لا يفرز سوى الخسارة ، وأن التوجه الكلى للكلى عائده الفوز المبين .

السودان لمصر إذا اتجهت مصر إليه كله ، السودان ليس لها وليس بها وليس معها ، إذا تعاملت مع الجزء فيه ، وكأنه الكل داخله .

كان نداء مصر الشامل للسودان الشامل بحجم ماعانت ، وكانت استجابة السودان الشاملة لمصر الشاملة بقدر ما يستطيع ، ولقد كان مايستطيع أن يقدمه هو كل كيانه .

ما سبق كان تعامل الكل فى مصر مع الجزء فى السودان ، فكانت الجفوة .

مالحق كان تعامل الكل فى مصر مع الكل فى السودان ، فكان التلاقى .

● ● ●

أحداث لحقت أيام عبد الناصر ، وبعدها أيام السادات ، أكدت أن السودان بكليته هو لمصر بكليتها ، وأن السودان بجزئيته لن يكون لها ، بل وربما يكون عليها .

ذلك منطق يحكم حتى الحياة نفسها . .

فلا يستجيب الجزء إلا إذا استجاب الكل . . إلا إذا كان المطلوب مبتوراً يفتقد الحيوية بل ويفتقد الحياة .

عبد الناصر قبل رحيله أدرك هذه الحقيقة وتعامل معها ، السادات فى أوائل أيام حكمه ، عاد للصيغة القديمة وقد عرف مرارتها .

عبد الناصر عرفها ، فوافق السودان على رأيه فى الوحدة الثلاثية بين السودان ومصر وليبيا ، الأولوية بالنسبة لنا كانت وحدتنا الوطنية والتى نتمكن بها أن نتجه بالسودان كله ليضيف للوحدة لا أن ينال منها .

رؤيتنا كانت ، أننا لانستطيع بالجزء أن ندعى التوجه بالكل للحاق بمسيرة الوحدة المصرية الليبية ، بذلك سنكون كمن يصافح بيد مشلولة ، أو يعانق بسواعد مبتورة .

عبد الناصر أدرك وقدر . .

السادات فى أوائل عهده كان مازال مع الحلم القديم تعززه روابط بالدم تربطه بالسودان من ناحية أمه .

أولاد الخـــال فى السودان ما الذى يعيق حركتهم للتوحد الفورى مع مصر وليبيـــا .

أبناء العمة كانت مازالت لهم مشاكلهم ، مشاكل الوحدة الوطنية فيما بينهم .

كانت الطائفية مازالت رغم الضربة بالثورة حية وفعالة ، كان الجنوب رغم بيان ٩ يونيو بعيداً عن الاستقرار ، كانت العقائدية بوجهها العلمانى ووجهها الدينى فى سباق للاحتواء ، بل فى سباق للانقضاض على الثورة .

ثم الأهم من ذلك كله . .

كان على السودان أن يخوض معركة البناء ، قبل أن يتجه إلى منابر التوحيد السياسى ، يعلن وحدة يصفق البعض لها حين تعلن ، ثم يصفقون هم أنفسهم يوم إعلان فشلها .

السادات رغم روابط الدم بالسودان لم ير فى السودان إلا مسار رحيله ، من الخرطوم إلى وادى حلفا ، ثم إلى أسوان ومصر ، وكأن ذلك هو كل السودان .

السادات كان يعى درس الستينات يوم قامت الوحدة بين مصر وسوريا ، فسمع بل وربما شارك فى نفس السؤال الذى يقول :

ألم يكن السودان أولى . . ؟

ولذلك فلقد كان إصراره أن تسبق الوحدة بين مصر وليبيا الوحدة بين السودان ومصر ، أو على الأقل تتواكب حركة الوحدة لتضم الأقطار الثلاثة فى وقت واحد .

مشروع توحيد الثلاثة انضم لهم رابع هو سوريا . . . . قلت للثلاثة فى اجتماع القاهرة ، عندما نجهز سوف نلحق بكم وليس قبل ذلك أبداً .

اتفقنا على أن تتسق الخطى ، لايسرعوا فيسبقوا السودان ، ولا يتمهل السودان بما يجهض الأمل .

البديل طرحته باسم السودان وهو التكامل . . إلا أنه أيامها كان مرفوضاً بالمزايدة والعاطفة والحماس .

لم يتمهل السودان فيما وعد بمحاولة للحاق بهم ، وإنما تعجلوا هم فأعلنوا الوحدة الثلاثية فى بنغازى .

فى مصر ، عاد السؤال من جديد بعد إعلان الوحدة المصرية الليبية السورية ..

ألم يكن السودان أولى . . ؟

هذه المرة لم يكن السؤال مجرد سؤال تعززه المشاعر ، كان حركة من الرفض ربما كانت واحدة من عوامل للرفض عديدة ، وربما كانت مجرد واجهة لها ، إلا أن تأثيرها الفاعل كان قد عكس جديتها .

انقسمت السلطة فى مصر حول قضية الوحدة الثلاثية ، رفضتها اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى بما يشبه الإجماع .

تأزمت الأزمة واتضح أن لها أبعاداً كبيرة وخطيرة وانتهت إلى ما انتهت إليه الأمور فى مصر فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .

• • •

المهـــم . .

أن السؤال فرض نفسه . .

ألم يكن السودان أولى . . ؟

أحس السادات بحسه ووعيه إيقاع السؤال وخطورة الإجابة فتمهل فى قضية الوحدة الثلاثية .

تقبل حافظ الأسد المعاذير ، ربما لأنها جاءت قبل أن يختلقها ، فما كان يريد وحدة ثلاثية ولا حتى ثنائية بل ما كان ليستطيع حتى لو أرادها .

كان البعث الحاكم فى سوريا يناور بالشعار فى إطار حساباته ، إلا أنه لم يكن جاداً فى تطبيق الشعار خدمة لحساباته أيضاً .

كان يعرف أن ثمن وحدة السبعينات سيكون ذات ثمنها فى الخمسينات .

أن يذوب كيانه المستقل فى تنظيم أشمل هو الاتحاد الاشتراكى العربى للمرة الثانية .

وكان ذلك يعنى وللمرة الثانية أيضاً ، أن يتنازل عن تنظيمه ، وعن عقائديته ، وعن عضويته ، وعن طموحه لقيادة الحركة العربية كلها من المحيط إلى الخليج .

• • •

قبل حافظ الأسد المعاذير إذن . .

لم يقبلها أبداً معمر القذافى . .

لميقبلها وإن لم يتجه فى البداية بالهجوم على مصدرها مصر ومحمد أنور السادات .

اتجه بالهجوم إلى السودان ، وجعفر محمد نميرى .

تخاذل السودان هو السبب . .

رابطة مصر بالسودان هى الأصل . .

فليتجه بالمال والجهد والعمل نحو السودان .

ما الذى فى السودان يمكن أن يشكل عقبة .

النظام والجنـــوب . .

فيما يتعلق بالنظام فليتحالف مع خصومه

من هم خصومه . . ؟

هم أنفسهم خصوم أى رابطة وكل رابطة بين مصر والسودان ، فضلا عن السودان وليبيـــا .

ومع ذلك فهم إن قبلوا سيكونون له ، وإن رفضوا فليس لهم بعد مدة تطول أو تقصر سواه .

كانت الحركة الشيوعية فى السودان قد انحسرت بل اندثرت بعد مؤامرة يوليو سنة ١٩٧١ فى السودان .

كانت التحالفات بين المعارضة السودانية ممثلة فى الاتجاهات المحافظة الدينية والطائفية وبعض الأنظمة العربية قد سقطت بسقوط مبرر وجودها ، وهو التحالف ضد الخطر الشيوعى الموهوم فى السودان .

لم يعد لهؤلاء إذن إلا معمر القذافى ، طال الزمن أو قصر .

كان تقديره صائباً ، كان اختياره سليما ، تصافحت أيديهم ، وبدأ النشاط المحموم . . نشاط شهد بداياته عام ١٩٧٣ ، وتعثرت محاولاته فى سبتمبر سنة ١٩٧٥ ، وبلغ ذروته فى الغزو الليبي للسودان فى الثانى من يوليو سنة ١٩٧٦ .

• • •

فيما يتعلق بالجنوب . .

وقد تمثل فيما قالوه نيابة عن القذافى أو نقلا عنه ، أو قناعة مشتركة فيما بينهما . .

الجنوب لا يمثل عقبة . . أى عقبة . .

لا فى الإطاحة بالنظام ، ولا فى تحقيق الوحدة الإندماجية مع ليبيا .

فلينفصل الجنوب بل لنسعى لفصله ، ثم أننا نستطيع بعد ذلك استعادته بحق الفتح ، حيث الخيار واحد من الخيارات الثلاثة المعروفة .

• • •

ولسوف أظل عمرى حائراً لا أستطيع الإجابة على سؤال يراودنى ، حول أهداف احتلال بعض الفلسطينيين لمبنى السفارة السعودية فى الخرطوم فى مارس

١٩٧٣ ، وهو الحادث الذى قتل خلاله بعض الدبلوماسيين الأمريكيين والأجانب .

سؤال أطرحه لتوقيت الحادث وملابساته . . توقيته كان الثالث من مارس سنة ١٩٧٣ ، يوم الاحتفال بعيد الوحدة الأول وانتهاء الصراع الدامى فى جنوب السودان .

ثم أطرحه للملابساته ، فلقد سافر من خطط للحادث وأعد له قبل وقوعه بساعات ، متجهاً من الخرطوم إلى طرابلس .

توقيته وملابساته ماذكرت ، يوحيان لى دائماً بأن الأمر كان مدبراً لإفساد الاحتفال بالوحدة والسلام فى الجنوب ، أو ثأراً من تحقيق الوحدة والسلام فى الجنوب ، تلك التى أفسدت مخططات (الثائر العقيد) ! ! .

مابين أحداث سبتمبر ٧٣ والتآمر الليبى فى بدايته،وأحداث يوليو١٩٧٦ والتآمر الليبى فى ذروته ، كانت هناك مناورات اعترف لمعمر القذافى بالذكاء فى تدبيرها .

** منها ، ما سعى به للوقيعة بين السودان ومصر ، بين السادات وبينى ، وقد نجح فى ذلك بعض الوقت .

** منها التقارب المتبادل مع مصر حينما تسوء علاقاته مع السودان ، والتقارب مع السودان حينما تفتر علاقاته بمصر ، وأعنى هنا العلاقات الثنائية بين السادات وبينى .

** منها محاولات استقطاب لقيادات من جنوب السودان يغريها بالعمل والسعى لفصل الجنوب عن الشمال ، مع وعد بمدها بالمال والسلاح وطبعاً بالسند السياسى .

ثم إنه حاول وكاد ينجح فى الإطاحة بالنظام فى السودان بأغرب وسيلة تخطر على بال .

• • •

اليوم يوم جمعة أوشك أن ينتهى ماهى إلا دقائق وينطلق آذان المغرب من المسجد القريب من بيت أسرتى فى منطقة ودنوباوى بأم درمان .

اعتدت أن أقضى أيام العطلات هناك ، البيت مثل غيره من مئات البيوت فى الحى ، لا يميزه سوى كشك صغير يجلس فيه جندى بوليس من باب الحراسة الشكلية .

البيت مفتوح طوال ساعات الليل والنهار بلا مراسم ولا بروتوكول بل وحتى بلا موعد سابق .

واحد من البيوت التى يدخلها الأهل والأقارب والجيران ، يدخل من يخبرنى أن بالباب من يطلب مقابلتى لأمر قال أنه عاجل وخطير ، قبل أن أسأل عن اسمه تطوع من جاء يخبرنى بأمره ، إنه ليس سودانياً بأى حال من الأحوال ، لغته فيها لكنة تختلف عن لكنتنا ، ثم أن وجهه ليس فيه من سمرة السودانيين بدرجاتها شىء ، استغرق الحوار دقيقة لاتزيد ، ومع ذلك كانت كافية بالنسبة لأحد الكبار فى البيت ، لأن يرحب بالطارق ويدعوه للدخول دون أن يعرفه ، بل ودون أن يعرف سبب زيارته ، هكذا تقاليدنا .

وجدته أمامى . .

صديق قديم تزاملنا لمدة طويلة فى أحد المعاهد العسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية . . ثم هو سفير ليبيا فى الخرطوم . رحبت به فأوجز فى الرد . .

بدا مهموماً أو مشغولا بما لايطيق الصبر عليه فى عبارات مجاملة تقصر أو تطول .

كان بالحجرة غيرنا ثلاثة من الأقارب . . تبادل الجميع أحاديث عن الجو والصحة والأحوال .. بدا وكأنه غير راغب فى استمرار حوار المجاملة، . . أدركت أنه يريد الانفراد بى . . طلبت ممن حولنا أن يتركونا لبعض الوقت . .

خرجوا . .

تحـــدث . .

أفرغ كل ما عنده دفعة واحدة وكأنه قد أجهد نفسه بالاحتفاظ به لمدة طويلة .

* تلقيت رسالة عاجلة من طرابلس وبتوقيع العقيد معمر القذافى شخصياً موجهة إليك .

* طلب إلى الاتصال بك فور وصولها ، بغض النظر عن مكانك وعن الزمن الذى تصل فيه الرسالة من الليل أو النهار .

* الرسالة وصلت ظهراً ، إلا أن مفاتيح الشفرة لم تكن متاحة ، فاليوم يوم عطلة ، والموظف المسئول كان فى رحلة فى ضواحى الخرطوم .

* توصلنا إلى مكانه متأخراً ، قام بفك الشفرة وترجمة الرسالة، وقد تم ذلك منذ ثلاثين دقيقة وهى الفترة التى استغرقتها السيارة من مبنى السفارة فى الخرطوم إلى بيتك هنا فى أم درمان .

* أشعر بحـــرج الدبلوماسى فى الحضور بلا موعد ، ولكنى لا أشعر بحرج أمام الأخ والصديق جعفر الذى عرفته زميلا وصديقاً منذ سنوات طويلة ، والذى أعرف أنه لايتغير بموقع ولا منصب مهما كان .

* الرسالة دعوة عاجلة من العقيد معمر القذافى إلى شخصك لزيارته فى طرابلس على وجه السرعة .

« وجه السرعة الذى أعنيه وكما جاء فى رسالة العقيد أى ساعة فجر غد السبت ، وقبل العاشرة من صباح نفس اليوم ، وكلما كان الوقت مبكراً كان أفضل » .

* هدف الدعوة أن يكون بصحبتك للقاء ترتب بصعوبة بينه وبين الرئيس السادات فى مرسى مطروح أو الإسكندرية حسب ماسيتقرر خلال هذه الليلة .

* إن السادات هو الذى أصر على أن يكون معمر القذافى فى صحبتك عند مقابلته ، لأنه يريد أن تكون أنت شاهداً على مايتم بينهما من اتفاق ، بعد فترة من تأزم العلاقات بين الرجلين وبين البلدين ، وصلت إلى حدود خطيرة هددت بقطيعة نهائية بل وماهو أكثر من قطيعة .

* السادات كما قال رسوله لمعمر القذافى لايريد أن يتم اتفاق أو حتى لقاء بدون وجود جعفر ، لاعتبارات تتعلق بتقدير السادات لك ، ولاعتبارات يرى السادات أنها تتعلق بخصوصية العلاقات بين مصر والسودان ، وهى خصوصية لايريد لها مرة أخرى أن تتأثر بتقارب مع ليبيـــا أو فتور العلاقات معها .

لهذا . . يقول سفير العقيد . . فقدجرى ترتيب الأمر كله . . .

طائرة ليبية ستصل إلى مطار الخرطوم بعد ساعات ، وستكون فور وصولها مجهزة للاقلاع وهى تحملكم إلى مطار طرابلس ، حيث لن تمكث فيها سوى ساعة للتزود بالوقود تتجهون بعدها أنت والأخ معمر إلى لقاء الرئيس السادات فى الإسكندرية أو مرسى مطروح حسب ما يكون قد تم الاتفاق عليه خلال هذه الليلة .

وينتهى السفير الصديق من حديثه . .

وأجدنى بعفوية أسأل . . ولماذا لايحضر القذافى هنا إلى الخرطوم ، ثم نتجه معاً لمقابلة السادات فى الإسكندرية أو مطروح .

ولا أظن أن الرجل كان قد أعد نفسه لمثل هذا السؤال ، ذلك أنه أخذ وقتاً ليفكر ، قال بعده . .

ربما لأن القذافى لايريد أن يصور الأمر وكأنه وساطة بينه وبين الرئيس السادات ، وربما لأن طرابلس أقرب إلى الإسكندرية من الخرطوم ، وهى بالقطع أقرب إلى مرسى مطروح إذا تقرر اللقاء هناك . .

استمهلته وقتاً لأفكر . .

تركته حيث هو ، واتجهت إلى الداخل حيث أجريت عدداً من الاتصالات التليفونية .

عدت إليه . . اتفقنا على لقاء فى الفجر فى المطار الحربى حيث تقلع منه الطائرة الليبية .

● ● ●

خرج . . وبعد فترة دخل زوار آخرون . .

كانوا أنفسهم من اخترت لمرافقتى فى هذه الرحلة المفاجئة .

طرحت عليهم ماسمعته من السفير الليبى ، لم يتوقف أحدنا أمام التفاصيل، تلك واحدة من صوعات القذافى ومفاجآته ، يخاصم فجأة ويصافح فجأة ، والخير كل الخير فى تحسن العلاقات بين مصر وليبيا ، بعد أن وصل تأزمها إلى حد خطير بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

طرحت سؤالا بطريقة بدت وكأننى أطرح السؤال للسؤال وحده ، دون انتظار الإجابة .

لماذا لم يتصل بى الرئيس السادات ليبلغنى بالأمر مباشرة ، بدلا من أن يصلنى عن طريق معمر القذافى . . ؟

ووجدت من يجيب . .

« ربما أراد أن يترك الأمر لمعمر ، حتى لايبدو أن هناك تنسيقاً مسبقا بين السادات وبينك عليه » .

وقلت . .

هل يتوجب علينا أن نخطر السادات بالأمر الآن . . ؟

ويجيب واحد منهم ، عرف عنه تمسكه بشكليات البروتوكول قائلا . .

بروتوكولياً لايصح . .

الدعوة من معمر القذافى ، وعليه وأجهزته أن يتولوا إجراء مثل هذا الاتصال .

نتفق على لقـــاء الفجر . .

قبل أن ينصرفون يتفقوا معى على الالتزام بما وعدت السفير الليبى به .

أن لا يعلن عن السفر موعده وغايته من الخرطوم أو من طرابلس ، سوف يعلن الخبر مقروناً بالاتفاق من مرسى مطروح والإسكندرية بواسطة الرؤساء الثلاثة .

● ● ●

نلتـــقى عنـــد الفجــــر . .

تقلع الطائرة والخرطوم مازالت على مشارف اليقظة . تصل إلى طرابلس بعد عدة ساعات .

● ● ●

مطـــار طرابلس . .

لا أحد فى الانتظار سوى موظف واحد . . يقودنا إلى عدد من السيارات تتجه بنا إلى أحد القصور ، يسأل أحدنا عن العقيد . . يسمع إجابة أنه فى الطريق .

في صالون القصر جرى حوار سوداني توازت فيه قمم تحكمنا .

إحساس بأن مكان القذافي الحالي عند سلم الطائرة غير مقبول ، وخاصة أنه صاحب الدعوة .

وترفع عن الشكل مادمنا للهدف ، وخاصة أننا نعرف في القذافي ما قد لايعرفه الكثيرون . . .

تتوالى الحكايات . . وفي الغالب أكون أنا صاحبها .

** مكان القذافي الحالي في المنصة الرئيسية المقامة في مسار عرض عسكري في طرابلس ، بمناسبة الاحتفال بعيد الفاتح من سبتمبر .

** ثلاثة من رؤساء الدول ضيوف القذافي وليبيا في أماكنهم في منصة الاحتفال . . عشرات خلفهم من كبار الضيوف ، وكبار الرسميين في ليبيا . . عشرات الآلاف مصطفين في الشارع انتظاراً لبداية العرض المتوقف على حضور القــذافي ، ساعة تمر ، ساعة أخرى ، ثم يحضر ولا يعتذر إلا بأنه كان نائماً .

** طائرة القذافي في مطار الخرطوم ، واقفة لما يزيد على الثلاثين دقيقة ، هو بداخلها ، ومع ذلك لايوجد من يتجرأ على تنبيهه بالوصول إلى الخرطوم لماذا . . ؟ لأنه نائم .

** القذافي في بيتي هنا في الخرطوم ، يأتي الصباح ، يقبل الظهر ، يطل العصر وبابه مغلق . . ولا أحد من مرافقيه يقبل أن يطرق الباب عليه حتى . لمجرد الاطمئنان ، لماذا . . ؟ لأنه نائم .

** القذافى فى عرض شعبي فى مدينة واو ، رقصات شعبية ، طبول ودفوف ، وصيحات توقظ الموتى ، ومع ذلك فالقذافى نائم ، وقد غطى وجهه بمجلة مصورة .

النوم والقذافى قضية بغير حل .

وهذه المرة هى ككل مرة ، صراع بين السلطان والسلطان ، سلطان النوم والسلطان القذافى ، والانتصار دائماً فى هذه الحالة للسلطان الأول .

● ● ●

تمر ساعة ، ثم ساعة ، ثم ساعة . . . . ولا أحد يدخل ليسأل ، ولا أحد بالقرب من الباب ، تحرك أحدنا نحو نافذة فى الغرفة . .. عاد يقول فى بساطة ،

يبدو أن القذافى وصل أو على وشك الوصول . .

لاينتظر أحد أن يسأله كيف عرفت ؟ لأنه يقول : الحراسة مشددة حول القصر ، حراسة لم نشهدها ونحن ندخله ، وهى الآن ، أقرب إلى السوار حول المعصم .

ساعة أخـــرى . .

ووجدتنى أضيق بالأمر كله . . أهب واقفاً ، لأقول : لنعد من حيث أتينـــا . .

ولكن كيف نعـــود . . ؟

لا أحد معنا ، لا أحد حولنا . .

تنبهنا فجأة إلى أن أحداً لم يقدم لنـــا حتى جرعة ماء منذ وصولنا .

بدأت بوادر الشكوك تزحف ، ماذا وراء الأمر كله . . . ؟

ما وراء الأمر كله كشفه معمر القذافى حينما جاء بعد ذلك ملما .

دخل كالشبح ، لم يلق بتحية ولم يبدأ بسلام ، جلس صامتاً ، ثم انفجر غاضباً يتحدث عن الخداع والخديعة ونكث العهود والوعود للشعب العربى فى السودان ، ذلك الذى يتوق إلى الوحدة مع ليبيـــا ، ولا يمنعه عنها غير شخصى ، وقد حان الوقت لإزاحة العوائق والعقبات .

كان الأمر مدهشاً بدرجة لاتصدق . .

ثم بدأ الأمر مربكاً لمعمر القذافى حينما ارتفعت أصواتنا جميعاً وفى وقت واحد بالهجوم عليه .

لم يكن الأمر حواراً فلم يكن هناك موضوع للحوار ، كان استفزازاً متعمداً قابلناه بما يستحق . .

خرج القذافى فجأة كما دخل ، كنا بعده بل كنا قبله نتجه إلى الباب .

خطواته التى سبقت خطواتنا أتاحت له همساً مع بعض مرافقيه ، والذين عادوا لمرافقتنا للباب ، فالسيارات فالمطار ، فالطائرة ، فالعودة إلى الخرطوم .

● ● ●

مابين فجر وفجر لم يكن أحد فى السودان ولا فى العالم يعرف أين أكون .

لم ندع شيئاً عن الرحلة حين بدأت وفقاً للاتفاق ، ولم ندع شيئاً عن الرحلة حين انتهت لأنها كانت بغير نتائج .

الرحلة من طرابلس للخرطوم كانت طويلة . .

إلا أن الرحلة التى كانت مقررة قبل أن نرحل كانت لابد ستكون أطول ! ! !

كشفت الساعات التى تلت الرحلة سرها وهدفها وغايتها .

أجريت فور وصولى اتصالا تليفونياً بالرئيس السادات حيث حكيت له الحكاية . . . سمعها ولم يكرر فى نهايتها سوى كلمة (حمداً لله على السلامة ياجعفر . .) .

أنهيت المكالمة ، لأتلقى بعد ساعتين مكالمة من الرئيس السادات أيضاً ، يقول فيها . . عرفت القصة كلها يا جعفر . . من حقك أن تعرفها . . ولكن التليفون لا يتسع لها ، نلتقى كما تشاء ، فى القاهرة أو الخرطوم كما تحب على أن يكون ذلك غدا . .

● ● ●

ما رواه السادات كان ذا شقين :

جانب يخصه ، وقد أكد فيه أن الاتصالات بينه وبين القذافى مقطوعة منذ أسابيع ، وبالتالى فإن اتفاقاً بينهما حول لقاء لهما بحضورى أو بغير حضورى لم يحدث إطلاقاً . . وأنه عرف بوصولى إلى طرابلس بواسطة مصادره فور وصولى إليها ، إلا أنه لم يعرف تفاصيل ما حدث إلا بعد حوالى ساعتين من مكالمتى التليفونية معه .

إن تفسيره لزيارتى السرية والمفاجئة لطرابلس حين علم بها ، لم يخل من سوء الظن ، وأنه صراحة فهم الأمر على أساس أننى انتهزت فرصة توتر العلاقات بينه وبين القذافى لأكسب « قرشين » من أمواله المكدسة لأحل بها بعض المشاكل .

يقـــول الســـادات . .

رغم هذا التفسير فإننى عذرتك يا جعفر ، ولكننى كنت عاتبا عليك لأنك لم تخبرنى « لنلعبها » معاً .

يقـــول الســـادات . .

هذا ما يخصنى من أمر حكايتك مع الولد المجنون معمر . . مايخصنا نحن الاثنين معاً ، تعال نقرأه معاً كما ورد فى هذا التقرير :

• • •

يقـــرأ السادات . .

ماسمعته رغم كل الشكوك كان فوق قدرتى على التصديق ، ذلك أن مصادر السادات فى طرابلس وكانت نفسها من أقرب العناصر لمعمر القذافى.

كتبت تقـــول :

إن معمر القذافى كان قد رتب أمر زيارة الرئيس نميرى لطرابلس بمفرده ، وأنه بنفسه أملى الرسالة على موظف الشفرة فى وزارة الخارجية وطلب إرسالها لسفارته فى الخرطوم صباح الجمعة

وأنه كان يتوقع وصول الرئيس نميرى وحده أو معه مرافق واحد على الأكثر . . وأنه فوجىء بوصول ثلاثة وزراء سودانيين معه .

وأنه ومنذ وصول الرئيس نميرى ومرافقيه إلى طرابلس وحتى لحظة لقائه معه ، كان القذافى طوال هذا الوقت يجلس فى غرفة مجاورة مع شخصية سودانية معارضة « ذكر صاحب التقرير اسمها » وأنه كان من المقرر احتجاز الرئيس نميرى فى طرابلس ، ثم إعلان عزله من السلطة فى السودان ، على أن تحل محله الشخصية السودانية المعارضة ، والتى كان من المقرر سفرها إلى الخرطوم فى نفس اليوم وعلى نفس الطائرة التى حملت الرئيس نميرى إلى طرابلس .

وأنه غير معروف بالضبط لماذا لم يتم تنفيذ هذا المخطط . . وهل كان التردد فى التنفيذ راجعاً إلى القذافى ، أم لشكوك أبدتها الشخصية السودانية المعارضة فى إمكانية نجاح هذا التخطيط . . ؟

وأن الجو العدائى الذى ساد لقاء الرئيس نميرى بمعمر القذافى ، قد يكون مبرراً بالارتباك الناشىء بانهيار التخطيط فى اللحظة الأخيرة. وأنهى صاحب التقرير كلمته ، بأنه سيوافى الرئيس السادات بالمزيد فى حالة تمكنه من الوصول إليه .

• • •

رحم الله السادات وغفر له ، كان له طريقة فى الحديث تميل إلى المبالغة وتلوين النبرات مع انفعال يصل إلى حد الغضب إذا ما كان فى موضوع

الحديث ما يغضب . . وقد يكون هذا هو السبب فى أننى لم آخذ الأمر بجدية .

تصورت الأمر بصورة أخرى . .

إن القذافى فكر فى لحظة أن يفاجىء السادات بواحدة من زياراته الصاعقة، وأنه فكر أن أكون بشخصى أحد عوامل الإثارة فيها ، وأنه كعادته تراجع عن الفكرة بصورة مفاجئة ، وأنه لم يجد بعد وصولى إلى طرابلس ما يبرر موقفه أمامى ، فتهرب من مقابلتى لأطول مدة ممكنة ، وعندما لم يجد مفراً من المواجهة ، كان ما كان منه ارتباكاً صاغ غضبته المصنوعة .

بالنسبة للرئيس السادات حسبتها له ولم أحسبها عليه . . ربما يكون حرصه على العلاقة بين القاهرة والخرطوم ، هو الذى دفعه لقطع الطريق نهائياً لأى لقاء محتمل بين الخرطوم وطرابلس .

● ● ●

مرت سنوات . . . .

دبر القذافى مؤامرة الغزو الليبى للسودان ففشلت . .

أعلنت المصالحة الوطنية . .

عاد الخارجون على النظام إلى وطنهم ، ومن بينهم ذلك الذى ذكر التقرير الذى قدمه لى الرئيس السادات اسمه ، باعتباره طرف الحوار مع معمر القذافى أثناء وجودى فى طرابلس .

وبالرغم من أن لقاءاتى كانت قد تكررت معه بعد عودته للخرطوم ، فإن سؤالى له عن حقيقة ما حدث جاءت متأخرة .

لم أسأله فى لقائنا الأول ، ولا الثانى ، ولا حتى الرابع . . سألته بعد ذلك عرضاً ويدى فى يده ونحن نجتاز باباً موصلا إلى مدخل بيتى بعد جلسة طويلة .

للحق لم تفاجئنى إجابته بقدر ما فاجأنى ثباته ، لم تتقلص يده ولم تهتز مشيته، وإنما انطلق يتحدث كأنه يروى حكاية لا أنا طرف فيها ، ولا هو حتى شاهد عليها .

ربما لأنه ظن أننى أعرف ، وربما لأنه أضاف ماحدث إلى كل ماحدث ، فبدا الأمر كله تفاصيل متصلة .

ودعته عند الباب ، لم يكن هدير عربته قد غاب عن أذنى ، إلا وكنت ممسكاً بآلة التليفون طالباً بإلحاح سرعة توصيلى بالرئيس السادات فى القاهرة .

ماقلته له لا أذكر تفاصيله . .

ماقاله لى رحمه الله . . .

كنت أعرف ياجعفر أنك لم تصدق ، ولكنى كنت أعرف أنك يوماً ما ستعرف ، عيبك يا جعفر أنك كأولاد الخال جميعاً ، طيبون أكثر من اللازم .

ثم يقول الرئيس السادات . . .

لم أشأ أن أزعجك بالمزيد من التفاصيل والتى وصلتنى بعد ذلك ، كنت كما قلت قد أحسست أنك لم تصدق ماجاء فى التقرير الاول ، فما الفائدة من إضافة ماجاء فى التقرير التالى ، الآن أقول لك :

ويقول الســادات . . . .

كان المخطط ساذجاً جداً . . يجرى احتجازك فى طرابلس ويذهب الآخر إلى الخرطوم ، يعلن تسلمه السلطة ، وفى نفس الوقت يعلن وحدة اندماجية بين السودان وليبيا حيث القذافى هو الرئيس والقائد العام لقوات الدولة الموحدة ، والآخر نائبه فى الرئاسة فقط ، فهو ليس من العسكريين كما تعرف . .

أسأل الرئيس السادات . . هل يرى حكمة فى أن أحكى للناس كل الحكاية .

يضحك الســادات ويقول . . .

إنك لم تصدقها رغم أنك بطلها الأوحد ، هل تظن أن أحداً بعد ذلك يمكن أن يصدقها . . ؟

ثم يضيف . . .

الحل أن يرويها كما عاشها من كان معه ، ثم عاد إلى وطنه باعتباره الشاهد الوحيد عليها .

أقول للرئيس السادات . . .

ما زالت الجروح القديمة كما أرى قابلة للالتهاب من جديد ، وقد يكون مجرد الطلب عقبة فى وجه الشفاء الكامل .

يوافقنى وينهى الحديث ولكن إلى حين .

● ● ●

ألتقى بالرئيس السادات فى منزله بالمعمورة بالإسكندرية بعد هذا الحديث بعدة شهور . . نستعيد الذكرى . . يكشف لى عن المزيد من التفاصيل ، والأهم فيها مصدر معلوماته فى طرابلس ، واحد من أقرب المقربين لمعمر القذافى ، كان وما زال حتى هذه اللحظة .

السادات والبحر أمامه ، والغليون فى فمه ، وقامته الطويلة ممتدة على مقعده الطويل ، ينظر للبحر وعلى حين فجأة يقول . .

اسمع ياجعفر ، تعال نتخيل معاً ، ماذا كان يمكن أن يحدث للسودان ، لو تم الأمر كما خطط الولد المجنون معمر . . ؟

وأجدنى وبغـــير وعى تقريباً أقول له . .

هى خطيئة الكل بما فى ذلك مصر قبلك ، ثم مصر فى أوائل أيامك .

ويسألنى فزعاً . .

ماذا تقول ياجعفر . . ؟

فأقـــول . . .

هو التوجه بالكلى سواء فى مصر أو ليبيـــا ، نحو الجزئى فى السودان ، ولما كان السودان كياناً ينقصه التجانس ، فإن التوجه للجزئى فيه لن يكون له إلا إحدى نتيجتين :

إما أن يفرض الجزئى فيه سيادته على الكلى بالقهر والقوة ليسايره فيما ذهب إليه اتحادا أو وحدة وهذا بكل المقاييس محال .

وإما أن ينفصل الجزء عن الكل فينفرد بالذهاب إلى الاتحاد أو الوحدة ، وبهذا يكون الانشطار فى الكيان الموحد هو ثمن الاتحاد مع الجزء المبتور ، وفى كلا الحالين ، فلن يجنى الجميع سوى الفشل والخسران ، سيدفع السودان الثمن الأغلى لأنه فرط فى وحدة قائمة هى وحدته الوطنية ، فى مقابل اتحاد لايدوم ولا يمكن أن يدوم .

بل إن الطامعين فى التوحد معه لمطامح مشروعة أو مطامع أنانية ، لن يجنوا منه سوى أشواك فرقته .

ثم أقول للرئيس السادات . .

دعنا نحلل السودان ماهو بالنسبة لمصر على سبيل المثال :

* هو بشماله تداخل مع مصر بشرياً وجغرافياً ، فى النوبة .

* هو بشرقه تداخل مع مصر بشرياً وجغرافياً أيضاً .

* هو بغربه تماس مع مصر وليبيـــا .

* هو بجنوبه مجال حيوى لمصر والسودان معاً . . . حيث فى الجنوب مياه النيل الأبيض المهدرة فى المستنقعات ومناطق السدود ، وهى ذاتها الاحتياطى الاستراتيجى لأى توسع زراعى فى مصر والسودان .

فإذا كان هناك اختيار لمصر فى أى من أجزائه اتحاداً أو وحدة ، فما الذى يمكن أن تختار من أجزائه . . ؟

من النــاحية الاقتصــادية . .

فإن السودان متكامل بذاته ، حيث مصالحه امتداد أرضه ، فى الشرق منافذه إلى العالم عبر البحر الأحمر ، فى غربه ثروته الحيوانية الثرية ، فى جنوبه إمكانيات استثماراته الواسعة فى زراعة تعتمد على المطر والنهر فى وقت واحد . . فى وسطه بنيانه الزراعى الشامخ ، فى الجزيرة مشروعه الزراعى الأكبر فى العالم ، فى الرهد مشروعه الزراعى النموذج للعالم كله ، فى النيل الأزرق زراعاته المطرية والمروية بإمكانياتها للحاضر والمستقبل ، شماله ماتعرف ، بستان تهدده الرمال ، يكفى إزاحتها ليثمر إلى جانب حضارته العريقة مايكفيه ويكفى غيره من محصول الضغط السياسى فى العالم كله . . . أعنى القمح .

ما الذى يكون فى السودان مغرياً بوحدة أو اتحاد فى غياب إحدى هذه المناطق .

من النــاحية الأمنيــة . .

فإن معادلة الأمن القومى فى السودان تكاد تكون فريدة فى نوعها فى العالم كله .

أمنه السياسى ، جزء من أمنه الاقتصادى ، جزء من أمنه الاجتماعى ، إضافة إلى أن مجمل عمقه هو استراتيجية دفاعه الأولى والأخيرة .

فإذا كان الشتاء هو حارس روسيا السوفيتية ضد الغزو الخارجى كما حدث مرتين ، مرة بفشل الغزو الفرنسى بقيادة نابليون

ومرة بفشل الغزو الألمانى بقيادة هتلر ، فإن رمال السودان شماله وغربه ، وجبال السودان شرقه ، ومستنقعات السودان وغاباته جنوبه ، وسهول السودان وسطه ، كلها جميعاً متداخلة ومتكاملة هى خط دفاعه الأول ، بل وخط دفاعه الأخير .

من الناحية الأمنية أيضاً . .

إن التداخل البشرى بين السودان وجيرانه ، هو حماية للسودان وجيرانه من كل المخاطر ، سواء من جانبهم على السودان ، أو من جانب السودان عليهم .

فحين يتداخل الناس بشرياً وحضارياً واقتصادياً واجتماعياً عبر خطوط الحدود الوهمية ، فما الذى يغرى بالعدوان من هنا على هناك ، أو من هناك على هنا ؟

من الناحية الأمنية أيضاً . .

فإنه فى السهول لا فى المنحدرات يمكن إقامة السدود التى تعوق مجرى الأنهار . . وهذا أمر يهم مصر بقدر ما يهم السودان ! ! !

وأقول للرئيس السادات . .

هل هناك إذن جدوى من التعامل مع الجزء فى السودان من جانب أى طرف تحت دعاوى الوحدة أو الاتحاد . . ؟

وأسمعه يقــول . .

أبداً يا جعفر . .

هل تعرف أين يقع مسقط رأس أمى من أرض السودان ؟

وقبل أن أقول له نعم أعرف . .

يقول هو : من بارا فى غرب السودان ، ليس فى النوبة فى شماله قرب الحدود مع مصر .

ثم يقــول . .

هل تعرف أيضاً يا جعفر أنه كان وما زال بعض حماة حدود مصر وسواحلها سودانيين فى أغلبهم من غرب السودان . . ؟

وهل تعرف يا جعفر ، أين يبدأ درب الأربعين الذى يصب فى كوم أمبو قرب أسوان ؟ . . . فى غرب السودان أيضاً . . .

ثم هل تعرف يا جعفر أن البشاريين هم أنفسهم مصريون فى مصر ، سودانيون فى السودان . . . وأنه من جنوب السودان ينبع النيل الموحد لمصر والسودان . . ؟

هل تقول يا جعفر بعد ذلك إن هناك من يفكر فى مصر للتوجه للجزء فى السودان . . ؟

أقــول . .

نعم كان ذلك فى الماضى ، أما الحاضر فلقد تعدينا مرحلة التعامل إلى مرحلة التكامل ، فى مرحلة التعامل كانت مصر كلها مع بعض السودان ، فى مرحلة التكامل ، هى مصر كلها مع كل السودان .

يستعيد السادات نظراته إلى البحر العريض . .

غداً يا جعفر تتصل الاسكندرية بنيمولى فى جنوب السودان ، أليس لنيمولى ميناء يجرى تخطيطه قرب الإسكندرية باسم السودان الجديد .

أقول له نعم . .

يقــول . .

بإذن الله سنحقق الأمل بالعمل ، بعد أن أنجزنا مرحلة التعامل مع الجزء كما تقول ، إلى مرحلة التكامل مع الكل كما نريد .

• • •

رحم الله السادات وغفر لــه . .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

«مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾»

« صدق الله العظيم »

المنهج الإسلامى كيف ؟

الفصل الثالث

الفجر

الفصل الثالث

الفجر

الصيف فى ليالى القاهرة ، لا يحتمله إلا القاهريون خاصة فى شهر أغسطس .

غيرهم وعلى الأخص السودانيون ، والذين اعتادوا أن تطل عليهم النجوم والقمر إذا كان هناك قمر وهم نيام خارج الغرف المسقوفة ، هؤلاء إذا صادفهم الصيف فى القاهرة ، فليس لهم من رفيق فى لياليهم غير السهر .

كنت واحداً من هؤلاء فى إحدى اجازاتى فى القاهرة فى الخمسينات ، الجو خانق داخل الغرفة ، خارجها شرفة تطل على إحدى شوارع الدقى ، كانت وحدها ملجئى وملاذى ، كانت من الضيق بحيث لاتصلح مرقدا ، إلا أنها كانت من الاتساع بحيث تتسع لمقعد أو مقعدين . على إحدى هذه المقاعد مضى بى أول الليل ، ثم منتصفه ثم أوغل إلى أن قارب الفجر .

لاحظت فى الليلة الأولى ، أن هناك من يدب فى الطريق تسللا وكأنه يخشى المطاردة ، ثم لاحظت اقترابه من بعض النوافذ فى الطوابق الأولى فى بعض شوارع الحى ، يدفعها برفق ثم تصدر منه أصوات لاتكاد تبين ، انزلق المشهد من ذاكرتى مع الصباح الجديد ، تذكرته فى مطلع الليل ، ترقبته بعد أن انتصف ، كان الفضول رفيق سهرى وأنا افترض تكراره .

لم يتخلف عن موعده ، قرب الفجر ، عاد الشبح يتسلل ، عادت طرقاته الخفيفة على نفس النوافذ ، حاولت أن أتبين همسه إلا أنى لم أتمكن .

دقائق مرت لاحظت بعدها أشباحاً يطمس الليل معالمها تخرج من أبواب نفس البيوت حيث تتجه إلى ما لا أعرف .

فى الليلة التـــالية ، كنت فى ذات الموعد فى عرض الطريق ، تكرر المشهد ، الطرقات نفسها ، الهمسات اتضحت لى وأنا على القرب من مصدرها .

صوت خافت يقول كلمة واحدة . . الصلاة . . ، تسمرت فى مكانى ، هل يكون الأمر أمر شفرة سرية ، كلمة سر متفق عليها ؟ . وإلا لماذا الهمس بما هو مشروع ، الدعوة للصلاة ، صلاة الفجر بطبيعة الحال ؟

حيرتى لم تطل وكذلك وقوفى ، تسللت الأشباح خارج الأبواب ، انطلقت فى عرض الطريق ، تبعتها ، اتجهت بى إلى مسجد الحى القريب .

هى الصلاة إذن ففيم التستر عليها . . ؟ عدت إلى حيث أسكن ، بسذاجة ربما صاغتها عصبية الغضب . كنت أبحث عن رقم تليفون منزل وزير الداخلية فى دليل التليفون ، كنت أعرف اسمه بطبيعة الحال ، فوصلت إلى صفحة دون فى أعلاها الحرف الأول من اسمه الأول .

وجدت كل الأسماء المطابقة لاسمه الأول ، إلا أننى لم أجد بينها اسمه بالكامل . . راجعت دليل التليفون وتاريخه ، كان دليل السنة نفسها .

أدركت فجأة أن أسماء الوزراء وأرقام تليفونات بيوتهم لايمكن أن تدرج فى دليل التليفون العادى . ولكن ما الذى كنت أريد أن أقوله له فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

كنت ، والله أعلم ، بنيـــة صادقة مصراً على الصراخ فى إذنه ، بأنه حرام وعار وظلم أن يضطر المسلم فى مصر الأزهر ، لأن يتستر على دينه ويتخفى وهو يؤدى شعائره .

كانت تلك نيتى صدقاً وحقاً ، ماذا لو تحققت ؟ . . لا أعرف تحديداً ، وإن كنت أعرف أن من بين احتمالات نتائجها أن يجرى ترحيلى على الفور من القاهرة إلى الخرطوم .

• • •

سبق هذه الفترة من الخمسينات مطاردات عنيفة لتنظيم الإخوان المسلمين فى مصر ، كان الصراع الذى بدأ بين الثورة المصرية بقيادة . . جمال عبد الناصر وهذا التنظيم قد وصلت إلى حد المواجهة ومحاولة اغتياله فى مدينة الاسكندرية سنة ١٩٥٤ ، اسفرت المطاردة عن مصادمات عند الاعتقال ، استخدمت فيها الأسلحة ، بين قوات الأمن وأعضاء التنظيم المطاردين ، كانت المحاكمات بعد ذلك قد اتسمت بعنف فى إجراءاتها يتنافى مع علنية إذاعتها ، بالإضافة إلى قسوة الأحكام التى صدرت فى نهاية تلك المحاكمات ، ثم كانت هناك اعتقالات بغير محاكمة ، قيل إنها شملت المئات ، وقيل إنها شملت الآلاف .

إلا أن القصة لم تكن تلك بدايتها . .

بدايتها كانت قبل ذلك التاريخ بسنوات . . حين بدأ ظهور التنظيم على مسرح الحياة فى مصر بقيادة الأستاذ حسن البنا ، بدأ كدعوة دينية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ثم تداخلت مع أهدافها أهداف اجتماعية ، ثم تبلورت إلى حركة سياسية نشطة مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ثم تحولت إلى حركة فدائية شجاعة حينما كانت بأفرادها طلائع المقاتلين ضد إسرائيل قبل دخول القوات المصرية الحرب مع باقى الجيوش العربية ، ولأن هؤلاء كانوا الطلائع ، فقد سبق دخولهم ، إلى ساحة المعركة تدريبات عسكرية ساعد فيها ضباط الجيش المصرى ، وكما أغمضت الحكومة وقتها عيونها عن تدريب أفراد هذا التنظيم ، فإنها تجنبت معرفة مصادر تسليحهم والتى كانت فى غالبيتها من مخازن الجيش المصرى أيضاً .

بدأت الحرب الرسمية وانتهت باعلان الهدنة الأولى ثم الثانية والأخيرة فى تلك الفترة .

عادت القوات المصرية من الحرب بمرارة الهزيمة وحديث طويل عن فساد الأسلحة وضعف القيادة . عاد المقاتلون من أفراد هذا التنظيم بحقد الهزيمة ، وقد شاع وسطهم تعبير يقول ، بأن الانتصار فى المعركة خارج مصر لابد أن يبدأ بمعركة داخل مصر .

ولأنهم شباب اكتسب خبرة قتال حقيقية ، عرفوا مصادر التسليح ، ونوعيته وكيفية الاحتفاظ به فضلا عن استخدامه ، فإن صدامهم مع السلطة كان قد اكتسب طابعاً من العنف المتبادل بين الطرفين .

حوادث إرهاب وتفجير مبان نسبت لهم ، اغتيال لرئيس الوزراء النقراشي باشا نسب إليهم ، اغتيال لرئيس محكمة ثم تفجير لمقر محكمة حسب عليهم ، تمت تصفية رئيس التنظيم الأستاذ حسن البنا ، استمر مسلسل العنف بعض الوقت ثم هدأ وخمد مع بداية الخمسينات .

تحولت الحركة من العنف إلى المناورة السياسية ، خاصة بعد أن تولى التنظيم قاض متقاعد هو الأستاذ حسن الهضيبي ، اتصل الحوار بين الحكومة والتنظيم حينا ، وبين التنظيم والقصر حيناً ، كان ذلك على السطح ، أما ما وراء السطح فكانت هناك مفاجآت مثيرة .

منها ما انكشف بعد الثورة من اتصال بين قيادتها وقبل اندلاعها وعلى أعلى مستوى مع تنظيم الإخوان

ثم ما اتضح من تنسيق بين قيادة مجلس الثورة وبين قيادة التنظيم للحد الذى كان ذلك التنظيم هو الوحيد الذى جرى استثناؤه من قرار حل الأحزاب المصرية .

إلا أن ذلك لم يستمر طويلا . .

أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، معها تم إقصاء محمد نجيب رئيس مجلس الثورة وأول رئيس للجمهورية فى مصر ، بعدها أعيد محمد نجيب لكل مناصبه ، بعدها تم إبعاد محمد نجيب عن مسرح السياسة بل ومسرح الحياة ، حيث اختفى فى إطار إقامة جبرية فى منزل فى المرج من ضواحى القاهرة .

ذات الفترة شهدت المد والجزر العنيف فى علاقة تنظيم الإخوان المسلمين بالسلطة الجديدة فى مصر ، والذى انتهى بعنف محاولة اغتيال عبد الناصر ، ثم عنف المطاردة ثم المحاكمة ثم الاعتقال لأعضاء التنظيم بالجملة ، ولسوف

يظل السؤال مطروحاً حول وهمية أو واقعية محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى الإسكندرية ، إلا أن الثابت فعلا ، أن المطاردات التى أعقبت هذه المحاولة شهدت عنفاً متبادلا بين قوات الأمن وبعض أعضاء التنظيم ، والذين لم يستسلموا كالحمائم ، وإنما قاوموا بالسلاح والمتفجرات ، إلا أن نتائج ما حدث ، كانت أخطر مما حدث ، ومن ذلك ما شهدته وأشهد عليه ، من أن الصلاة وربما صلاة الفجر وحدها ، كانت مدعاة للشبهة يتستر الداعى عليها . . . يتخفى وهو يقوم بها .

وليس الدلالة فى هذا الحدث ، وقد يكون فردياً ، مرهوناً بزمانه ومكانه ، وأن الصدفة التى ساقتنى إليه ، قد لا تكون متاحة لو كنت فى غير هذا المكان من القاهرة ، أو غيرها من أقاليم مصر ومدنها وقراها ، وقد تكون دواعى الأمن فى هذه المنطقة أو طبيعة الظروف فى هذه المرحلة ، قد حتمت الأخذ بالشبهات ، خاصة أن البعض قد يكون قد فسر خطأ فى الاجتهاد ، بأن الاجتهاد فى الدين يرتبط بالعنف باسم الدين ، قد يكون الأمر واحداً من تلك الاحتمالات جميعاً ، أو غيرها جميعاً ، المهم فى ما شاهدته دلالة على ما شهدته ، إنه حدث ولو لمرة واحدة ، وفى مكان واحد ، أن يتستر المسلم على أداء فريضة ، يتخفى المسلم ليمارس شعائر دينه ، يتحول الدين من مصدر اعتزاز بالإيمان به ، إلى مصدر خوف من مجرد إعلان مظهر من مظاهر الانتماء إليه .

وليس المجال هنا مجال مناقشة إجراءات أمنية أخطأت أو أصابت حسب رؤيتها ، وإنما آخذ الأمر من خلال مسئولية المسلم نحو دين هو التيسير والهداية والسماحة لأسأل عن نتيجة العنف باسمه .

هل يؤدى إلى رفع لوائه وانتشار هداه ، أم هو إكراه بدين لا إكراه فيه بنص كريم آيات كتابه ، والأهم والأخطر هل يتحول التبشير بالعنف ،

إلى تنفير من العنف تمتد آثاره إلى الدين نفسه بحيث لا يقبل عليه من الناس إلا من غلبت شجاعته على مخاوفه ، ويتوقاه من لا يقوى على أن يشترى آخرته بدنياه ، علماً بأن الإسلام لا ينهى من الدنيا إلا شروراً ترتكب فيها وآثاما تمس ناموسها ، باعتبارها نظاماً يختل بالرذيلة ويكتمل بالفضيلة ؟

ماذا عن ذلك الذى لا يرى فى نفسه إلا عوناً لمن يعول ، حيث مسئوليته عنهم يحاسبه عليها ربه إذا قصر فى حقوقهم إهمالا أو غياباً ؟

ماذا عن أم تعتمد على ولدها وصغير يعتمد على والده وأسرة ليس لها بعد الله إلا عائلها ؟

ماذا عن هؤلاء جميعاً ، لو أدى العنف باسم الدين إلى عنف ضد الدين يمتد ويشمل من قاموا بالعنف باسمه ، أو حامت حولهم شبهات بالعنف لمجرد إخلاصهم فى أداء شعائره ومناسكه ؟

ثم ماذا عن ولى الأمر وهو مسئول أمام الله عن أمن عباده . . ؟

هل يفرط فى أمنهم لمجرد أن العنف أصبح وسيلة للدعوة لدى البعض ؟ . والدعوة هى قول معروف وموعظة حسنة ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ثم ماذا عن العنف فى التاريخ الإسلامى كله . . ؟

ولقد كان من ضحاياه وباسم الدين نفسه على بن أبى طالب ، وذلك الذى طعنه يقول له ، الحكم لله وليس لك يا على ، كل ذلك لأنه قبل التحكيم للكتاب يوم رفع الكتاب فى موقعة صفين . . ؟

ماذا عن عثمان بن عفان ولقد ادعى قتلته الاحتكام إلى قرآن أمر بجمعه عثمان ، ثم تناثر دم عثمان على بعض صحائفه . . ؟

ماذا عن الذين قتلوا الحسن والحسين باسم الإسلام ودفعوا بنساء آل البيت أسرى فى موكب البشاعة من الكوفة حتى دمشق ، يتقدم موكبهم رأس الحسين معلقة على رماح الطغيان . . ؟

ماذا عن العنف باسم الدين ، وقد برره البعض بأنه خروج على البيعة فكانوا سيوفاً لمعاوية وأدوات بطشه لكل من قال كلمة حق فى حق على ابن أبى طالب وأنكر لعنه من فوق المنابر . . ؟

ثم ماذا عن العنف معنوياً ، تشدداً وتسلطاً باسم الدين وادعاء لرفع لوائه . .

ألا يدفع العنف بالقول باسم الدين ، إلى عنف فى القول ضد الدين برد الفعل الإنسانى . . ؟

ألا تدفع دعاوى التكفير إلى التفكير فيمن يحكم على الناس بواطنهم ، أهو الله كما قال الله فى كتابه ؟ أم هو من الناس ، بعض الناس يدعون لأنفسهم ما لا يملكون من قدرة هى لله وحده سبحانه ، يعلم الظاهر والباطن ؟ . .

ماذا عن العنف قولا باسم الدين ، ألا يدفع بعض الناس تكتلا معه ، ويدفع البعض من الناس تكتلا ضده ، وتلك حالة تتحدد مسئولية نتائجها على من دفع الناس إليها ، وهو من بدأ بغلظة يوجهها باسم دينه ، إلى غلظة تواجهه ثم تواجه دينه . . مواجهة وإن لم تكن فى العلانية جهراً ، فقد تكون فى القلوب تحولا . . ؟

ثم لماذا تؤخذ الأمور بظواهرها ، بغير تبصر فى بواطنها ، والتى قد تكون للدين أقرب ، ولسبيله أرحب ، ولمبتغاه أيسر للناس . . فطرتهم وهداهم . . ؟

لماذا لا يكون الانتصار للدين بالناس ، وليس الانتصار للدين إكراها للناس عليه ، بحيث تكون قناعتهم مدخلا لهداهم ، حيث لا سبيل لقناعة إلا بقول معروف هو موعظة حسنة ، وعمل معروف هو قدوة حسنة . . ؟

وكيف يكون الدين هدفاً ، فيصبح وسيلة لغاية مهما تسترت بحسن النوايا ؟ وكيف لا يكون الدين وسيلة لغاية إذا ما كان عنف الفعل أو عنف القول مدخله ؟ علماً بأن الله يحدد لرسوله الكريم مسار نجاح دعواه بدلالة الآيات الكريمة :

((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾))

(سورة آل عمران : ١٥٩)

ثم هو هو القائل سبحانه لرسوله :

((وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾))

(سورة التوبة : ١٢٥)

وهو سبحانه ، الذى تدرج فى أحكامه من النهى إلى المنع إلى التحريم ، ولم يأخذ من الناس سوءاتهم إلا تدرجاً ، ذلك أن التدرج طريق القناعة ، بينما للقهر منفذان بلا ثالث ، إما إذعان بغير إيمان ، وإما تمرد وعصيان .

ثم لماذا التجريد والتجربة ماثلة ، ولماذا التلميح والأمثلة واضحة . . ؟

هو يوم كان الناس يأتون فيه الفواحش جهرا وعلانية ؛ كانت صفوفهم تنتظم أمام أبواب بيوت للرذيلة بلا مانع ولا رادع ، فلم يسمعوا نهياً ولم يصادفوا منعا ، ولا تعرض لهم آمر بمعروف ، أو منكر لمنكر . . ؟

ثم إذا بيوم أولده الرشد من ظلمات الجهالة ، موعظة حسنة ، قولا معروفاً ، منعاً متدرجاً ، تضييقاً بغير مطاردة ، ثم ردعاً هيناً ، فاختفت الصفوف وتوارت الرذيلة . . تحولت من فعل فيه زهو العلانية إلى وصمة يداريها من يقوم بها بالتخفى والكتمان ، وتلك أولى مدارج هدى النفس ، ألا تزهو بباطل ولا تغتر بمنكر .

ثم جاء يوم ، فإذا القدوة وهى قلة تعلن أنها انتهت عن الخمر والميسر .. فإذا ما كان مشروعاً صار ممنوعاً ، حتى بغير قانون .

توارت العلانية ، واختفى الجهر وتلاشى الفخر بالمنكر ، ولذلك فحين جاء المنع معمما تقبله الناس تقبل المطلوب لا بحسرة غيبة المرغوب ، ولو سارت الأمور على غير هذا المسار ، لكان صدمة ، فكبوة ، بل ولما أقبل الناس على إبادة الخمر إقبالهم على يوم عرس طال انتظاره ، ولما كانت إراقة الخمر فى النيل رمز نهاية ، وإنما كانت ستكون مظهراً بغير محتوى ، مظاهرة فضيلة ليس لها من الفضيلة حتى شرف النوايا .

ماذا عن العنف فى القول ، ثم ماذا عن العنف بالفعل باسم الدين ..

عن العنف فى القول ، لعلنى شاهد على نفسى ، هى أيام تجمع الناس فيها على مشقة يناقشون فيها أمر دنياهم بل أمر معيشتهم حين دعت الضرورة إلى رفع أسعار وقبول نتائج تضخم ، بعضه منهم ما استهلكوا بأكثر مما أنتجوا ، وبعضه لظروف خارجة على إرادتهم تتعلق بالسوق العالمى والإقتصاد الدولى ، ولقد كان تجمعهم بطلب من قيادتهم ، وكان نقاشهم فى مواجهتها ومعها ، قالوا وأفاضوا وأسرفوا على أنفسهم وعلى قيادتهم معهم .

تجمعت سحب التوتر حتى كادت تعصف بما أنجزوا ، من هانت عليه

نفسه سلك طريق المزايدة ، وصولا لتحقيق المطامع ، ومن لم تهن عليه بلده ، صمد واعتدل .

وبينما هؤلاء وهؤلاء فيما هم يخوضون ، كل لهدفه وكل لغايته إذا بجزء من المدينة ينفرد دون المدينة التى لا تتجزأ بقرار تحريم الخمر فى منطقته ، ولقد صدر القرار مقروناً بدعوات فى المساجد لرئيس الدولة ، أن يحفظه الله وينصره ، كل ذلك والأمر على ما هو عليه توترا حتى فى مواقع الحساسية ، بل كان الأمر تأزماً فى أعلى وأخطر المستويات ، وبينما الأزمة تتفاعل نحو منحدرات الخطر ، كان القرار بإبطال ذلك القرار ، ليس سراً مهموساً فى آذان لا تتعداها ، وإنما علناً فى خطاب أذيع ونشر يتضمن حظر الحظر وإبطال قرار منع الخمر .

وهنا فإن الصورة بكل أبعادها كانت خللا لكل توازن .

انطلق العنف فى القول باسم الدين من فوق المنابر ، التقت المطامع مع المزايدة باسم الدين على هدف موحد .

ومع هذا ورغمه ، فلقد سرى القرار بابطال القرار ونفذ .

وصلت الأزمة إلى ذروتها ومنتهاها ، اعتدلت الموازين بعد أن اتضحت المطامع ، جاء وقت الحساب مع النفس وهو حساب أمام الله أقرب .

فإن القرار بحظر الخمر فى جزء من المدينة هو خداع بالدين ومزايدة باسمه ، فما الفارق بين خمر متاحة على جانب من الجسر ، وخمر ممنوعة فى الجانب الآخر منه ، وليس بين الجانبين سوى مسيرة دقائق خمس لا تزيد سيراً على الأقدام ، هل هذا إجراء يتوافق مع الدين أم يناهضه . . ؟ فلا يناهض الدين إلا منافق . .

كان العنف بالقول باسم الدين فى هذه الحالة دلالة على أن الذين لا يعملون لا يعلمون ، ذلك أنهم لو كانوا يعملون بالدين لأدركوا ركاكة المظهر ، فهو كحائط الوهم لا يستر ولا يحجب ولا يمنع ولا يحظر تداولا للخمر ، هى لمن يريد فى متناول أطراف أصابعه .

● ● ●

ثم ماذا عن العنف بالعمل باسم الدين . . ؟

لعله السادات شهيداً . .

ما كان السادات لهؤلاء الذين تجمعوا عليه إلا نصيرهم بعد أن طال غياب السند والنصير لهم سنوات وسنوات .

ما كان قبل السادات بعض ما ذكرت عن حادثة الفجر وهمس الدعوة للصلاة والتستر عليها .

ما كان بفضل السادات أن أصبحت لهم حريتهم ثم أصبحت علنية دعوتهم ، ثم أصبحت لهم منابرهم ثم أصبح لهم الباب مفتوحاً ، يقولون فيه ما يشتهون بغير رقيب وبغير حجاب . . ولأن ولى الأمر لشعبه ، لجموع شعبه ، فإنه لما رأى الفتنة تطل برأسها حاول أن يحاصرها ، فإذا بها تحاصره بعنف العمل باسم الدين ، وما كان الدين ولن يكون عنفاً .

يظل السادات فى تاريخ وطنه . .

إنه حرره من الخوف . .

وحرره من مهانة الاحتلال مرتين . .

مرة بالحرب ، ومرة بالسلام . .

يظل للسادات فى تاريخ وطنه . . أنه لم يكتف بأنه أعطاه شبابه ، بل أعطاه عمره ، إنه لم يكتف بأنه أعطاه مجد انتصاره بالحرب ، وإنما عززه بمجد انتصاره بالسلام .

إنه السادات ملك شجاعته ، حين تجاوز رؤية محدودة بحدود عمره ، ليتطلع لأجيال من بعده من حقها أن تعيش السلام وتنعم بظله .

ومع ذلك فلقد سقط السادات بالعنف باسم الدين ، فماذا بقى للدين بعده . . ؟

● ● ●

بقى للدين سماحته فهى جوهره . .

بقى للدين دوره تعايشاً مع كل دين وفى ظل وحدة المواطنة . .

بقى للدين مجده ، وسقط العنف وحده . . ولسوف يسقط العنف أبداً ، مادام الإسلام فى الأرض ، دعوة سلام ودين سلام ووحدة ومحبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٩) »

« صدق الله العظيم »

النهج الإسلامى كيف؟

الفصل الرابع

المثل والأمثولة

صحوة أم كبوة

الفصل الرابع

المثل والأمثولة صحوة أم كبوة

لعل المفاجأة فى الحوار كانت فى نوعية الحوار نفسه ، لا من حيث موضوعه ، فلقد اعتدت منه ، واعتاد معى أن يكون الحوار سياحة فى بحار القضايا لا نتخير منها إلا ما تقودنا إليه أشرعة المناسبة .

المفاجأة فى الحوار كانت فى حدته . .

حدة لم يتعودها منى ، لا رحابة صدر أدعيها ولا قدرة على الصبر أتميز بها ، ولكن وفى المقام الأول اننى أعرف أنه كاتب وصحفى يبحث عن الخبر لا بثقل إيقاعه وإنما بتحليل أبعاده .

ثم هى حدة لم أتعودها منه ، لا إدعاء لمكانة لى تعصمنى من حدة تواجهنى مادامت هى الحق أو تستهدفه ، ولكنه أولا كإنسان يتميز بما هو مشهود له بأنه لا يضيق بما يسمع ، وثانياً ككاتب وصحفى لا تتعدى مسئوليته بالنسبة لأى حوار أمانة النقل .

ذلك لا يعنى أنه لا يملك قناعات يستهدى بها ذلك حقه بل ذلك من خصائصه ككاتب قومى تتعدى انتماءاته حدود وطنه ، إلى قضايا أمته ، إلا أنها قناعات لا تلزمه فى الحوار توجيهاً له ، وهى بالطبع لا تلزم من يحاوره مكانها حين يكتب ، هناك له حق التعقيب والتعليق والهجوم أيضاً .

ثم إنه فوق ذلك صديق ، صداقته للسودان ومعرفته به سابقة على صداقة تربطنا ومعرفة كلانا بالآخر . ولقد اعتدت منه بل وأرحب دائماً ، أن يناقش قضايا البيت السودانى من الداخل كأنه بيته ، واعتاد منى أن أوافقه أحياناً وأخالفه أحياناً أخرى ، دون أن أقول له يوماً أن أهل مكة أدرى بشعابها .

هو أيضاً أدرى بشعاب السودان ، بعض شعاب السودان ، زاوية للرؤية حددت نظرته ، وهى فى يقينى زاوية الوفاء الشخصى وحقوق الصداقة كما يؤمن بها هو وكما أقره عليها واحترمها فيه .

هو على الدوام هو ..

صديق تربطنا أوثق الصلات ، وصديق لمن يعارضنى تربطه به أوثق الصلات ، ومع ذلك فلم أر فى ذلك الموقف أى تعارض ، رغم أن الموازنة كانت تشق عليه أحياناً ، خاصة أنه كصاحب قلم كان مكلفاً بحكم المهنة أن يتابعنى كقيادة لدولة عربية أفريقية لها وزنها ، كما أنه كصاحب قلم أيضاً ، كان مطالباً أن يرعى صداقته مجاملة شخصية ، أو اجتهاداً مهنياً ، فلقد كان صاحبه نشطاً وما زال ، معارضاً ، ثم مصالحاً ، ثم معارضاً حسب الظروف والأحوال .

نعود للحوار حدته ..

ولكننى شيعى .. يقولها فى حدة .

فأقول له بحدة مماثلة ..

ولو . .

يسود الصمت بيننا لحظة ، ينتبه هو قبلى ، يسألنى تقصدها لبنانية أم هى مصرية سودانية .

نتخفف من الحدة هو وأنا فى وقت واحد ، كنتيجة لما اعترض الحوار بسؤال لم أفهمه ، أو لم أفهم قصده منه .

أسأله . .

من هى اللبنانية أو المصرية السودانية التى تقصدها ؟

يقول . .

« ولو » تلك التى ذكرتها توا . .

أقول . .

أقصدها كما نطقتها وكما أفهمها . .

يضحك للمرة الأولى منذ بداية حوارنا الساخن ، فالمفارقة كانت بالفعل تبعث على الابتسام .

(ولو) لبنانياً ، تعنى الموافقة مؤكدة مع الترحيب بما يطرح قولا أو طلباً .

بينما هى مصرياً وسودانياً ، لها المعنى المخالف مقترنة بحدة فى المخالفة تكاد تصل إلى حد التحدى .

وقفة المفارقة فى المعنى لم توقف الحوار بل اتصل بعدها ، وإن تسربت معها رنة كالغضب سادت الحوار بيننا لبعض الوقت .

موضوع الحوار ، كان حول ما كان يجرى فى إيران بعد عودة الخومينى إلى طهران قادماً من منفاه قرب باريس .

كان الصديق الكاتب الصحفى يرى فيما حدث بوادر صحوة إسلامية كبرى ، تكاد تكون ، لولا قداسة الأصل ، أقرب إلى فتح مكة ، هى على الأقل لا تقل عن نتائج اليرموك والقادسية ، تلك المعارك التى انتصر فيها الإسلام فى العراق على فارس ، ثم انتصر فيها الإسلام فى فارس على فارس ، بانهيار الإمبراطورية الفارسية .

كنت أرى أن ما حدث لا يمكن قياسه ببعده الدينى وأثره الدينى فى التو واللحظة ، وأن بوادره تؤكد لى رؤية أرى فيها أن ما يجرى فى إيران هو كبوة إسلامية ، وليس صحوة إسلامية بأى حال من الأحوال .

أقول له . .

إن ما حدث حتى الآن وما يمكن أن يحدث بعد الآن إذا سارت الأمور على ما هى عليه ، لن يكون للاسلام وإنما سيكون على حسابه ، سندى فيما أقول وتعليلى له على النحو التالى :

أولا : إن ما يجرى فى إيران محسوب على إعادة حسابات لمراكز القوة العالمية فى هذا الجزء من العالم ، حساباتها هى ، والتى لا يدخل الإسلام ولا أى دين آخر فى تقديراتها ، إلا باعتباره وسيلة لتحقيق غايتها .

ثانياً : إنه من هذه الزاوية يمكن النظر إلى ما يجرى فى إيران باعتباره نتاجاً لسباق بين القوى العظمى ، إحداهما تقدمت على الأخرى بمقدار

رأس فرس ، فكان الخوميني بكل ما يمثله وبكل ما يوحى به ، ولو كان التقدم من نصيب القوة الأخرى ، لرأينا فى سماء إيران رايات ترفرف وقد خلت من رموز الإمبراطورية ، ليحل محلها المطرقة والمنجل ذلك أن حزب توده الشيوعى كان سيكون هو السلطة .

ثالثاً : إن الأزمة الأفغانية فرضت نفسها على مسار الأحداث فى إيران وهى ماضية فى فرز المزيد من النتائج لا فى إيران ولا فى منطقة الشرق الأوسط فحسب ، وإنما فى أماكن أخرى من العالم ، فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

فعندما يتمدد الاتحاد السوفييتى من حدود كيانه الجغرافى إلى هذا الجزء من آسيا ، فإنه لن يقنع به أبداً ، هو توسيع لقاعدة انطلاقه منها لسواها وعلى القرب منها . وماذا أقرب من أفغانستان غير إيران فى هذه المرحلة ؟ خاصة والاتحاد السوفييتى يملك فى إيران أوراقاً مضمونة منها حزب تودة الشيوعى الذى توازت صلابة تنظيمه مع قوة القهر الإمبراطورى المدعوم بمال هو كل نفط إيران ، وجهاز مخابرات خرافى السمعة هو السافاك ، وجيش تعزز ولاؤه للعرش بمصاهرته للعرش عن طريق كبار ضباطه ، كما تعزز ولاؤه للعرش بطبيعة الانتماء الطبقى لكل قياداته ، ثم تعزز أيضاً ولاؤه للعرش بتاريخه مع العرش ، يوم كان أداته فى ضرب ثورة مصدق سنة ١٩٥١ م .

حزب هذا حجم صلابة مقاومته ، بدليل استمرار وجوده ، لا يمكن إلا أن يكون ورقة الربح المضمونة للاتحاد السوفييتى فى إيران .

رابعاً : إن الشاه ووفق حسابات توازن القوى ، قد أخطأ الحساب تقديراً لإمكانيات قوته ، تلك التى تختل بقوة عند مقارنة حجم إيران بحجم الاتحاد السوفييتى جاره الخطر .

حسب أن الأمر سلاحاً فكدس السلاح ، لا المال يعوزه ولا مصادر التسليح تخذله ، فما دام يدفع فهى تبيع ، وما دام راغباً فى الشراء فلتتصل الصفقات ، إلا أن الشاه أدرك مؤخراً أن السلاح فى موازنات القوة ليس عامل الحسم الوحيد ، هناك فارق الكثافة السكانية ، هناك العمق الاستراتيجى وهو الفارق النوعى والكمى فى مساحات البلدين ، ثم إن هناك نوعية السلاح نفسه ، ما تيسر له بماله هو سلاح تقليدى مهما كانت درجة تطوره ، ما يملكه الاتحاد السوفييتى سلاح نووى تعددت درجات تأثيره بقدر تعدد وسائل حمله ونقله وتوجيهه ، من صواريخ إلى مركبات فضائية إلى قواعد إطلاق فوق الماء على ظهر السفن ، أو تحت الماء فى الغواصات ، ومع ذلك فما استطاع الشاه أن يوقف فى نفسه شهوة امتلاك وسائل القوة بصرف النظر عن فاعليتها فى مواجهة الخطر الذى يلامسه ، ظل على حاله يمتلكها ، يضيف إليها تراكماً فى الكم ، وتنوعاً فى الكيف .

ولأن امتلاك وسائل القوة يغرى باستعمال القوة فى أى اتجاه ، فلقد لعب الشاه دورا متوازياً مع دور إسرائيل فى المنطقة ، دورا يهدد بالتوسع على حساب جيرانه إذا استطاع ، دوراً يمارس إرهاباً لجيرانه على أقل تقدير .

وهكذا توازى إن لم يكن تماثل دور شاه إيران مع دور إسرائيل لبعض الوقت .

إسرائيل بإمكانيات التوسع ، ثم بممارسة التوسع فى الكيانات العربية المجاورة أضافت ، وأرهبت سوريا ومصر والأردن سنة ١٩٦٧ ، والشاه فى الخليج حيث أضفى على الخليج هويته الفارسية بدلا من واقعه العربى ، ثم هو قفزاً فاستيلاء على جزر عربية فى الخليج أيضاً ، طنب الكبرى ، وطنب الصغرى وأبو موسى ، إضافة إلى أنه استطاع أن يشل بالفعل

قدرات العراق على النمو العسكرى والاقتصادى بدعمه لحركة الانفصال الكردية فى العراق .

خامساً : إن التوازى ولا نقول التماثل فى الدورين ، إسرائيل وإيران الشاه ، كان قد سمح لبعض الوقت بزراعة الصبر فى أعصاب إسرائيل المشدودة ، والتى لا تطيق فى المنطقة قوة تماثلها ، إلا أن بذور الصبر كانت قد توقفت عن النمو يوم فشل الخطر الإيرانى فى شل قدرة العراق على المساهمة الفعالة فى حرب أكتوبر على الجبهة السورية ، والأخطر أن التحرك العراقى كان قد قطع المسافة من بغداد إلى دمشق فى الفضاء الواسع وعلى جنازير الدبابات ، ولم يصادف على طول الطريق ما يوقفه فضلا عما يهدده ، وكان ذلك دوراً محسوباً لإيران الشاه وإمكانيات القـــوة المتوفرة له ، ثم بات الفشل خطراً يوم وقعت اتفاقية الجزائر بين إيران والعراق سنة ١٩٧٥ .

هنا أدركت إسرائيل أن موازين القوة فى المنطقة من الممكن أن تختل بصورة تنذر بالدمار ، فحين لا تصبح قوة إيران لإسرائيل ، فإنها ستكون على إسرائيل آجلا أو عاجلا ، فمع زوال التوتر الإيرانى العربى فى نقاط تماسه فى الخليج والعراق يصبح التعاطف الإسلامى وارداً ، وهو مدخل للتضامن ثم التحالف الإسلامى ، خاصة أن فكرة الرابطة القومية كانت قد اهتزت بنكسة سنة ١٩٦٧ ، ثم ترنحت برحيل عبد الناصر سنة ١٩٧٠ ، بعد أن تخلخلت بقيام الكيان الماركسى فى عدن قبل ذلك بحوالى العامين ، إضافة إلى أن السعودية كقيادة إسلامية كانت قد ازدهر دورها فى المنطقة كنتيجة لدورها فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وهو دور له أثره قبل وأثناء المعركة ، ثم تزايد تأثيره بعد الحرب من خلال تقاربها الشديد مع مصر أو تقارب مصر الوثيق معها .

إسرائيل كانت ترى فى هذه المتغيرات نذر الخطر لا من إمكانيات تزايد القوة الإيرانية ، بل كانت ترى أن الخطر كل الخطر فى احتفاظ إيران بما تملكه من إمكانيات القوة ، فهى قوة ضدها مع ازدهار المشاعر الإسلامية فيها ، وهى قوة ضدها ما لم تكن موظفة فى صراع إيران العرقى والثقافى مع جيرانها العرب فى الخليج والعراق على وجه الخصوص .

سادساً : إن الشاه فى السنوات الأخيرة من حكمه ، كان قد حاول أن يتجاوز الواقع الاقتصادى والاجتماعى فى بلاده لا عن طريق التطور ، وإنما عن طريق الطفرة والتى كان يملك ثمنها نقداً سائلا بغير عوائق . . كانت ثورته البيضاء كما أسماها ، طفرة فى التصنيع توسعت بها قاعدة العمالة فى غير مساراتها التقليدية والتى كانت سائدة فى إيران لقرون طويلة ، جهد يوظف طاقاته فى مناجم الصبر فيعتصر عائده قطرة فقطرة ، زراعة ورعى فى الغالب الأعم . . .

وفجأة ، جاء العائد من العمل الصناعى وفى مجالات الخدمات ، بما هو ثابت دائم ومستقر ، ثم هو احتكاك بالحديث ، ثم هو بلورة لطبقة لم تعرفها إيران أبداً إلا فى صفحات الكتب ، طبقة توسطت الثراء الفاحش ، والفقر المدقع فتطلعت ، ولأنه تطلع لا تملك إمكانيات تحقيقه ، فلقد كان ذلك مدخلا للحقد الطبقى خاصة أن الشاه وفى نفس الفترة ، كان يحاول إعادة تاريخ من اعتقد أنهم أجداده ، أباطرة زمان ما قبل الإسلام ، فكان البذخ الذى لا يصدق احتفالا بذكراهم ، ولأن النار كانت قد أوقدت سلفاً بنشوء هذه الطبقة ، فإن زيوت التطلع المقموع قد زادتها اشتعالا ، بالإضافة إلى أن البذخ المروع كان قد زادها ضراماً ، إضافة إلى أن حزب توده الشيوعى كان عند الباب يتغذى بالنار فتتسع قاعدته .

سابعاً : إن كل ما سبق وهو عوامل معقدة يصعب الربط بينها كما أقر وأعترف ، إلا أنه فى عهد الكمبيوتر ، ما الذى يستعصى على التحليل والربط والمقارنة واستخلاص النتائج . . نتائج فى إطار كل ما سلف يمكن أن تستوعبها المعادلة التالية :

« الاتحاد السوفييتى زاحفاً إلى إيران بوجوده فى أفغانستان متداخلا معها ، الاتحاد السوفييتى متواجداً فى إيران بتنظيم ماركسى تتسع قواعده كل يوم فيها ، إيران القوة لم تعد هى إيران القدرة فى تقدير إسرائيل وحلفائها ، لم تعد قدرة ترهيب لأعداء إسرائيل فى المنطقة بقدر ما أصبحت إمكانية إخلال لموازين القوة فى المنطقة ، على حساب إسرائيل وليس لحسابها » .

معادلة هذا شأنها ، ماذا يكون شأنها فى حسابات قوى التأثير العالمية ، ثم قوى التأثير فى المنطقة ، وهى هنا إسرائيل ؟

شأنها هو غايتها ، أن تحاول بضربة واحدة أن تعيد الأمور لنصابها فى إيران وبإيران فى المنطقة .

* أن تعود إيران بحجم قوتها إلى حجم قدرتها ، لا يختل التوازن العسكرى بها على حساب إسرائيل .
* ألا تكون إيران حتى بزخمها البشرى إضافة إلى قدرة جيرانها العرب ، وإنما تكون بهذا الزخم عبئاً عليهم .
* أن يتراجع الاتحاد السوفييتى عن إيران ليستقر لبعض الوقت فى أفغانستان . . خطوة لعل إيران الجديدة تستطيع بالتأثير أن تؤثر بعدها ، بل أن تؤثر فيما بعدها ، داخل حدود الاتحاد السوفييتى وفى جمهورياته الإسلامية على الطرف الآخر من حدوده مع إيران وأفغانستان .

ثامناً : إن الطريق لتحقيق هذه الغايات قد عبرته اجتهادات كثيرة :

* * منها ما يتعلق بالرئيس كارتر ونزعته المثالية وصوفيته المسيحية إن صح التعبير ، تلك التي أوحت إليه أن يعيد ويزيد في قضية حقوق الإنسان في العالم كله ، مع تركيز خاص على إيران .

* * ومنها ما يتعلق بالرئيس كارتر أيضاً لأن المثالية والمسيحية كلاهما ستار وراء هدف سياسي يتعلق بإيران . . أن يوظف الرأي العلني للولايات المتحدة في قضايا حقوق الإنسان في إيران ، كدليل على نهاية الحماية الأمريكية لشاه إيران ونظامه .

* * ومنها أن الأحداث التي شهدتها شوارع إيران وغيرها من مدن إيران من مظاهرات واضطرابات واسعة النطاق ، إنما كانت في حماية النسر الأمريكي ، دليل من يقولون بهذا أن وسائل القمع المتاحة للشاه وهي الجيش والسافاك كانت شبه مشلولة رغم قوتها ، وعندما تغيب القدرة مع وجود القوة فإن الأمر يكون أمر تعطيل إرادة ، من الذي يملك تعطيل مثل تلك الإرادة ، هناك من يقول إن الإجابة كانت دائماً في البيت الأبيض في عهد الرئيس جيمي كارتر .

ثم إضافة للاضافة ، فإنه بات ثابتاً أن السفير الأمريكي في طهران كان قد نصح الشاه بمغادرة إيران في إجازة لبعض الوقت حتى تمر الأزمة ، إلا أن المثير في مثل هذه النصيحة أنها لم تكن من فم السفير إلى أذن الشاه وحده ، وإنما تناقلتها وكالات أنبـــاء ملأت الدنيا بها ضجيجاً ، بل وأيدها مسئولون في الحكومة الأمريكية علناً .

تاسعاً : لقد كان من مخاطر هذه اللعبة ، لو صح التحليل ، أن التنظيم المنظم وهو حزب توده الشيوعى كان من الممكن أن يلتقط الثمرة الناضجة ، إلا أن ذلك لم يحدث ، التقطها غيره ، الإمام الخومينى كما تواضع الناس على تسميته ، روح الله الخمينى كما أسمى نفسه بعد ذلك .

التقطها فى إطار سيناريو سينمائى بديع .. يغادر الشاه مطار طهران والدموع فى عينيه لا تشيع حتى الشفقة على مصيره ، وذلك أنها اقترنت بصورة بشعة لأحد ضباطه منحنياً عند أقدامه ، جاثياً راكعاً بين يديه .

صورة قد يكون الأصل فيها مشاعر وفاء أو ولاء تعدت حدودها المقبولة ، إلا أن نشرها وانتشارها كان مقصوداً لتحطيم أية مشاعر تجاه الشاه المخلوع حتى مشاعر الشفقة ، فحين يتحول الولاء إلى عبودية ، فإننا نكون إزاء نظام رق وليس نظام حكم ولو اعتلى عرش الطاووس .

خرج الشاه بهذه الصورة ، ليدخل الخومينى بصورة مغايرة تماماً . . . ما مهد للعودة « النابليونية » للخومينى من لحظة مغادرته مطار باريس إلى لحظة وصوله إلى مدينة قم مرورا بطهران طبعاً ، لا يمكن أن يتكرر بتفاصيله ، بل ولا يمكن أن يتكرر حتى بملامحه .

الكل استوعب الدرس وحفظه ووعاه ..

عاشراً : لقد كان واضحاً من الإعداد والتنظيم والتعبئة لعودة الإمام الظافر ، والذى كان غائباً بالمعنى الفعلى لا بالمفهوم الشيعى ، كان أطرافه ثلاثة .. حزب توده الشيوعى ، وتنظيمات على يساره ويمينه ، ومنها مجاهدى خلق ، وأئمة المساجد الذين كان صوتهم يعلو مع كل دقة من دقات النهاية لعرش الشاه ، حتى أصبح دوياً والإمام الغائب على وشك الحضور ..

ثم كان المشهد الأخير هو المشهد المثير حقاً ، اكتملت به الصورة وتحدد به الإطار ، وتبلور النموذج الذى أريد له أن يسود .

المشهد الأخير كان آية الله الخومينى نفسه ، روح الله فيما بعد ، كما يطلق على نفسه أو يطلقه عليه أنصاره ، كان بلحيته وبريق عينيه ، بتراث طائفى أحيط به، إضافة إلى أن الصحافة الغربية ووكالات أنبائها ومحطات تلفزيوناتها كانت قبل عودته بل وقبل مغادرة الشاه إيران ، قد ركزت بكل قواها عليه باعتباره البديل حيث لا بديل غيره . . ركزت عليه بما يكاد يكون رصداً حتى لأنفاسه وهو فى منفاه الأنيق فى إحدى ضواحى باريس . . ركزت عليه فأعدت به المسرح وهيــأت النظارة وشحذت الطاقات ، بل تكاد تكون كأنها أملت هتافات الحناجر وشعارات الاستقبال .

وعندما يكون الكل تهيؤاً وانتظاراً وشوقاً لوصول البطل فما الذى يضيفه البطل حين يظهر إلى حماس أعد سلفاً ، وقناعة غرست مسبقاً ، ويقين بأنه وحده هو البديل ؟

حادى عشر : وصل الخومينى إلى طهران وبعدها استقر الخمينى فى مدينة قم وقد أصبح روح الله فأين سلطة كهذه من سلطة موروثة حتى ولو كان على تحتها عرش الطاووس ؟

محمد رضا بهلوى كان فى البداية والنهاية بشراً لم يدع يوماً أنه آية الله ولم يجرؤ حتى بجموح خياله أن يدعى أنه روح الله ، سلطة تفوق سلطان البشر لأنها ادعاء موصول بإرادة تعلوها ، وهو اتصال لم يدعه حتى الأنبياء والرسل بما فيهم خليل الله وهو إبراهيم ، وكليم الله وهو موسى ، ومعجزة الله وهو عيسى ، ورسول الله وهو محمد . لم يكن فيهم من قال بأنه روح الله . هو بشر ، عاش ومات كالسابقين قبله واللاحقين بعده .

ثانى عشر : لقد كان السلطان الحديد قاهراً ، ثم كان السلطان الحديد طاغياً ، من حاول استخدامه جرى استخدامه لصالح السيد الحديد ، حتى الشيوعيين رغم التحالف الموقوت والتحالف طويل الأجل . .

مجاهدى خلق ضربوا ، حزب توده اندحر ، تيارات الوسط سرعان ما ابتلعها التيار الغالب .

ثالث عشر : أسابيع وتكشف لكل طرف شارك فى إعداد المسرح وهيأ لرفع الستار ، أنه خاسر خاسر فيما عدا إسرائيل .

الاتحاد السوفييتى لم يفقد أمل وجوده فى إيران فحسب بل فقد كل ما كان يمكن أن يكون نفوذه ممثلا فى تنظيمات اليسار ، من حزب توده إلى مجاهدى خلق ، إلى تيارات الوسط التى كانت تدعو للتوازن .

الولايات المتحدة ، طاردها الابتزاز الخومينى بصورة منهكة .

طاردها للحد الذى كان فيه كارتر الداعية لحقوق الإنسان ، مضطراً إلى إهدار حقوق إنسان واحد هو الشاه ، مع أنه لم يطلب منه سوى الملجأ والعلاج .

طاردها إلى الحد الذى أصبحت فيه الولايات المتحدة بكل قوتها أسيرته ورهينته وملك يمينه ، فلم يكن الرهائن فى مقر السفارة الأمريكية سوى الإرادة الأمريكية نفسها ، للحد الذى توسلت فيه إليه بكل من علا صوته متحدثاً باسم الإسلام .

من هنا فى السودان اتصلوا بالبعض ، فى غير السودان اتصلوا بالجميع ، ثم حين فاض الكيل كانت مغامرة الفشل مغامرة مستحيلة ، عملية عسكرية انطلقت من مطار قنا فى جنوب مصر لتندثر فى رمال الصحراء الإيرانية .

ولقد ظل الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر معلق الأنفاس ، راهناً مستقبله ، وهو يتابع بالقلق وساطة جزائرية نجحت بالكاد فى الدقيقة السابقة على الساعة الفاصلة فى انتخابات الرئاسة الأمريكية .

وحين وصلت طلائع الرهائن فى مطار فرانكفورت فى ألمانيا الغربية ، كان مصير الانتخابات قد تم حسمه .

رابع عشر : من الذى بقى من أطراف اللعبة ؟ بقيت إسرائيل . ماذا حقق لها النظام الجديد فى إيران . . ؟

حقق لها ما كانت تحلم به ، وما لم تكن تحلم به . . . حطم القوة العسكرية الإيرانية ، كاحتياطى محتمل لأى جهاد إسلامى يعلن ضد إسرائيل ، تحولت الثورة الإيرانية ، أو الصحوة الإسلامية أو سمها كما تشاء ، من نموذج للتبشير فيما حولها ، إلى مصدر ترويع لما حولها . . .

انكمش الخليج للدرجة التى أصبح فيها أمنه الإقليمى ، سابقاً على أى إسهامات يقدمها أو كان يمكن أن يقدمها للأمن القومى فى المنطقة العربية وضد إسرائيل .

تراجع العراق من دور احتياطى القدرة فى الجبهة الشرقية المواجهة لإسرائيل ، إلى ما لا يخطر على بال أحد . . بدلا من أن يكون سنداً لسوريا وظهيراً للأردن فإذا بالأردن وحدها تسانده ، وإذا بسوريا خصم له ، حليفة لإيران عليه ، شريكة لإيران فى العدوان على أرضه .

العدوان نعم . . فالقتال هو محاولة قهر الإرادة بالقوة فحسب ، والعدوان هو محاولة لقهر الإرادة بانتقاص مقدرات الدفاع عن النفس .

وحينما تمنع سوريا ضخ بترول العراق عبر أراضيها إلى البحر ، فإنها لا تكون حليفة للعدوان الإيرانى على العراق فقط ، بل هى شريكة فى العدوان بأفدح سلاح .

خامس عشر : ليس هناك من يحاول إنكار أن التدمير الإسرائيلى للمفاعل الذرى العراقى قرب بغداد إنما تم فى إطار مظلة رئيسية هى عدوان إيران على العراق ، ثم مظلة سورية فرعية هى عداوة سوريا المتحالفة مع إيران ضد العراق ، وعندما تعتقد إسرائيل بأن مفاعل بغداد الذرى خطر عليها ، فإنها ومن ساعدها على تدميره تجمعهم وحدة هدف استراتيجية دائمة ، وليست تكتيكية موقوتة .

سادس عشر : إنه قد يتفق البعض وقد يختلف مع الرئيس العراقى صدام حسين حول مسئوليته عن طلقة البداية فى الحرب العراقية الإيرانية ، البعض يحملونه المسئولية سلباً ، فإنه إذا لم يبدأ لساعد عوامل الانهيار الداخلى فى إيران على أن تمارس فاعليتها فى إنهاء نظام الخومينى .

والبعض يحمله المسئولية إيجاباً ، بأنه حين بدأ فقد أعطى لنظام الخومينى مشروعية الدفاع عن النفس ، داخل الأرض الإيرانية وخارجها . . إلا أن ذلك بشقيه ليس صحيحاً فى تفاصيله أو إطلاقه .

ما واجهه صدام حسين لم يكن مجرد نظام طامع فى الخليج مياهه وكيانه ، امتداداً لسياسات سلطة الشاه القديمة . كان الأمر فى تقديره وهو تقدير صحيح أخطر وأفدح .

كان ما قبل الحرب حرباً ، بدأتها إيران وأعلنتها إيران ، كانت حرباً بالعراق ضد العراق نفسه ، كيانه ووحدته الوطنية .

إحياء للفتن القديمة مع اختلاف المواقع ، شيعة ضد سنة ، أكراد ضد عرب ، وهنا يتعدى الخطر العراق إلى كل الكيانات العربية على امتداد الوطن العربى من محيطه إلى خليجه .

فليس هناك كيان عربى وفى أى دولة عربية بخلاف مصر يعيش فيه التجانس الدينى بمدلوله العقائدى أو مدلوله الطائفى ، وليس هناك كيان عربى فى أى دولة عربية باستثناء مصر لا تتعدد فيه العروق والثقافات ، ومع ذلك فقد تجمع الكل فى إطار الهوية العربية ، ثقافة وحضارة وتوجهاً .

ما تعرض له العراق قبل إعلانه للحرب على إيران ومن إيران كان خطرا يهدد الداخل من الداخل ، لا فى العراق وحده ، وإنما كما قلت فى كل دول العرب دون استثناء لمصر من المحيط إلى الخليج .

كانت الحرب دفاعاً وقائياً كما أراده العراق ، وكان الرد الإيرانى تأكيداً لما ذهب إليه العراق كذلك .

سابع عشر : إن النموذج الإيرانى الذى أراد له الخومينى أن يسود فى المنطقة ، هو ذاته ما تطمح له إسرائيل ، بل وما تعمل من أجله إسرائيل بل وما نجحت فى تحقيقه ولو جزئياً إسرائيل فى لبنان .

كيانات الطوائف ، كيانات العروق ، كيانات التعصب الدينى ، كيانات تماثل إسرائيل شكلا ، تساند إسرائيل موضوعاً ، بالتحالف معها ، أو التفرق حولها .

ثامن عشر : لقد أوغل العراق فى أرض إيران بما رأى أنه يكفيه ردعاً للهجمة الفارسية ثم عاد إلى أرضه .

عاد يطلب السلام والحوار والمصالحة ، فكان رد إيران بالهجوم على العراق فى أرضه ، وداخل كيانه ، بما يهدد وحدة أراضيه ، وبما يهدد فعلا مصادر قوته الاقتصادية والعسكرية ، والتى هى ليست للعراق منفرداً فى أمته العربية ، وإنما هى بالعراق لأمته العربية .

تاسع عشر : إنه يبقى بعد هذه السياحة الطويلة فى محاولة تحليل الظاهرة الإيرانية سؤال ، هل ما حدث فى إيران صحوة بالإسلام ، أم هى كبوة للإسلام ؟ فلندع الظواهر تحكم . . .

هل شنق الأطفال من الإسلام فى شيء . . . ؟

هل تجنيد الأطفال للحرب من الإسلام فى شيء ؟

هل تألية الحاكم من الإسلام فى شيء ؟

هل عصمة الحاكم من الإسلام فى شيء ؟

هل الترويع باسم الإسلام إسلاماً . . ؟ وهل الإرهاب باسم الإسلام إسلاماً . . ؟

ثم فلننظر إلى خريطة العالم من حولنا . . . إسهامات ابن رشد والفارابى وابن سينا وجابر بن حيان والخوارزمى وغيرهم من رموز الحضارة الإسلامية ، تلك التى استقى منها الغرب والشرق علماً وحضارة ، أين منها من عيون تبرق ، وحناجر تلمع ، ولحى تطلق ، وأشباح نساء ، وجثث أطفال ، وبقايا أنقاض ، ودماء أبرياء ؟ جرائم ترتكب باسم الإسلام البرئ منها ....

صحوة أم كبوة . . ؟

ذلك سؤال مطروح بكل ما تقدم . . ثم هو مطروح بنتائجه أيضاً ، نتائجه ، ونحن نعيش عالماً لا يقبل الإرهاب ولن يقبله ، بل لن يقبله شعب إيران طويلا حتى يأتى يوم تتفاعل فيه ضغوط الخارج مع تفاعلات الداخل فينهار نظام الإرهاب الخوميني ، والمؤسف أنه سيحسب عليه ما هو ليس فيه ، ذلك أنه ادعى الإسلام وما كان الإسلام إلا سلاماً .

ينتهى الحوار وتمر شهور فإذا بالصحفى الصديق بالصدق قناعة ، أدرك ربما بالحوار ، وربما بنتاج لتجربته ، إن ما يجرى فى إيران وما يصدر عن إيران لا يمكن أن يخدم توجهه القومى ، ولا قناعته بأن الأمة العربية لا تحتمل أن تواجه أكثر من عدو فى وقت واحد ، عدو يعادى وجودها هو إسرائيل ، وعدو يعمل على تدمير كيانها وهو إيران .

يبقى للسودان موقف . .

ثم يبقى للسودان نموذج . .

حينما يطرح الرئيس صدام حسين فى قمة فاس الثانية قضية التضامن القومى فى مواجهة العدو الإيرانى على الوطن العراقى ، مطالباً بتنفيذ اتفاقيات الدفاع المشترك العربى ، فلقد قال الجميع نعم ، مع تحفظ واحد لسوريا . . ولقد قال السودان نعم مع غيره .

ثم أصبح من السودان قوات تدافع عن أرض العراق مع جيش العراق وشعب العراق ، إضافة إلى متطوعين من السودان ، كل السودان ، وخاصة جنوبه . . وجنوب السودان كما يعلم الجميع ليس عربى العرق ولا حتى عربى الثقافة ، الإسلام ليس غالباً فيه ، الزنجية سائدة ، والمسيحية

للبعض من سكانه عقيدة ، وهكذا شارك السودان بكل كيانه القومى فى معركة قومية ، ليس دفاعاً عن الوحدة الوطنية فى العراق وحده ، وإنما دفاعاً عن الوحدة الوطنية فى كل قطر عربى ، وخاصة فى السودان .

كيف فى السودان . . ؟

أقول نعم فى السودان ، فحينما تنجح الهجمة العرقيـــة أو الطائفية أو الثقافية فى فرض كيانات التمزق ، فإن نموذجها البشع سوف يصبح كالوباء ، لا توقف انتشاره الحدود ولو أقمنا عليها سدوداً .

السودان فى العراق لا يدافع عن وحدة العراق وحده ، بل يدافع عن وحدته هو ، ثم هو يدافع عن الإسلام سلاماً ، صحوة لا كبوة ، بشيراً وليس نذيراً ، إطاراً يتعايش التنوع فى ظله ، ولا يتفرق الناس به .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾»

« صدق الله العظيم »

المنهج الإسلامي كيف؟

الفصل الخامس

الإسلام والعصر

الإسلام والعصر

ما كان الإسلام دين بدايات تتصل بعده الرسالات والرسل ، بل هو خاتمة رسالات امتنعت بعده الرسالات والرسل ، إلا أن الزمن مع الإسلام متصل ، والحياة فى رحاب الإسلام تكتسب معنى الحياة لأنها حركة الزمان تتنوع به وتتغير .

ولأنها كذلك ، فلقد كان الإسلام نصاً ونهجاً بغير تناقض ، نصاً ملزماً فيما يخص العقيدة ، إيماناً بإله واحد لاشريك له ولا شبيه فهو أحد صمد ، ثم ما يتصل بالعقيدة من شعائر ومناسك ، ما دون ذلك كان نهجاً رحباً لحركة التغيير لم يقف بالجمود عند السوابق ، بل كان حركة للتغيير أكدتها السوابق ، فما كانت أولى آيات كتاب الإسلام إلا داعية للعلم والفكر والتأمل ثم ما كانت آيات الكتاب إلا نهجاً للتغيير والتطوير والتقدم ، آيات تنسخ ، وآيات تنسى وأحكام ترفع ، وسوابق لاتضع النص إلا بموضعه وفى موضعه ،

ظروف زمان ، وظروف مكان ، حتى ما يتصل منها بمسار الدعوة تدرجاً فى الدعوة ذاتها .

** فهى أولا للأقربين وذوى القربى .

** ثم هى بعد ذلك لأم القرى وما حولها .

** ثم هى بعد ذلك للعرب عامة .

** ثم هى بعد ذلك للعالمين كافة .

وإذا جاز لنا أن نطرح الإسلام بمفهوم عصر نعيشه لكان بكل المقاييس ثورة تدعو للتمرد على الجمود تشبثاً بنواميس السلف وتراث الأجداد والآباء، بل أن الإسلام ماصادم فى الجاهلية إلا جمود الزمن فى وجدان الناس حيث حاضرهم ماضيهم ، وحيث سوابقهم مستقبلهم . وحيث ما كان قبلهم قيد على ما بعدهم لو استمر طغيان الجهالة .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ »

سورة البقرة : ١٧٠

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ »

سورة المائدة : ١٠٤

« وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) »

سورة الأعراف : ٢٨

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) »

سورة الشعراء : ٦٩ — ٧٤

وإذا كانت كريم من الآيات سلفت تتجه بمعناها إلى السلف والآباء بالمعنى المطلق موغلا فى الزمن البعيد ، فإن الكتاب لم يغفل المعنى المباشر للزمن المباشر حينما يتصادم النهج مع المنهج بين أجيال لايفصلها الزمن بل تعيش نفس الزمن ، بل تتصل بذات المكان بالقرب الوثيق ، وكيف لا يكون القرب قرباً وهو صلة ولد بوالده ، تتصل بينهم روابط لاتنفصم رغم فكر يتصارع وتوجه يتصادم بفوارق فى الزمن يسيرة ، تجمد الوالد بها ، وتمرد المولود عليها ، فإذا الآيات تدعو إلى اتصال الصلة مودة ورحمة ، مع امتناع الطاعة ، لما يخالف الفطرة والعقل والجديد أتى به الزمن الجديد .

« ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ »

« صدق الله العظيم »

سورة الاسراء : ٢٣ ــ ٢٧

بل إنه الإسلام لا يجعل من الدين سطوة إلا بالحق وللحق فى منحاة مع قيم الحياة بما يقدمها ، فضرب المثل بسطوة باسم الدين مرفوضة إذا ما خرجت على الدين نهجه عقيدة ومساراً بالحياة نحو التقدم ، ثم ضرب المثل بالدين واجبة طاعته مادام مع قيم الحياة وتقدمها ، ولعل المقابلة فى مواضع الآيات إحداها فى سورة التوبة والأخرى فى سورة المائدة ، ما كان فى الأولى منكوراً ومذموماً ، صار فى الثانية مقبولا ومحموداً رغم تشابه إلا فى النهج والمنحى .

« ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ

بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)»

سورة التوبة : ٣٤

« * لَتَجِدَنَّ
أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)»

سورة المائدة : ٨٢

وإذا كان هذا النهج فى الإسلام رفضاً للقديم ما خالف قيم الحياة الفاضلة وهى جوهر تقدمها ، فما رفض القديم بإطلاقه ، وإنما رفض لإطلاقه السوابق تلغى مابعدها ، وما بعدها زمان تبدل وظروف تغيرت .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)»

سورة آل عمران : ٦٥

تلك سوابق تضع السوابق فى موضعها موصول زمانها محدود مكانها محددة غايتها .

وإذا كان الزمن قد استوعب من الرسالة بداياتها بالوحى وأولى الآيات فى مكة ، ثم الوحى وآخر الآيات فى المدينة ، ثم رأينا أن تغير ظروف الدعوة ومساراتها قد حدد أسلوب الدعوة وأشكالها ، فمن السر إلى العلن ، ومن دار الأرقم إلى رحاب البيت بعد اسلام عمر ، ومن الهجرة المحدودة إلى الحبشة ، ثم الهجرة الشاملة إلى يثرب ، ومن الاستكانة دفاعاً بالانسحاب من دار الكفر والجاهلية ، إلى هجوم على فلول الكفر والجاهلية فى بدر ، ثم مواجهات شاملة فى أحد والخندق وغيرهما ، إلى صلح موقوت فى الحديبية ، إلى فتح ونصر من الله بوعد صدق ، ثم إيغـال فى الفتح فى أرجاء الجزيرة وحتى أطرافها ، فدعوة للهدى لمن يهتدى من الأباطرة والحكام ، إلى إعداد الجيوش لمواجهات معهم .. كل ذلك فى حياة الرسول وحده ، نهج متجدد يطاوع ظروف الزمن ويطوعها ، وليس أسلوباً جامداً بوسائل ثابتة .

وإذا كان الإسلام قد استوعب بوسائل انتصاره وانتشاره مسالك تجددت ، فقد تحمل الإسلام أساليب فى القيادة ما تتالت وإنما تعايشت .

الرسول وأبوبكر ثم عمر . .

الرسول الرحمة كلهـا . .

أبو بكر اللـين رفقـاً . .

عمر الشدة بالحق والشدة للحق . .

ما استعصم الرسول بمكانته يجادله عمر فى شئون الدنيا إلا بما يوحى إليه ، وما أوحى إليه صلوات الله وسلامه عليه بعضه أقر لعمر رأيه ، وبعضه خالف عمر اجتهاده .

فما هان عمر فى الحالتين على دينه ، ماهان على دينه غروراً لايقره الدين ، ولا خذلاناً لايقره الدين لمخالفة الرأى وخطأ الاجتهاد .

ألا أن الأمر مع الرسول وعمر ، ما كان كله احتكاماً للوحى ، وإنما كان بعضه اختلافاً فى النهج ما رأى فيه الرسول مزايدة عليه ، ولا رأى فيه عمر تطاولا لا حق له فيه .

نرى عمر بن الخطاب ، يتعرف على سودة أم المؤمنين وزوجة الرسول وهى لبعض شأنها على الطريق ، فيناديها باسمها معلناً بأنه عرفها ، ملمحاً إلى آية كريمة نزلت .

((يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾))

سورة الأحزاب : ٥٩

تسمع زوج الرسول فتراجعه بمكانتها . .

« ما بالك منا يا عمر والوحى ينزل فى بيوتنا . . ؟ »

ومع ذلك فلا يراجعه الرسول فيما قال ، ولا يراجع زوجه فيما أجابت ، فالحق فى رؤية عمر للأمر كما يرى أنه يجب أن يكون ، والحق مع زوج الرسول تعرف قدرها فتحدد لنفسها وبنفسها مكانتها ، تلك التى تمكنها من فهم آية نزلت ، تعرف حدودها من مضمون غايتها .

أن يعرفن فــلا يؤذين . .

فإذا كان تقديرها أن ما كانت عليه يتماشى مع الهدف والغاية . . فهى مع الحق وللحق أيضاً .

بل إن الأمر بين الرسول وعمر ، اختلف مع الرسول عن عمر ، لا فى التفسير وحدوده ، وإنما فى الأسلوب وأثره .

الرسول الرحمة كلها . .

وعمر الشدة مطبوع عليها . .

الرحمة رحابة تتسع بالتيسير فإذا الناس فى رحاب الرسول يسراً .

والشدة غير ذلك فإذا الناس من عمر تهيباً .

« استأذن عمر على النبى يوماً وعنده نساء من قريش يكلمنه يستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يتبدرن الحجاب ، فدخل عمر والنبى يضحك » . .

قال عمر :

« أضحك الله سنك يا رسول الله » كأنه يسأله عن سبب ضحكه ..

فقال عليه الصلاة والسلام :

« عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب » .

قال عمر :

فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن . . ثم التفت إلى النساء يقول لهن :

أى عدوات أنفسهن ، أتهبنني ، ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلن :

نعــم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله » :

أسلوب يتمايز إلا أنه لايتناقض ، وأن اختلف تأثيره على الناس ، بما لا يخرج على السنن ، بل ما يؤكد حكمة النص ، فالرسول ما قال الله سبحانه فيه :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ »

سورة آل عمران : ١٥٩

إلا أن عمر نفسه ، شدة على نفسه وشدة على غيره ، لم يعد هو نفسه مع متغيرات الزمن .

نعم لم يلن عن حق ، نعم لم يحد عن عقيدة ، نعم لم يخرج على نص ، وإنما كان الاجتهاد مجاهدة لطبعه ، والجهاد اجتهاداً برأيه .

عمر الشدة وأبو بكر الرفق . .

ومع ذلك فهاهو يهاب شدة تزيد الشدائد والإسلام مازال فى قلوب الناس برعماً لم تمتد جذوره .

يوم السقيفة ، وبعد أن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى عمراً يكاد يسابق أبا بكر فيما يقول لجموع الأنصار وقد تجمعت تطلب الأمر لنفسها أو تطلبه مناصفة مع أهل السبق من المهاجرين .

يكاد يسابقه حتى لا يخالط قوله شدة تزيد من الشدائد .

وهاهو عمر الشدة ، مع أبي بكر الرفق ، وقد صار الأمر له يراجعه فيما انتوى على من منعوا الزكاة .

عمر مع اللين يكفيه من المرتدين توبة فحسب ونكوص من الردة .

وأبو بكر : يرى أن الأمر أمر الدين كله ، أركانه وأحكامه وعلى رأسها الزكاة .

ثم نرى عمر والأمر **له** ، غير عمر والأمر **به** فى عهد الرسول ثم فى عهد صاحبه .

عمر والأمر له ، يمنع عن المؤلفة قلوبهم نصيب الصدقات وقد نصت الآيات عليها :

((* إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾))

سورة التوبة : ٦٠

ومع النص الصريح فى الآية الكريمة ، كان الأمر قد استقام لهم بما أعطاهم رسول الله من مال الصدقة وما أعطاهم خليفته من بعده ، ومع ذلك منعها عمر عنهم اجتهاداً :

اذا اكتملت الغاية أو انتفت الغاية فلا تمسك الا بما ينفع الاسلام ويعزه ، وقد أعز الله الاسلام وأغناه عن المؤلفة قلوبهم أن تؤلف قلوبهم بأموال الصدقة .

بل أن عمر ما نعرف . .

يلتزم بغاية النص وهدف التشريع دون تمسك بحرفيته مادامت الظروف تغيرت ، وما دام الزمان تعدل .

« ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ »

سورة الأنفال : ٤١

إلا أن عمر لم يترك الأمر يسير على ما سار عليه قبله .

منع الفاتحين من غنيمة هى الأرض يزرعها أهلها ويرزقون منها ، ثم جعل للجند رواتب فوق مايغنمون من منقول وليس مما هو ثابت .

ما كان قبله أوجب النص بحرفيته ، فما غنم المسلمون فى أوائل الدعوة وقبل عمر إلا ماهو منقول ثم ما كان معه إيغال للفتح ، حيث منافذ الرزق ليست تجارة فحسب ، وإنما هى زراعة وعقار . .

ماكان لعمر أن يهدد الناس أرزاقهم واستقرارهم اهتدوا إلى دين الله أو بقوا على ملتهم ، ذلك أن الإسلام رحمة كما هو دين للعالمين .

عمر نفسه ليس عمر نفسه ، مع متغيرات الظروف لايقطع فى عام مسغبة ، يدرأ الحد بالشبهة بل يحاصر بالمال مداخل الشبهات .

ها هو يأمر بما يقطع ، ويدعو لمجلسه الحطيئة وكان شاعراً هجاء ، يفحش شعره بما هو قذف فى الناس .

الحطيئة فى مجلس عمر بمهابته وسلطانه وأدوات القطع توحى بأن المقصود بالقطع لسانه .

دموعه تسبق كلماته ، متوسلا بأن فحش شعره مصدر رزقه وقوت عياله .

يضحك العادل ويشترى توبته بثلاثة آلاف درهم هى من مال عمر لامن مال المسلمين .

لم يقم حدا رغم أن حدود الله معروفةومشروعة ، إلا أن الشبهة التى تدرأ الحد فى هذه الحالة هى فحاشة القول رزقاً وليس حقداً ، فوفر الرزق وأسقط الغاية ، فدرأ الحد بما يفوق الشبهات ، منع الضرر بمنع مصادره ، وصادر الأصل بسد منافذه .

عمر وعثمان :

كلاهما صاحب فضل ، وكلاهما صاحب سبق فى الإسلام ، كلاهما أصهر إلى الرسول ، عثمان بنورين من نسل رسول الله كانتا زوجاً له ، توفيت الأولى فأتى بالثانية إلى أن اختارها الله إلى جواره .

وعمر بابنته زوجها الرسول ، فنـــال شرف مصاهرته .

ومع ذلك فلقد كان عمر غير عـــثمان . .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد . .

سأله عثمان ماذا يبكيه . . ؟؟؟

يقول زيـــاد . .

أتيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بمثل ما أتيتك به ، فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به عمر أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وإن ابنك هذا أخذ ما أخذ وما رأيت أحداً يقول له شيئاً .

يقـــول عـــثمان . .

إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلى وأقاربى ابتغاء وجه الله ، ولن تلقى مثل عمر ، ولن تلقى مثل عمر، ولن تلقى مثل عمر .

رؤية ورؤية ، بل قدرة وقدرة ، رحابة تفسير وتيسير ، لاجمود يتجاوز ماهو ممكن إلى ماهو ممكن مع اختلاف قدرات الناس .

هوعمر يحفظ الكتاب كل آياته ، ومنها آية يقول نصها الكريم :

﴿ أَهُمْ

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ

فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) »

سورة الزخرف : ٣٢

وتقول آية أخرى :

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) »

سورة النحل : ٧١

ومع ذلك فهو عمر يقول آخر أمره وأخريات أيامه :

لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها إلى الفقراء .

هل فى الأمر مخالفة للنص ؟ ، أبداً ، فما كان النص إلا تمهيداً لغاية ، هى العدل مطلقاً ، كما تمناه عمر ، بل وما العفو فى آيات سبقت وآيات لحقت ، إلا ما يفيض عن الحاجة فهو للناس كافة .

عمر أيضاً ، ولماذا عمر وحده . . ؟

لأنه الشدة مطبوع عليها ، ولأنه الشدة معروف بها ، إلا أنه الاجتهاد بما يخالف الجمود ، تمشيا مع ظروف الحياة وأحوال الناس .

نسمع منه بعض ماقال :

« الذى لايعرف الشر أحرى أن يقع فيه »

• • •

« أعقل الناس أعذرهم للناس »

• • •

« احترسوا من الناس بسوء النية »

• • •

« أظهروا لنـــا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر »

• • •

« أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه »

ثم هو القائل لعمرو بن العـــاص :

« متى استعبدتم النـــاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »

أحرار نعم .. لاسطوة عليهم بسلطان ولا تسلط عليهم بادعاءات وصاية .

• • •

ذلك نهج الأولين والرسول على رأسهم ، وأبو بكر وعمر و عثمان معهم ، وعلى بن أبى طالب فيهم ، والذى له حتى فى تعريف الإيمان ماىجاوز الرحابة وهو فى رحاب الشدة .

يسأله أحد شيعته والمعركة تحتدم فى صفين بين جيشه وجيش معاوية :

ألئن قتل الواحد منا يموت شهيداً بإيمانه بحق جهاده . . ؟

يقول على كرم الله وجهه . .

نعم وحق الله .

فيسأل من كان يسأله . . ماذا عن هؤلاء ، مشيراً إلى جيش معاوية يواجههم بالقتال والعدوان . . ؟

يقول على أكرم الله مثواه . .

لئن كان الواحد منهم على صدق إيمان بما يقاتل له فهو وحق الله شهيد .

هم هؤلاء . . فما بالنـــا . . ؟

نهجر الإسلام كله ، وإذا أخذنا البعض به دعوة كان تخويفاً من روادع حدود ، ونذيراً بالجحيم ، وتوعداً بالعذاب فى الآخرة والدنيا .

ما بالنا إذا استمعنا لدعوة الإسلام ، لا نسمعها إلا وكأنها دعوة لغربة عن الزمان نعيشـــه ، والمكان نســكنه ، والعصر نعاصره ، فما أشقانا فى الحالتين ؟ . . .

نشقى إذا ما سمعنا داعياً للدين ولم نستجب ، ونشقى إذا ما كانت الاستجابة كما يريد ، رجعة بزمن لايرجع ، وغربة عن عصر لايغترب فيه إلا من ينكر واقعه .

مابالنـــا ، ننسى النهج والمنحى والمسار ، ونستمسك بالشكل مع أن الشكل لم يثبت حتى فى عهد الأكرمين الأوائل .

مابال من شهدوا المواقع ، وكرمهم الله بصحبة رسوله وعايشوا الوحى يتصل بين السماء والأرض فى حياة محمد ، ومع ذلك فقد جاهدوا اجتهاداً ، ونحن على مبعدة القرون منهم يقال لنا إن الاجتهاد محظور وأبوابه موصدة .

من أوصدها . . ؟ أليسوا رجالا ونحن رجال . .

ألم يشرعوا لعصرهم فى إطار فهمهم لدينهم . . ؟ فما بالنا لا نشرع لعصرنا فى إطار فهمنا لديننا . . ؟

ما بالنا نتشوق لرحابة الدين ، فإذا بنا نساق إلى دروب الفرقة ، فرقة خلافات اشتجرت بين المذاهب ، وسوابق ما ثبتت فى مكان إلا لارتباطها بالمكان موقعه وظروفه . . . ؟

ما بال الأمر تاريخاً نود لو ننساه ، فإذا بنا وكأنه تاريخ نريد أن نعيده ..؟

فتن الخوارج والشيعة ، فتن المعتزلة والمتصوفة ، فتن القرامطة مع السنة ، وكلها فتن ما كانت للدين ، وإنما كانت ادعاء له تستهدف مصالح ومطامع .

ما لنا والزمان يجرى لا نستوحى النهج ولكننا نتبع خطى أضاعت معالمها مئات السنين .

خطى ليس فى صداها ما هو مؤكد ، يخالف بعضها بعضاً ، بل يصادم بعضها بعضاً ، وإن اتفقت كلها بحسن الرواية وجزالة اللفظ وجمال الأسلوب . . . ولعل ذلك فيها ، بل لعل ذلك منها ما يثير جدلا حولها ،

حلاوة بيان أم صدق إيمان . . ؟

ما بالنا ، ولو كان اليقين فيهم ، ألا نضيف إليهم ، وقد استطالت قامتنا بتراكم الزمن على أقل تقدير ؟

ماذا عن الجديد فى الواقع الجديد ، نطوقه أم نخنقه أم نهيل عليه وعلى أنفسنا تراب القديم . . ؟

ماذا عن كيانات نشأت ، ودول قامت ، ومشاعر استقامت على حب الوطن وقداسة ترابه . . ؟

هل ننكرها لأنها لا تقوم على الدين وحده ، أم نهملها لأن بعض من فيها لا يشاركوننا نفس الإيمان . . ؟

ماذا عن الولاء للوطن قضية ، وماذا عن الانتماء للوطن حقيقة يستشهد تحت لوائها الرجال من كل عرق ومن كل دين . . ؟

هل يتعارض الانتماء للدين ، مع الولاء للوطن ، وماذا غيرها إلا الفتنة فى مثل هذه الأحوال . . ؟

هل يتوحد الناس فى الأرض ، ثم يتفرق الناس بالدين ، ثم ماذا وعالم اليوم غير عالم الأمس . . ؟

فلا تجانس فى عرق فى إطار وطن واحد ، ولا تماثل فى الدين إلا فى أصغر الأوطان .

ماذا عن الحياة نفسها ، ننكرها ، أم نهملها ، أم هى التقوى بالزهد فيها ، وهل كان الإسلام إلا دعوة لتجميل وتطوير الحياة . . ؟

ماذا عن المكان ، مشكلة المكان ، والتى ما عرفها الأولون . . ؟

فحين لا يصبح المكان عازلا عن تفاعلات حضارات تتعايش ، وثقافات تتفاعل ، وقيم يؤثر بعضها فى بعضها ، فإننا لا نكون فى عصمة بديننا إلا إذا اعتصمنا بديننا منهجه ومنحاه .

حين يصبح الانتقال من قارة إلى قارة لا يستغرق سوى بضع ساعات ، بل حين تجتمع كل القارات وتتلاقى فيما لا يقاس من الزمن عبر أجهزة الإرسال الإذاعى والتليفزيونى ، فإن العالم لم يعد بذلك قرية صغيرة فحسب ، بل أصبح مرايا تنعكس عليها صورة الآخر كأنها صورة الذات .

ماذا عن المرأة فى هذا العصر وهذا الزمان . . هل هى نفسها ما كانت عليه منذ قرون . . ؟ حيث كان رزق الحياة موكولا بصلابة العضلات ، تلك التى لا يملكها إلا الرجال ، بينما رزق الحياة موفور فى هذا العصر بجهد العقل لا بجهد القوة .

ماذا عن المرأة طبيبة ومهندسة ومحاسبة وعاملة وعنصراً رئيسياً حتى فى الزراعة والرعى . . ؟

ماذا عن العصر ، والذى لم يعد نفس العصر الذى كان يجرى فيه وأد البنات مخافة العار . . ؟

عصر كان الصراع القبلى فيه يلتهم الرجال ، فإذا بالنساء كثرة غالبة ، والرجال قلة محدودة ، فكان التوازن قبل الإسلام ما نعرف وأداً للبنات ، وبعد الإسلام ما أحله الله تعدداً فى الزوجات وما ملكت الأيمان منهن .

ماذا عن العصر الذى نعيشه ، وقد توازن المختل واعتدل الميزان .. ؟

ماذا عن الأخلاق وتعريفها ، والقيم ومظاهرها ، والنبل وتعريفه ، والأصيل بكرامته ، هل هو عزلة تمنع الشبهة من احتمالات انحراف ،

أم هو مناعة تكسبها المواجهة مقرونة بالوعى والتوعية والتربية السليمة والقدوة الحسنة التزاماً بنهج الدين الحنيف . . ؟

ماذا عن الضوابط نفرضها من الخارج قمعاً بالترويع ،أم نستنهضها من الداخل تأكيداً لفضل الفضيلة . . ؟

ماذا عن المظهر ، نكتفى به ، أم الجوهر نستدل عليه . . ؟

ماذا عن التحريم حدوده . . هل نطلقه اجتهاداً أم نلتزم به قاعدة .. ؟

فلا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر . وأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم لأنه فوات للمصلحة ونهى عن المباح .

وتلك قاعدة إسلامية صحيحة :

* ماذا عن الحدود والشبهات . . ؟

* ماذا عن السرقة فى هذا الزمان . . ؟

هل ستظل كما كانت فى سالف الزمان ، سرقة فحسب ، حيث لا قطع فى سرقة والد من ولده ، ولا ولد من والده ، ولا زوج من زوجه ، ولا من المال العام . . ؟

ثم ماذا عن الاحتيال وهو من آفات هذا الزمان . . . ؟

ماذا عن الرشوة والعمولات وهوامش الصفقات وتهريب الأموال والربا بالعملات . . ؟

ماذا عن ثراء تتضح معالمه وتتخفى مصادره . . ؟ ثم ماذا عن الزنا وتعريفه وبينات إثباته ، هو فى هذا الزمان قد يكون بالنسبة للرجل كما كان فى سالف الأزمان ، اعتراف يقر به ، أو أربعة شهود عليه فى حالة يكاد يستحيل تجسيدها . .

بالنسبة للمرأة فقد اختلف الحال عن الحال ، كان حملها بغير زواج دليل خطيئتها ، فماذا عن زمن أصبحت فيه موانع الحمل متاحة بأكثر من سبيل . . ؟

ثم ماذا عن الحدود ووقعها وتأثيرها فى هذا الزمان . . ؟

التغريب مثلا ، وهو النفى فى الأرض ، ماذا يعنى فى زماننا . . ؟

هل هو إبعاد عن الوطن ، أم هو إبعاد عن الموطن ؟ إذا كان إبعاداً عن الوطن ، فلم يعد ذلك مقبولا لا من الوطن نفسه طارداً لأحد مواطنيه ، ولا وطن غيره يقبل وافداً من غير مواطنيه .

وإذا كان القصد إبعاداً عن الموطن ، فكأن الوطن الواحد أجزاء يعيش فيها الناس ، وأجزاء ينفى إليها الناس ، ولم يعد ذلك ممكناً فى أوطان تتساوى كرامة كل أجزائها بكل أجزائها ، وتتصل كل أجزائها بكل أجزائها .

ماذا عن القطع ومسئولية الدولة بعده . . ؟ .. إذا اليمين بترت فمن يعول اليسار . . ؟ وإذا اليسار لحقت ، فمن يتحمل مسئولية كتلة من اللحم تتنفس وتعيش . . . ؟ تتحمله أسرته ؟ ، ما ذنبها ؟ ، وما هى حدود مسئوليتها ؟ لا هى سرقت ، ولا هى قطعت . .

ثم ماذا عنه إذا كان عائلا وليس معولا .. ماذا عن صغاره وزوجه ، قد يكون الرد يماثله الوضع فى حالة الإعدام للقتل ، إلا أن الأمر رغم ذلك

يظل مختلفاً ، بالموت تنفصم الروابط ، فللزوجة أن تتصل حياتها بزوج جديد ، بينما القطع لا يفصم رابطة ولا ينقض زواجاً .

ماذا عن الطب وإمكانياته ، وقد أصبح يجبر المكسور ويصل المبتور ، فإذا تم القطع وأعيد الوصل ، فماذا يكون الرأى بالنسبة للحد . . ؟

ماذا عن القطع محتوماً فى حالة السرقة ، مقارنة بالعفو بالدية محتملة فى حالة القتل ، وهل يمكن باجتهاد القياس أن نفتدى المال بالمال فى حالة السرقة ، مادمنا نفتدى المال بالنفس فى حالة القتل . . ؟

هل يجوز الاجتهاد قياساً ، أو يجوز القياس اجتهاداً يحفظ للسارق يده من القطع إذا رد مالا سرقه مضاعفاً أو غير مضاعف . . ؟

ماذا عن الربا موضوعاً ومحرماً ومنكراً فى الإسلام ؟

ماذا عن المضطر إليه فردا ، وماذا عن المضطر إليه دولة ، علماً بأن عالم اليوم تشابكت فيه مصالح من يملك مع مصالح من لا يملك . . ؟

ماذا عن الفائدة المصرفية وحكم الإسلام فيها . . هل هى متغيرات للاسم نرفضها ، ومتغيرات للاسم نقبلها بينما المضمون واحد . . ؟

فائدة ، مضاربة ، مرابحة ، ثم مشاركة أو استثمار ، علماً بأنها فى كل الحالات أموال تودع ثم يجرى استثمارها ، وفى كل الحالات لا يشارك صاحبها فى جهد الاستثمار . .

ماذا عن المال مكنوزاً عند أصحابه ، أليس ذلك كنزا للذهب والفضة تمتنع فوائدها عن الناس ، فهى للنار تشوى وجوه من حجبها . . ؟

ماذا عن المال متاحاً للحركة الأوسع ، تجارة ، صناعة ، بناءاً، وتشييداً ، وتمويلا لمناشط الإنتاج الزراعى . . ؟

ثم ماذا عن مؤسسات التأمين وإعادة التأمين ، هل تقع فى نطاق الربا ومن ذا الذى يحكم بذلك . . . ؟ وهل تخرج عن نطاق الربا ؟ ، ومن يقول ذلك ؟ ، على ماذا يستند ، وليس فى الأمر فى الحالتين سوابق . . ؟

ماذا عن السجون وهى نظم استحدثها العصر ولم يعرفها صدر الإسلام . . هل هى حجب لمفسدة أم استثمار لطاقة . . ؟

هل هى عزل لوباء ، أم هى مدخل لمنفعة خاصة وعامة ، من حيث هى استثمار لجهد نزلائها ، يعود عائده عليهم وعلى الدولة . . ؟

ما هو الفرق بين الضرائب والزكاة . . ؟ هل هناك تواز للمفهومين ، أم هناك تطابق ، خاصة أن حصيلة الضرائب هى للمصلحة العامة لجموع الناس فى إطار الوطن الواحد ، خاصة أن المفترض أن تتسع مسئولية الدولة لرعاية وإعالة اليتيم والمسكين وابن السبيل والعاجز والمعاق . .

هل نسمى الضرائب زكاة ، أم تعتبر الزكاة ضرائب ؟

ماذا عن التنظيم التنفيذى والسياسى والتشريعى فى الدولة ، هل هو بوظيفته أم بشكله ، بدوره أم بمسمياته . . ؟

ماذا عن الجهاد تعريفه . . ؟

ماذا عن التعاون الإقليمى حدوده . . ؟

ماذا عن التعاون الدولى أبعاده . . ؟

وهو تعاون لا مناطحة ، رغم اختلاف العقائد والأديان .

ثم ماذا عن المستضعفين فى الأرض والذين لم يعودوا أفراداً وإنما دول وأوطان وشعوب تعيش فى ظل صراع بين قوى عظمى لا تستطيع حياداً ، فإذا لم تنحز ضاعت ، وإذا انحازت ربما أمنت ولو إلى حين .

• • •

أسئلة وأسئلة وأسئلة . . ؟ ؟

أعترف بأننى لا أملك لمعظمها إجابات محددة ، أعرف النهج وقد أشرت إليه ، وسأعود إليه حتما .

هو النهج دائماً ، هو النهج أبداً . .

كان بالإسلام طريق انتصاره فى سالف العصر . .

وهو وسيلة انتصاره فى كل عصر .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

« مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ

رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ

فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ

وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ »

« صدق الله العظيم »

النهج الإسلامي كيف؟

الفصل السادس

النهج شريعة تقدم الهدى ورؤانا

النهج شريعة تقدم الهدى ورؤانا

هل هو للقديم عودة . . ؟

نعم . . إلا أنه القديم الأزل ، القديم الأبد ، القديم المطلق ، منذ كان الإنسان على الأرض موصولا بخالقه ، منذ كان الإنسان معصوماً بما اعتصم به آدم عليه السلام قبل أن يهبط الأرض وبعد أن هبط آدم عليه السلام الأرض يبتلى فيها ونسله بلاء الهدى أو الضلال ، الإيمان أو الشرك ، التقوى أو الفسق ، ليكون حسابه يوم الحساب .

هل هو عودة للقديم . . ؟ ؟

نعم . . إلا أنه القديم الذى استوعب فطرة الإنسان . فما ضل بوجوده المحدود اللامحدود من الوجود حوله ؛ فما أغاثه عقل ، ولا أعانه فكر ، فتخبط فى محاولات هى إرهاصات إيمان ؛ يوم أدرك أن سره فى غيره ، ووجوده ليس بذاته ، وعلته تتصل بما يتعالى عليه ، وأنه بوجوده العابر موصول بدائم .

عودة للقديم هو . . ؟ ؟

نعم مادام هو التسليم بالنقص فى مقابلة الكمال ، والعجز فى مقابلة القدرة ، والضعف فى مقابلة القوة ، والظلم يستشرف كمال العدل .

عودة للقديم تكون . . ؟ ؟

نعم . . ما دامت اتصالا بما هو أكمل ، وكمالا لما هو أدنى ، فما أظلم الإنسان للانسان لو أنكر معاناة ظلمات عايشها البشر ، يقلبون فيها وجوههم فما اقتربوا من خلاص ولا دنا منهم خلاص ؛ فتعثرت على الدرب خطاهم .

هل هو للقديم عودة . . ؟ ؟

نعم . . فما انقطعنا كعابرين عن رسالات السالفين فما آمن بالكتاب من أنكر فى الكتاب آياته . قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

سورة آل عمران : ٨٤

هل هو للقديم عودة . . ؟ ؟

نعم . . للدين بشموله ، وللدين بجوهره ، وللدين بدلالته ؛ بل للدين والإسلام رايته واسمه وهويته ، كما فصل الكتاب ؛ فالدين عند الله الإسلام ، مهما اختلفت مسميات رسله ، ومهما تعاقبت قبله السنون والأجيال .

هو دين إبراهيم :

«مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾»

سورة آل عمران : ٦٧

وهو دين بنى إسرائيل :

«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾»

سورة البقرة : ١٣٣

وهو دين عيسى، عليه السلام : «فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾»

سورة آل عمران : ٥٢

وهو دين موسى : «وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾»

سورة يونس : ٩٠

((* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾))

سورة العنكبوت : ٤٦

دين يعقــوب « إسرائيل » :

((وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾))

سورة البقرة : ١٣٢

هو دين سليمان :

((قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾))

سورة النمل : ٣٨

ثم هو دين كل من سبق :

« * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ » سورة الحج : ٣٨

ذلك هو قديم الأزل مطلقاً إليه نعود ، لا نشرك بربنا أحداً ، لا ننكر فى الله رسله وأنبياءه ، رسالاتهم ودعواتهم وما اتبعه من آمن بهم .

« ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ » سورة البقرة : ٢٨٥

هو الدين شموله ، وما الإسلام إلا شمول عين يتصل أوله بأول الزمان ولا يتصل آخره بزمان ، ذلك أنه دين الله وكلمته .

هو القديم المطلق نعود إليه جوهره ، لا نأخذ أنفسنا بما لا تطيق أنفسنا ولا سنن الله فى خلقه . فلو شاء لجعلها أمة واحدة . « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » .

ولو شاء لجعلها رسالة اتصلت من آدم إلى محمد ، وما بعد محمد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هى سنن للحياة جرت فإذا الأرض موصولة بالسماء ، يضل أهلها حيناً ثم يهتدون ، ينسى أهلها زمناً ثم يرجعون ، وما كان ليعذبهم رغم الضلالة بعد الهدى حتى يبعث إليهم رسولا .

فما انقطعت رسالات السماء إلى الأرض إلا بمحمد بن عبد الله ، والذى أرسله الله فى زماته ليتصل بدعوته الزمان .

ذلك أن رسالته وإن اتصلت بما قبل زمانه ، فإنها موصولة بما بعد زمانه ، وهى وإن كانت لأهله زمانهم ومكانهم ، فإنها هدى للعالمين ، وهى إن كانت كتاباً مفصلا ، إلا أن الكتاب بمنهجه ونهجه ما وضع القداسة صنواً للجمود ، فمن آياته ما نسخ ، ومن آياته ما أنسى ، ومن آياته ما رفع ، إلا ما اتصل منها بالعقيدة جوهرها ، وحدانيته سبحانه ، ورسالة رسوله صلواته عليه ، والبعث والحساب ، حتى مناسكه ما استقرت إلا بعد أن استقر للناس أمر دينهم ، فإلى المسجد الحرام بعد المسجد الأقصى قبلتهم ، ثم النواهى تدرجت ، ثم الزكاة قننت ، ثم القتال وهو كره لهم فرض عليهم ، ثم الحج إلى البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

وما كان رسوله إلا بشراً يوحى إليه ، يحكم بين الناس برؤى الناس لا يعصمه كالناس إلا رب العالمين .

ها نحن نراه موضع العتاب الإلهى ، يوم أعرض عن الأعمى :

«عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾»

سورة عبس : ١ — ٤

وها نحن نراه موضع تصويب إلهى لرأى رآه ، خالف فيه مشورة عمر بن الخطاب :

« مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ »

سوره الأنفال : ٦٧

بل ها نحن نراه ملاماً حتى على ما لم يعلمه :

((وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا))

سورة الأحزاب : ٣٧

بل ها نحن نتلو الآية الكريمة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

((قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾))

سورة المجادلة : ١

آية تنصر المرأة فيما تراه ، وترد رسول الله فيما حكم .

تلك رؤى للاسلام لم يستقرئها الناس عن رواة فى أمر دينهم ، وإنما هى آيات تتلى ، وثبات شهود على دين لا يحجر على العقل باسم القداسة ، ولا يحجر على الفكر باسم المكانة ، ولا يعلو على المراجعة لخطأ ولا يتنكر للصواب ما دام الحق معه .

ها هو محمد بن عبد الله والرايات حوله . .

الكتاب والوحى والنصر من عند الله ، يرد على من يسأله : هل الوحى ، أم الرأى والمشورة . . ؟

فيقول : بل الرأى والمشورة . .

وها هو النبى فى ساعات الحرج ، لا يعصمه من الناس عاصم ، إلا وحى ربه ، فيقول بل أنا عبد الله ورسوله .

يضع الفوارق لنفسه وللناس ، بين ما له كبشر يخطىء فيرتد ، وما عليه يوحى إليه فيطيع .

فإذا البيعة بعد صلح الحديبية تتجدد ، وإذا من أنكرها يطيع ، وإذا الفتح المبين بعد ذلك وعد من الله ونصر صدق . .

شريعة الإسلام نهج ، وهو نهج للتقدم . .

هى درب ووسيلة واهتداء واقتداء ، ما اقتربت من فطرة الناس ، وما فطرة الناس إلا زمانهم ، وما زمان الناس إلا ما استجد من أحوالهم .

*** ما للرسول فلقد كان له وحده . .**

*** وما كان للناس كان له منهم . .**

هو بمكانته وخصائص مهمته وحدود علمه ، لا يجيب إلا بما عرف ، ولا يجتهد فيما لا علم له به . .

هكذا تتوالى الآيات .

« * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ »

سورة البقرة : ٢١٩

« * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ »

سورة البقرة : ١٨٩

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ »

سورة البقرة : ٢٣٢

((يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾))

سورة المائدة : ٤

((يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾))

سورة البقرة : ٢١٧

ثم هو بموضعه عند ربه إنما كانت تجرى عليه من السنن ما اختص به صلوات الله وسلامه عليه بحيث يستحيل تعميمها ، استنباطاً أو استقراء أو اهتداء ، أو اقتداء تقول الآيات فى الكتاب الكريم :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ
ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن
دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ
وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

سورة الأحزاب : ٥٠

* تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ
إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ
بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ
بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾

سورة الأحزاب : ٥١

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

سورة الفتح : ١٠

ثم هو بموضعه عند الناس وبينهم ، إنما يخاطب الناس فيه ، ومنهم المؤمنون ومنهم أهله بما لا يختص إلا به صلوات الله عليه ..

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

سورة الحجرات : ٢

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

سورة النور : ٦٣

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ
بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب : ٣٠

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا
تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

سورة الأحزاب : ٣٣

ذلك هو التنزيل فيما خصص من أحكامه للرسول ، يختص بها وحده دون أن تجرى فى الناس مجرى السنن ، وغيرها تختص بالناس نحوه وغيرها تختص بأهله ، بما لا يجوز منهم ولغيرهن .

فإذا كان عقاب الفاحشة مضاعفاً قد اختص به بعض الناس فلصلتهن الحميمة بالرسول ، وإذا امتنع شكل من أشكال السلوك على الناس فلأنه لا يجوز مع الرسول ، بينما الأحكام مطلقة فى آيات أخرى كان للرسول موضع فيها :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟
ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

سورة النساء : ٥٩

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ
وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾

سورة النساء : ٨٠

إلا أن ذلك الفيصل فى إطلاقه ، ما يخص الرسول وما يخص المؤمنين بدعوته ، لم يحل دون اختلاف اجتهاد بين أقرب المقربين إليه ، خليفته أبى بكر وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

خلاف اجتهاد لم يفصل فيه النص وإنما كان الحكم فيه المصلحة العامة .

فحين يمتنع بعض المسلمين عن الصدقة بعد وفاة الرسول لامتناعها فى رأيهم بوفاته ، لامتناع عائدها بامتناع صاحبها عنها ، وذلك تفسير للآية الكريمة التى يخاطب فيها الرسول :

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

سورة التوبة : ١٠٣

فإن الخليفة أبا بكر يحارب الناس فى زكاة امتنعوا عنها وإن امتنع العائد عليها كما نصت الآية الكريمة ، وذلك ما لم يره فى البداية عمر ، إلا أن ما اختاره الخليفة الصاحب أو نحاه أمير المؤمنين العادل احتكاماً للمصلحة العامة ، والذى تساوى فيها رؤية أبو بكر الامتناع عن الصلاة بالامتناع عن الزكاة ، وكلاهما ردة عن الإسلام ، لا يشفع فى ردها حتى الشهادة ..

فإذا كانت الأحكام قد تدرجت من النهى إلى التجنب إلى التحريم كما فى حالة الخمر ، وإذا ما كان القصاص عيناً بعين ، ونفساً بنفس

والجروح قصاص ، وإذا كانت الدية مقبولة والتوبة ترفع الحد وتمنع العقاب ، وإذا كانت الحدود تدرؤها الشبهات ، وإذا كانت القاعدة هى الضرورات تبيح المحظورات ، فما هو النهج الذى نتبعه بحيث لا يحيد بنا عن سواء السبيل .

هو الزمان زماننا لا نغترب عنه بما يضلنا أو نضل به ، بل كان الزمان زمانهم ، فما ضل منهم إلا من خالف زمانه فما توافق نهجه مع عصره بل مع ظروف أيامه . .

نراه صلوات الله وسلامه عليه يتلو :

* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

سورة البقرة : ٢١٩

كان ذلك مع مجتمع خرجت قلته لتوها من الضلالة إلى الهدى ، وما زالت رواسب الجهالة فيها فاعلة وفعالة .

ثم إذا بالناس رغم إسلامهم لا يمتنعون عن الخمر لا تعصمهم منها حتى صلواتهم ، فإذا منهم من تضطرب صلاته ، لتنزل الآية الكريمة :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا

إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ
عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ
ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

سورة النساء : ٤٣

ثم إذا بالناس رغم إسلامهم لا يبلغون مراتب الإيمان فإذا بهم بتأثير الخمر يتباغضون ويؤذون أنفسهم وأموالهم فتقول الآية الكريمة :

إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم
مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

سورة المائدة : ٩١

وهنا يقترب النهى عن الخمر من النهى عن الشرك مقترناً بآثاره العامة ، لا من حيث هو أذى للفرد فى نفسه وماله ، ولا من حيث هو إفساد للمسلم فى صلاته ، وإنما من حيث هى إيذاء من المسلم للمسلم ، بما يخرج بالضرر من خصوصيته إلى عموميته ، حتى ليقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما أقام الحد على شارب للخمر ، فإنما أقامه بمشورة على بن أبى طالب والذى قال :

« إن شارب الخمر إذا سكر هذى وإذا هذى افترى فخذوه بحد الافتراء ، وهو ثمانون جلدة » .

والافتراء بمعناه اللغوى هو الاعتداء على الغير بغير حق ، والحد كما أوقعه عمر بمشورة على إنما هو بكمه (ثمانون جلدة) هو حد القذف كما جاء فى الآية الكريمة :

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

سورة النور : ٤ : ٥

ويؤكد هذا الاقتران بين السكر والافتراء والقذف الدلالة الاجتماعية لدور الحدود فى النهج الإسلامى ، بحسبانها زواجر تتعدى إيذاء الفرد لنفسه ، فذلك أمره لله ، إلى ما يتعدى الفرد لغيره بالأذى كنتيجة مباشرة لمعصية مما يستدعى إقامة الحد ولو لم يرد به نص فى الكتاب .

هذا نهج اجتهاد ولم يكن نهج اقتداء من جانب عمر أو من جانب على رضى الله عنهما .

هو نهج اجتهاد يراعى من الزمان ظروفه ومتغيراته وحادثاته أيضاً ، بل ويراعى من اعتدى ملته وشرعه ، ومن اعتدى نواياه وقصده ، من اعتدى تائباً تقبل توبته ، أو سادراً فى غيه مزهواً بذنبه ، عازما على ألا يرجع عنه .

هكذا تتوالى الآيات الكريمة فى حدود الزنا ، فى ثلاثة مواضع :

موضع تجوز الرحمة فيه لظروف تبررها .

وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

سورة النساء : ١٥

موضع يجوز معه الأذى مع ضرورة رفعه للتوبة :

وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

سورة النساء : ١٦

وإذا كان الأذى فى الآية الكريمة السابقة لم يحدد مداه ، فان الاجتهاد فى تحديده موكول لما انتهت إليه الآية بأن الله كان تواباً رحيما .

ثم موضع يتحدد فيه الحد بجانبه المادى والمعنوى :

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾

سورة النور : ٢

ولعل التبصر فى هذه الآيات لا يمكن أن يكون كشرب الخمر تدرجاً فى العقوبة ، وإنما تبصراً فى الظروف بحيث يتناهى الأذى للزانية والزانى بما تناهى من فعلهما شيوعاً بين الناس إفساداً أو إغواء أو انحطاطاً بسمو العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة وكيان الأسرة .

لهذا فإن العقوبة وإن مست الضرر بالمعتدى ، فقد لحقت بالعبرة والموعظة غيره ، بدليل ما نصت عليه الآية الكريمة من وجوب شهود المؤمنين على العقاب حين يقع وحيث يقع .

ثم فى موضع ثالث . .

تنسخ آية من الكتاب وترفع ، وبرفعها يرفع حكمها ، حيث لا جدال فى أن النسخ يبطل الحكم وهو الآية التى تقول :

ومع ذلك فقد أوقع الرسول صلى الله عليه وسلم عقوبة الرجم على زان وزانية من اليهود ، فلما تشفع فيهما أهلهما بعدم الاحتكام إلى التوراة فيما يتعلق بعقوبة الزنا وهى الرجم . . نزلت الآية الكريمة :

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

سورة المائدة : ٤٣

هو نهج اجتهاد إذن تقنن بآيات تعززه ، بل آيات من الكتاب تقننه ، فلو كان الأمر أمر عقوبة مطلقة يقابلها نص مطلق فى واقعة محددة هى الزنا ، لكان الأمر غير ما انتهت إليه الآيات الكريمة فى تنوعها بالنسبة للواقعة الواحدة وهى الزنا أيضاً .

إلا أن الأمر لم يكن كذلك فى النص القرآنى بقداسته ، فحى الفاحشة مبينة المبينةالتى استقامت أركانها بأربعة شهود ، لا يقابلها نص برجم أو جلد أو حتى أذى ، وإنما إمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الله أو يجعل الله لهن سبيلا .

هنا ترتبط العقوبة بوظيفتها ، هنا تتجرد العقوبة مما يراه البعض زجراً خالصاً أو ردعاً مطلوباً ، لتكون كما أمر الله رحمة بالناس ، فلا امتهان لزوجة ولو أخطأت ، ولا حتى تسريح لزوجة لو أتت بفاحشة مبينة ،

لا تعريض لها ولا تعريض بها لضغوط حاجة تخرج بالفحشاء من زلل غير مقصود لحاجة ، إلى زلل مشروع بحاجة ، لا انتقاص إلا من حريتها تلك التى أساءت إليها فعجزت فى ظلها عن حماية نفسها فكانت الفاحشة .

إمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، حيث لا فحش بقول ولا فحش بعمل ، أو يجعل الله لهن سبيلا ؛ فهو الأعلم بما تخفى النفوس توبة يقبلها ، ولو كان الأمر أمر حد يقام مجرداً من وظيفته لكان العذاب تشهده طائفة من المؤمنين ، إلا أنه فى هذه الحالة عذاب لا يطول من أتت بالفاحشة ، يطول أبناء لها وبنات لا يملكن تبرءاً عنها،فصلة الرحم أوثق ، أو انفصالا منها فذلك لا يجوز إلا لزوج يملك حق أن يسرحها بمعروف أو غير معروف . . هى لبيتها وبنيها حتى يقضى الله أمراً .

ولو كان الأمر أمر حد محدد لواقعة محددة لما نصت الآية الكريمة أن يكون الأذى لمن يأتى بفاحشة ، وهو أذى لا يذهب إلى حد الرجم حيث الموت نهايته ، وإنما هو أذى تختلف درجاته وبما يتيح من فرص التوبة والتى تستوجب كف الأذى ، والله تواب رحيم .

ولو كان الأمر أمر حد يقام مجرداً من ظروف تحيط بالواقعة ، لما كان لغير المسلمين من شرعة غير شرعة الإسلام يكون الاهتداء بها ما تماثل الحد المنصوص عليه مع الواقعة المبينة ، يكون الجلد للزانى والزانية أياً كانت شرعتهما ، أو يكون الأذى أو الإمساك فى البيوت ، إلا أن ذلك لم يكن بما استنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيدته آيات الكتاب فيما ذهب إليه ، فحين توافرت البينات على يهودى ويهودية بأنهما أتيا الفاحشة ، كان حكمه صلى الله عليه وسلم بما نصت عليه التوراة من عقوبة الزنا وهى الرجم ، وحينما روجع فيما قضى به أمره نزلت الآية الكريمة :

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

سورة المائدة : ٤٣

شريعتهم إذن لهم ، لها يحتكمون وبها يحكمون ، لترسى القاعدة الأعظم فى الإسلام بأن لا إكراه فى الدين نصه وروحه وأحكامه جميعاً ، لكل شرعته ومنهاجه .

ولو كان الأمر أمر تعميم يتوحد فيه الحكم والحد والعقاب على الجرم الواحد ، لما كانت الآية الكريمة :

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ
طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ

أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ
بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا
مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

سورة النساء : ٢٥

حيث العذاب كاملا لا يكون الرجم وغايته الموت، حيث لا انتصاف فيه ، ولا اكتمال إلا به ؛ نصف العذاب لا يكون إلا فى الجلد ، الجلد محدداً عدده ومواضعه ، هنا يمكن الاقتسام والانتصاف والقسمة ، والأهم هنا يبرز العدل الإلهى متناهياً فى شموله لظروف المكان وظروف الزمان وظروف تحيط بالإنسان أخطأ أو أصاب ، بعضها ظروف لا تقر الخطأ وإن تسامحت فى التعامل معه ، وأخرى لا تقر الخطأ فتتشدد فى الحساب عليه .

هو التسامح الذى يصل بالعذاب إلى نصف العذاب إذا أتت الأمة « الجارية » بفاحشة ، ذلك أنها لا تملك كل إرادتها ، بالإضافة إلى أنها فى موضع العبودية لا تصيب من الرشد إلا اجتهاداً يساق إليها ولا تساق إليه .

فلا قدوة تماثلها قدراً ، وليس لها من الناس إلا ما تؤمر به فتطيع ، إلا أن ذلك لا يلغى بعض مسئوليتها بما حباها الله من فطرة .

وإذا كان نصف العذاب لغير المحصنات مشروعاً لمن تأتى منهن بفاحشة ، فضعف العذاب لمن حباهن الله بالمثل الأعلى ، والقدوة الأعظم ، والمنهل

المتاح من الرشد فى بيت الرسول ومعه وحوله ، لذلك يخاطب الكتاب نساء النبى متوعداً بالعذاب مضاعفاً إن أتين بفاحشة :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ
بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

سورة الأحزاب : ٣٠

● ● ●

تلك معالم لرؤانا لا نسترشد بها الكتاب نصه فحسب ، وإنما الكتاب نهجه ومنهجه معاً ، حيث الرشد فيه هو جمود مرفوض ، وحيث الأخذ به إعمالا للفكر تعاملا مع الواقع ، إنكاراً للاغتراب عن عالم أراده الله متغيراً أبداً متطوراً أبداً ، ليكون نقيضاً للثابت الدائم الكامل المكمل سبحانه وتعالى .

تلك هى حدود الله ، فأين نحن منها . . ؟ هل هو النص معمماً . . ؟

نقرأ الآيات ونستقرئ منها أحكاماً لا يساندها الزمان أو المكان ، أو هو الرشد قرين الهدى نستلهم ما نعايشه ، فلا نخرج عليه والأهم والأخطر ألا نخرج به عن هداه . . ؟ والهدى أن يكون الحكم قرين الحاجة وغايتها الإصلاح ، وأن يكون الإصلاح صلاح الأمة .

حد الشرب كما ذكرنا لم تأت به الآيات نصاً وإنما جاءت نهياً متدرجاً عن شرب الخمر :

* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ
ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

سورة البقرة : ٢١٩

ثم يختلط الأمر على الناس فيما يتلون من آيات بتأثير الخمر ، فتقول الآية الكريمة :

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا
يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

سورة النساء : ٤٢

ثم يتأتى من المسلمين من تلعب الخمر برأسه فإذا به أذى للناس وأموالهم ، فتقول الآية الكريمة نهياً قاطعاً عن الخمر :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ
عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

سورة المائدة : ٩٠

لم يقترن الأمر بعقاب إذن ، وإنما الأمر أمر نهى تدرج ، غايته أن يحفظ للناس دينهم فلا يخالط صلواتهم إلا الصحيح من الكتاب آياته ،

ثم كانت غايته أن يحفظ للناس أقدارهم وأموالهم فلا يصل إليها أذى ممن فقد وعيه بتأثير الخمر ، غير ذلك لم يرد فى القرآن نص يحدد الحد على شارب الخمر .

ما جاء بعد ذلك هو اجتهادات تابعين والذين استلهموا النهج لا النص فى تحديد الحدود على شارب الخمر ، وهم إذ فعلوا فإنهم استنبطوا ، وهم إذ استنبطوا لم يطلقوا القاعدة جامدة وإنما أضافوا إليها ما يؤكد وظيفة الحد ودوره فى صلاح الفرد وصلاح المجموعة ثم بعد ذلك صلاح الأمة .

تلك كانت حدود رؤاهم ، أن يكون الدين للحياة ، هكذا كان عمر ابن الخطاب على مشارف الاختيار الصعب مرتين خلال ولايته :

* مرة حين استباح الناس التحريم غير مقرون بعقوبة فى الدنيا ، فأسرفوا على أنفسهم بما تناهى خطره منهم على غيرهم ، فإذا عمر وهو أمير المؤمنين يستفتى عليا بن أبى طالب وليس له فى الأمر شئ . فكانت قولة على التى ذهبت مذهب الحد استقراءاً وقياساً لما ورد فى الكتاب مع اختلافات فى الشكل وإن توحدت النتائج .

مع الخمر هذيان ، ومع الهذيان افتراء ، والافتراء عدوان كالقذف ، فليكن للشارب إذا ما افترى حد القذف وهو ثمانون جلدة .

هكذا استحدث ابن الخطاب حداً بغير نص ، إلا أنه استلهم بالقياس وظيفة الحد ردعاً للافتراء مباشراً بقصد ، أو غير مباشر بتأثير ما يدفع إليه .

* ثم مرة ، يوم امتحن عمر بن الخطاب فى نفسه ، فإذا هو فى المدينة تأتيه الأخبار من الأمصار فلا يتوقف إلا أمام إحداها بالهم والفكر الطويل ، هو عبد الرحمن بن عمر ، شرب الخمر وصاحب له فى

مصر البعيدة ، ثم إنه وصاحبه راجعا النفس فاستغفرا الله وطلبا التوبة ، ثم قارنا عذاباً فى الدنيا بعذاب فى الآخرة ، فاختارا أن يكون عذاب دنياهما حاجباً لعذاب الأخرة ، فاستتابا ولى الأمر عمرو بن العاص حيث الولاية له فى مصر . فأقام الحد عليهما .

استوعب عمر بن الخطاب ما سمع بالرضا حيناً ، ثم بالسخط والغضب بعد ذلك .

ماذا يكون للناس وابن أميرهم يشرب الخمر فى غربة ؟ ومن يدرى الناس هنا فى المدينة أو غيرها من الأمصار بأن حداً أقيم ؟ وعقاباً وقع ؟ وولاة الأمصار توابع لأمير المؤمنين يوليهم إذا شاء ، ويعزلهم متى أراد . ؟

ألا يمكن أن تطوف ببعض القلوب مظنة أن الوالى فى مصر قد جاوز فى رحمته أو استجاب لخشيته فلم يقم الحد كما ينبغى أن يقام ؟ .

فليستقدم على الفور ولده ليقيم عليه الحد مرة أخرى ، يقيمه عليه وهو الولى الأشمل ، لا يهاب فى الناس أحداً ، ولا يخشى فى الله لومة لائم .

يقدم عبد الرحمن بن عمر على دابة ، وقد أنهكه المرض والسفر ، وإذا به فى حضرة والده يستعطفه بمرضه ، ويستعطفه بنسبه ، ويستعطفه بأنه نال ما ناله تطوعاً لأنه يخشى حساب الآخرة .

إلا أن عمر يقيم الحد على ولده المنهك .

تلك وظيفة للحد يجرى استنباطها بالقياس إذا لم يستوعبها نص صريح ، أن تكون لصلاح الأمة .

وهى نفسها حد يعطل لصلاح الأمة أيضاً .

ها هو عمر بن الخطاب نفسه يبطل حد القطع للسرقة فى عام الرمادة ، وها هو عثمان بن عفان بعده يبطل حد القصاص مراعاة لصالح الأمة ، بعد مقتل عمر ثم مقتل من دبروا لاغتياله بيد عبيد الله بن عمر .

وها هو على بن أبى طالب لا يلاحق قتلة عثمان ، لأنه لو طالهم وبينهم من هم من الأنصار ، ومن بينهم بعض أبناء الأجلة ممن شهدوا المواقع ، لو فعلها ابن أبى طالب لانشقت الأمة عنه قبل أن تنشق عليه ، وهى ما تواجه من ثأرات للفرس والروم ، كلاهما له عند الإسلام والمسلمين ثأر .

● ● ●

الحد ووظيفته ، أن يكون بالنص وأن يكون بالاجتهاد ، ألا يكون رغم النص ويخالف الاجتهاد إلا فى إطار الهدف الأعم وهو صالح الأمة .
نرى التحريم فى الآية الكريمة تقول :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ
وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ
وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ
وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن
نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ
وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

سورة النساء : ٢٣

نرى التحريم فى الآية الكريمة ، تكاد تنطق قداسة حروفه بمراميها وأهدافها ووظيفتها صلاحاً للأمة ، وما الأمة إلا جماعاً لأسرة ، وما الأسرة إلا الإنسان ونفسه صاحبته وبنيه وبنى رحمه الأقربين .

ولو أطلق الأمر بغير تحريم لكان خلط الأنساب بما لا يستقيم معه النسب ، ولكان اختلاط الدم بما لا يصح به النسل ، ولكان — وهنا الأهم والأخطر — انحسار صمامات الأمان عن الأسرة التى يتحقق فى ظلها القرب وينتفى معها الخطر .

فهؤلاء اللاتى ذكرت الآيات هن ذوات القربى ، الأولى بالمعروف والصدقة والإحسان والبر ، وهن الأدنى للمودة ، والأدعى للتكافل والأقرب فى الملمات .

هن بالمعايشة الأقرب موضعاً إلا أنهن بالتحريم الأبعد منالا ، هن القريبات تواصلا إلا أنهن المعصومات اتصالا ، ولو كان الأمر غير ذلك لكان القرب والتواصل مدخلا لاتصال تنتهك فيه العروض وتنعدم فيه الرحمة ويمتنع معه الود ، فإذا هو الحذر والريب والتوجس بل وإذا هى الشحناء والبغضاء وخراب الأسر .

هو التحريم وظيفته أن يحفظ الود بين الأقربين ، وأن يمنع الشحناء والبغضاء بينهم ، فلا جمع بين الأختين لرجل واحد . ذلك دونه هدف الزواج كسكن وسكينة . ذلك دونه تقطع الصلات فيما حرم الله والعرف انقطاعه ، بل هى مودة موصولة بين الأخوات .

ولو كانت الحدود جموداً ، لما كان بالنص الكريم التحديد الكريم مقترناً بكل حد ، إلا من تاب وأصلح ، إلا من غفر ، وإلا من عفا .

ولو كان التشريع أمر جمود لما نص الكتاب على قاعدة القواعد في الفقه القانوني الإنساني بأسره والتي تقول ، إن العقد شريعة المتعاقدين .

هو شريعة المتعاقدين توافقاً لظروفهم ، لزمانهم ، لحالاتهم ، لقدراتهم ، لإمكانياتهم ، لما يحيط بهم ويحاط ويؤثر ويتأثر بهم ، هو العقد شريعة المتعاقدين ولو كان الظلم فيه بيناً أو العدل فيه غائباً .

تلك رؤية قد يراها غيرهم بمعايير لا يقرونها وإلا لالتزموا بها .

نرى الآية الكريمة تسبقها آيات ، تدعم العهد والعقد فتضفي عليهما قداسة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

سورة المائدة : ١

ثم يفصل الكتاب القاعدة الأعظم في التشريع القانوني في آية واحدة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ

وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا
أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ
وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ
فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ
إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ
أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ
وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

سورة البقرة : ٢٨٢

ليس فى الشرع جمود ، وليس بالشرع جمود ، وإنما هو مقتضى الحال بفرض الاجتهاد ما لا يخرج على الكتاب والسنة وصالح الأمة .

فالشريعة هى المنهاج الذى يهيمن على الأحكام ويطبعها بطابعه ، وليست هى الأحكام لحال من الأحوال مطلقه ، وإلا لما خص الكتاب الرسول بأحكام تخصه ، وزوجات الرسول بأحكام تخصهن ، وإلا لما انتفى بوفاة الرسول ما كان له وحده ، وما كان لزوجاته بوفاتهن :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ
بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

سورة الحجرات : ٢

وَإِن كَادُواْ
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ
وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

سورة الاسراء : ٧٣

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ
ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا
لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

سورة الأحزاب : ٥٠

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ
بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

سورة الأحزاب : ٥٢

* لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ
يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

سورة الفتح : ١٨

يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ
وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ
يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا
قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾

سورة الأحزاب : ٢٠

وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا
تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾

سورة الأحزاب : ٣٣

لسنا إذن بإزاء نص واحد ، وإنما نحن بإزاء نهج شامل ، نرجع إليه قياساً واجتهاداً واستنباطاً واستقراء وابتداعاً بما لا يخالف هدف التشريع فى نصه وروحه ، لا نعمم بما شمل المعنى فى النص المقدس لارتباطه بمكان وزمان وحادثات بعينها ، لا نعمم بما لا يخرج عن المقصود بالنص عمن خاطبه ولماذا خاطبه ، ولا نعمم فنسقط ما لم يسقطه الكتاب بالنسبة لأهل الكتاب أحكامهم وشرائعهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

سورة البقرة : ٦٢

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

سورة المائدة : ٤٧

لا ننكر ما كان قبل زماننا مادام يؤدى وظيفته فى صالح الفرد والأمة ، ولا نستنكر ما كان قبلنا لمجرد أنه كان قبلنا ما دام له دور فى صلاح الفرد والأمة .

فالقطع للسرقة سابق على الإسلام ، ومع ذلك أخذ الإسلام به ، والحج من شعائر الجاهلية ، إلا أن الإسلام أخذ به فى إطار نهج الإسلام ، فالبيت بيت إبراهيم الذى دعا أفئدة من الناس تأوى إليه ، وصيام رمضان كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم ، ليس إذن كل ما سبق الإسلام هجره الإسلام ، وإنما وضعه حيث موضعه من حيث استمرار دوره فى صلاح الفرد والأمة .

والقياس فيما ترك أو استمر الأخذ به ، يظل صالحاً لما يستجد وينبغي العمل له .

تقول الآية الكريمة :

* وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

سورة الأنفال : ٤١

ولقد التزم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق بالآية نصها ولم يحد عنها ، فأربعة أخماس الغنيمة للجند وما بقي فللمسلمين جميعاً بغير تمييز للرجال والنساء والرقيق .

إلا أن الدولة في عهد أبي بكر غيرها في عهد عمر . في عهد أبي بكر لم تكن الرعية إلا الجند أو تكاد ، بينما هي في عهد عمر بن الخطاب ، هي الأمصار فتحت والناس تكاثرت ، وأصحاب الفضل والسابقون في الإسلام ومن شهدوا المواقع تقدمت بهم السنون فلم يعد أغلبهم صاحب قدرة على قتال أو نزال .

كان المجتمع الإسلامي قد تطور ، من دار حرب أغلب مناشطها للحرب ومنها ، إلى أمصار ومدائن ومنازل وأهل دين وأهل ذمة وأرقاء وأيضاً ذوي حاجة وأبناء سبيل ولقطاء، فهل تمضي الأمور على ما كانت

قبل تطور المجتمع وتعقده . . ؟ هل تسير الأمور مسيرتها الأولى التزاماً بالنص وبغير اهتداء بروحه وجوهره والأهم من ذلك وظيفته ، من حيث هو تسهيل وتيسير على الحياة ، ومن حيث هو بر بالناس ورعاية لمصالح الأمة ؟

بل هو ذاك . . ؟

فحالما استقام الأمر لعمر بعد أبي بكر حتى أعاد الأمر على نحو جديد .

لم تعد الغنائم المنقولة وغير المنقولة مباحة لمن غنمها من الجند لا خمسها ولا سائر أخماسها ، غير المنقولة منها لأصحاب الحق فيها من أهلها ، لهم ريعها وعليهم جزيتها بعد أن كانت قبل ذلك عائداً خالصاً للغانمين ، أما المنقول من الغنائم فقد أجرى فيه عمر شريعة الله ، خمسها لله ورسوله ، إلا أن الناس لم تتساو حقوقهم كما كان الحال فى عهد أبي بكر .

فوضع بنى هاشم فى المقدمة ، وقدم فى بنى هاشم آل البيت ، ومن آل البيت زوجات النبي ، ثم رتب باقى الناس على سابقتهم وبلائهم فى الإسلام وعلى قراءتهم للقرآن ، ففرض للذين هاجروا قبل فتح مكة ثلاثة آلاف درهم لكل منهم فى كل عام ، أحرارهم وعتقائهم على السواء ، وفرض للذين شهدوا بدراً خمسة آلاف ، والذين هاجروا للحبشة وشهدوا أحداً أربعة آلاف ، ومن شهد الأحداث من أبناء المهاجرين والبدريين ثلاثة آلاف ، فيما عدا الحسن والحسين واللذين فرض لكل منهما ما فرضه لأبيهما أى خمسة آلاف لكل منهما ، ثم أنزل الناس بعد ذلك منازل حتى كان آخر عطائه ثلثمائة درهم لم ينقص أحـــداً منها ، وفرض لكل طفل رضيع مائة درهم ، فإذا بلغ فطامه يزاد إلى مائتين ، إلا أنه عاد ففرض للرضيع مثل ما للفطيم بعد أن شكت إليه نفسه من ظلم لم يقصده ، حينما أسرع الناس إلى الفطام قبل موعده ، ثم أنه جعل للقيط مائة درهم يأخذها

وليه ويدخرها له ، فإذا ترعرع اللقيط كان له مثل ما لغيره من أطفال المسلمين ثم فرض للأرامل أعطياتهن حسب منازل بعولهن .

ذلك اجتهاد لم يخرج على النص ولا أضاف إليه ، وإنما كان استجابة لمتغيرات وفدت على الدعوة بعد أن أصبحت دولة ، وعلى المدينة بعد أن ترأست الأمصار ، وبعد أن فاضت الغنائم وزاد الفئ بما يكفى الناس ويفيض .

ذلك كان أمر عمر حينما تولى من الناس أمرهم ، راجع سيرة صاحبه ولم يرجع عن جوهر شريعته ، وإنما كان للشريعة والدين أبدا ، ما رأى فى تعديل نهج إلا إتبــاع نهج الشرع ذاته ، ومنهاج الكتاب نفسه ، والتى نسخت من آياته وعدلت من أحكامه ، ما فرضه الزمن على امتداد الوحى لثلاثة وعشرين عاماً .

ذلك هو عمر الذى راجع أبا بكر فى أمر المرتدين فاكتفى منهم بالشهادة ، بينما رأى أبو بكر وهو ولى الأمر يومها أن دونه وردتهم الحرب ما لم يخضعوا للدين كاملا ، شهادة وزكاة ، لا يمنعوا عنه عقال بعير كانوا يؤدونه للرسول .

ها هو عمر أمير المؤمنين يكون له الأمر ، يراجع أمر صاحبه والذى حرم على المرتدين حتى بعد أوبتهم المشاركة فى جهاد ، فإذا هم بعض جحافله فى عهد عمر .

بل ها هو عمر بن الخطاب الصاحب الأمين ، يراجع خليفة رسول الله مرة ثم مرة فى أمر خالد بن الوليد ، والذى كان يرى فى سيفه كما يقول رهقاً ، فلم يسمع منه إلا إصراراً عليه ، ولقد نعى عمر أبا بكر إلى جيوش الشام معلناً عليهم بيعته ، عازلا خالداً عن إمارة الجيش فى نفس الوقت .

رؤية ورؤية ، ولا خلاف إن كليهما كان جهاداً واجتهاداً فى سبيل الله ، وإن كليهما كان امتثالا لشرعة الله باعتبارها نهجاً ومنهاجاً يستوعب الجديد والطارىء بما لا يخالف الجوهر والدور والوظيفة لأحكام الله ، هى صلاح للفرد ولصالح الأمة .

ما كان من الفرد لنفسه مضرة لا تتجاوزه وتتعداه فأمره لله يؤاخذه عما لم ينته عنه .

وما كان لفرد من نفسه أذى لغيره ، فأمره لله والناس يقتصون منه ما آذاهم فى أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، وإن كان الفضل أسبق ، والعفو أنفع ، والتوبة والمغفرة لها ألف باب .

تلك هى رؤانا للهدى لم نستلهم سماحتها إلا من الكتاب ، ولا نرى فى الجمود إلا قعوداً عن الاجتهاد لا يجوز للمسلم ومن المسلم الذى أمره الله أن يتفكر فى أمر السموات والأرض وفى نفسه ، أن يعرف أن الدين ثابت والدنيا متغيرة ، وأن الله واحد والناس شعوب وقبائل لو شاء لجعلها أمة واحدة .

وأن الناس شعوب وقبائل وذلك يعنى أعرافاً وثقافات وقيما تلتقى جميعها مع الفطرة ، وهى نفسها قيم كل دين كريم .

وأن العصر هو الدهر هو الزمن الذى تصوغه حركة الأفلاك ، وحيث لا ثبات فهنالك الحركة ، وحيث الحركة فهناك التغيير ، ورغم التغيير تبقى صامدة ثابتة أبدية قيم الدين وجوهره ونهجه ومنهاجه وشرعته ، تلك التى لا يطاولها زمان ولا مكان ، مادامت نهجاً لا نصاً ، وما دامت ابتداعاً واتساعاً لا يغترب فيه زمن الناس عن زمانهم ، لغة الناس ، سنن الناس ، قيم الناس ، ما يحيط بالناس ، ويصوغ للناس حياتهم .

يعصمهم وهم اللاحقون ، ما عصم السابقين والذين ما هجروا زمانهم في رحاب الدين ، وإنما هاجروا وهجروا سوءات ذلك الزمان ، فملكوا الأرض ودانت لهم الدنيا وكان نصر الله قريباً .

ما ضرنا لو حاولنا أن نكون كالسابقين ، اجتهاداً في أمر ديننا كما جاهدوا ، واجتهدوا في أمر دينهم ، ذاك زمانهم هذا زمان جديد .

حسبهم أنهم كانوا أقرب إلى الرسالة والدعوة . وحسبنا على البعد من أيامها الظاهرات أن نحذو حذوهم اجتهاداً ، لنا أجر المجتهد أخطأ أم أصاب .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

« صدق الله العظيم »

الفصل السابع

المنهج شريعة تقدم

النهج شريعة تقدم

لو كان الأمر أمر تبشير لما كان فى الأمر مشقة ، يكفى أن نهدى الناس قولا ، ونشارك الناس فكراً ، ونلهم الناس ونستلهم الناس عملا صالحاً هو فى بداية الأمر ونهايته دعوة لمكارم الأخلاق .

كان يكفى فى دعوة للهدى ، أن تنهى عن باطل ، وتأمر بمعروف ، ونلتزم العدل ما وسعنا إلى ذلك سبيلا ، فإذا أصبنا فذلك توفيق من الله ، وإذا أخطأنا اتسعت لنا مغفرة شفاعتها حسن نوايانا .

إلا أن الأمر لم يعد هو الأمر فيما شرعنا فيه ، خرجنا من التبشير إلى التطبيق ، ومن الهدى بالقول إلى هدى للعمل ، استعدنا الإسلام فى بلادنا من غربة قرون ، ما كان الناس خلالها إلا فطرتهم ، إلا أنها فطرة خالطتها غربة ، فرضها الأجنبي بما حكم ، فرضها الجديد من الخارج بما استقر ،

والأهم والأخطر أنه تعمق فى وجدان الناس انتماء ضاقت قواعده فما كانوا كما كانوا فى الزمن العظيم ، جند الله رايتهم الشهادة وغايتهم الشهادة أيضاً .

أصبح الناس غيرهم ، غير هؤلاء الذين كانت الدعوة فى رحابهم فى مكة ثم المدينة . . . .

فى مكة كان حداة الدعوة الجديدة هم المستضعفين فى الأرض الأذلاء قبل الإسلام ، الأعزاء به وفى رحابه ، ثم إذا به الوحى المبين يأمرهم بهجرة الأهل والولد والأرض جميعاً .

وحينما هاجروا فإنهم بعدها أبدا لم يسكنوا أرضاً ولم يعرفوا وطناً ولم يرفعوا راية إلا راية لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

لم تعد مكة موطنهم حيث رحلوا ، ولا المدينة موطنهم حيث أقاموا ، وإنما هم فى أرض الله جند الله ينتصرون لدعوته ويأتمرون بأمر رسوله .

هم هؤلاء ، والذين ما تتطلعوا إلى مكة كموطن ، وإنما إليها حيث البيت العتيق ومهبط الوحى ومبدأ الرسالة .

ما عادوا إليها بحنين إلى موطن ، وإنما بأشواق الإيمان تندفع نحو البيت تحج أو تعتمر ، ثم لتكون هناك يوم جاء نصر الله والفتح .

هم هؤلاء الذين اتخذوا من العقيدة موطناً ، وما عرفوا غير دين المؤمنين أهلا فما انتسبوا لسواهم .

ها هو ابن عبد الله بن أبى بن سلول يستأذن الرسول فى عنق أبيه لأنه نافق وتوعد المسلمين فى يثرب .

وها هو أبو بكر يترك فى المدينة أسماء ابنته والشيخ أباه ، بل ها هو الرسول يستودع صفيه على بن أبى طالب يوم هاجر ، ويستودع فى جوار البيت العتيق بعضاً من نفسه الزهراء فاطمة وكلا النورين زينب وأم كلثوم، ما كان للناس فى أمر دينهم وطن ولا ولد ، كانت لهم غاية أسمى ، الدين ونصره .

إلا أن زمان هؤلاء لم يعد كزمان غيرهم ، بل لم يكن زمان هؤلاء كزمانهم أنفسهم ، يوم تجسدت الدعوة فى دولة أو كادت .

عاد للمكان قداسته ، بل وعادت مع قداسة المكان عصبية كانت وحدها مدخل الذود عنه .

نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورايات النصر تحف بموكبه فى شعاب مكة ، يحكم فى أمر أهله من أهلها فإذا بهم الطلقاء ، عفو القادر وصفح الكريم .

ثم إذا به يؤذن فى الناس أن من دخل البيت منهم فهو آمن ، ثم يضيف من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن أيضاً .

عادت للمكان بعد النصر قداسته ، عاد للوطن والموطن حماه ، ما عادت الأرض بعضها كافر ينفر منه ، وبعضها مؤمن يلاذ إليه ، بل إنه صلوات الله وسلامه عليه كثيراً ما كان يناجى ربه حيث استقر له الأمر بيتاً فى المدينة ، أن ربنا كانت هجرتى من حيث أحب إلى حيث ترضى .

وتتوالى السنون وإذا الأمر لله ورسوله فى المدينة ثم فى مكة ، فإذا بالرسول وفاء لمن ناصروه رغم الفتح لا يغادرهم .. هو بينهم حيث هاجر ، وهو بينهم حين انتصر ، وهو بينهم إلى أن يقضى الله أمراً .

وقد قضى الله أمره . . فإذا الناس والخبر فاجع والمصاب موجع ، لايذكرون إلا مواطنهم ، لمن الأمر من بعده صلوات الله وسلامه عليه ، هل لمن هاجروا مع الرسول من مكة ، أو لمن أجاروا الرسول من أهل يثرب ؟؟

الموطن رغم الإسلام . .

سعد بن عبادة ، والذى يرى الأمر للأنصار أهل المدينة والذين انتصروا لله ورسوله . .

ثم أبوبكر ، الذى كان يرى الأمر غير ذلك ، إذ هو للسابقين فى الدين من المهاجرين .

ثم حباب بن المنذر من الأنصار ، والذى رأى أن الأمر لايستوجب شقاقا فليكن مناصفة بين المهاجرين والأنصار ، من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ، وكما قال عمر بن الخطاب وكرر قبل ولايته وبعدها « كانت خلافة أبى بكر فلتة وقانا الله شرها » .

هى بالمقاييس المستحدثة فلتة وقى الله المسلمين بالفعل شرها ، وإلا لعلا الموطن فوق شأن العقيدة ، ولصار أمر الدين إلى غير ما سار إليه الوطن والعقيدة .

ذلك امتحان الصديق فى بداية خلافته ، فما هى إلا أيام حتى واجه شر ما يمكن أن يبتلى به المسلم فى دينه أن يرى النـــاس خروجاً من الدين وخروجاً عليه . .

هى الردة عن الإسلام ، ردة قبائل وردة منازل للأعراب ومواطن قبائلهم ، تمـــيم واليمامة وقضاعة وقبائل على مشارف الشام ومسيلمة وأهل دبا وتهامة اليمن والبحرين .

ثم ما كان من خلاف بين أبي بكر وعمر . .

رأى الخليفة أن يؤخذ الناس حتى يأخذ منهم كل ماهو لدينهم ، شهادتهم وزكاتهم ، ورأى ابن الخطاب أنه يكفى مع انتشار الفتنة أن يكتفى مع الناس بشهادتهم ، إلا أن خليفة رسول الله أقسم أن يحاربهم على عقال بعير كانوا يعطونه النبي زكاة .

ولقد أراد الله ما أراده من نصر دينه ، فكان أن أوغل المسلمون فى الفتح دفاعاً عن مجمل العقيدة وعن مجمل الموطن ، وعن مجمل العرق والثقافة أيضاً .

كان الدفاع عن الجزيرة العربية المهددة بجحافل الروم والفرس مداخل للتماسك ، وهو تماسك استمسك بالعقيدة وتوحد بهـــا دفاعاً عن الدين والأرض والعرض جميعاً . .

ثم كان ما أوغل فيه عمر بن الخطاب من فتوحات فى بلاد للعرب كانت للفرس ، وأخرى للعرب كانت للروم ، ولقد كان نصر الله وعد صدق ، بعده توحد الناس على دينهم ، فما اختلفوا فيه تعصباً لموطن أو منزل أو قبيلة ، ثم ما كان من أمر عثمان رضى الله عنه .

لقد أعاد من أحاطوا به الأمة إلى ما كانت عليه قبل الدعوة ، كان الشيخ مشغولا بأمر نفسه يرعى كهولة لا تعينه على ما رأى أنه الأهم كرسالة اخيرة فى حياته ، هو ما نعرف ، من افتدى الإسلام والمسلمين بماله حين استربح الناس فى تجارة له ، فضاعفوا الربح له مرة ثم مرة ثم مرات فأبى إلا أن يكون لها المربح الأعظم ، أن تكون بعشرة أضعافها فوهبها لله الذى يضاعف الحسنة عشرة أمثالها ، وهو الذى اشترى للمسلمين بئراً يكون لهم

ماؤه ويكون لهم ولايته ، بعد أن كان مناصفة بينهم وبين يهود يثرب ، وهو ذو النورين الذى أصهر رسول الله مرتين ، ولو كان للرسول كما قال صلى الله عليه وسلم غير رقية وأم كلثوم لأنكحها عثمان بعدهما .

عثمان هو ماعرفنا وقد امتد به الأجل بعد صاحبيه وبعد الرسول صلوات الله عليه ، فإذا الأمر له ، والدولة اتسعت ، والخراج كثر ، وخير الله يأتيه مدداً لاينقطع ، فإذا به وهو الغنى بدينه قبل ماله يعطى ويغدق ، منصرفاً عن أمور دنياه إلى أمر آخرته ، واهباً ما تبقى من العمر للغاية الأشرف ، جمع الكتاب من صدور رواته ، ولقد أخذ عليه الأمر وقته وجهده وانتباهه ، فما أخطر الغاية وما أجلها ، إن يحفظ للناس كتاب الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

ولقد كان ذلك مدخلا للذين ظلموا ، فإذا الأمر لبنى سفيان جله ، الولاة منهم ، والقضاة فيهم ، وحفظة بيوت المال إما موال لهم ، وإما منتسب إليهم بنسب أو مصاهرة أو قرابة .

وإذا الأمر فى الأنصار غير ماكان فى عهد الخليفة الأول ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وإذا العدل الذى دعا عمر أن يقيم الحد على ابنه عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب مرتين لشرب الخمر يودى به ، والخليفة الرحيم على أمته الحريص على دينه ، يستكمل الحد ولا يقبل فى ولده المريض شفاعة .

يستكمله رغم أن الحد كان قد أقامه عمرو بن العاص فى مصر حيث كان عبد الرحمن بن عمر قد تطوع معترفاً بما أتى من منكر ، ومع ذلك يستقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى المدينة ، ليقيم عليه الحد مرة أخرى ، حيث لاشبهة فى رحمة قد تكون من الوالى على ابن أمير المؤمنين .

كان ذلك عدل عمر ، فماذا عن عدل غاب فى عهد عثمان رضى الله عنه وبالرغم منه .

كان غياب العدل مدخلا للفتنة ، تلك التى قتلت ثالث الخلفاء ، لتطل برأسها من جديد عصبية الموطن ، بين بنى هاشم وبنى سفيان .

عصبية لم يرها ولم يقرها ولم يتعامل فى ظلها على بن أبى طالب ، وإنما أرادها معاوية بن أبى سفيان لغرض فى نفسه .

هو دم عثمان بل قميص عثمان المخضب بدمائه ، وبعض من أصابع نائلة بنت القرافصة زوجه ، تلك التى زادت بها عن بعلها قتلته فبتروها . .

الدم للموطن لا للعقيدة ولا للدين ، ولا حتى لعدو مازال طامعاً فى غرب الدولة الوليدة ، يطمع فى استرداد ماضاع من تخومه ، ولا لعدو فى شرق الدولة مازال أسيفاً على ملك ضاع ، وبنات سبايا هن لبعض المسلمين فى المدينة .

لا الروم ولا الفرس أضاعوا عصبية الموطن فنهضوا واستنهضوا من ولاهم لثأرات عثمان وقميص عثمان ، بينما على بن أبى طالب ولى الأمر يذود عن الدين والعقيدة .

هو فى المدينة حيث أهل الإسلام وأصالة الدعوة وأصحاب الرسول ومن ارتضوا جواره ، ثم هو فى البصرة ثم فى الكوفة يستنصر الناس بدين الله من عصبية قديمة تتستر بالموطن ، وتتحدث حديث الجاهلية الأولى عن ثأرات تتوارث ، ودماء لاتضيع بين الأبناء والأحفاد ، وكأن عثمان الذى قتل ليس من الإسلام وإنما منهم ، لا ينتمى بإخوته للمؤمنين ، وإنما هو من موطنهم كلهم حياته ، حيث كانت ، وموته حيث أصبح .

وإذا بالناس مع معاوية فى الشام يفد إليه من يرى رأيه ، من بينهم من كرمهم الله بصحبة نبيه ، ومن بشرهم الرسول بالجنة ، بينما مع على بعض من ذوى العزم ، والذين رأوا المواطنة فى الدين أقرب للتقوى .

ولقد يقال فى تاريخ الفتنة ما يقال عن أسبابها ومساراتها ونهايتها ، إلا أن الذين خرجوا على على رضى الله عنه كانوا من شيعته ، والذين استباحوا دمه الطاهر بعض من الخارجين عليه ، ثم الذين سلموا ولديه سبطاً الرسول الحسن والحسين كانوا أنفسهم ، الذين خذلوا حفيده زيد بن على زين العابدين أحفاد هؤلاء ، فتنة توارثتها أجيال قتلة وأجيال قتلى ، حيث سادت العصبية وانتصرت ، وحيث زوت القيم العظيمة وغابت رغم البطولات .

بل إن الأمر ليذهب فى تاريخ صدر الإسلام إلى ما هو أبعد وأفدح ، إلى العباسيين حين صار الأمر لهم ، فإذا هم الحرب على العلويين أبناء عمومتهم بالبطش والقهر والقتل أيضاً . .

هى الفتنة توارثها الأحفاد عن الأجداد فى صدر الدولة الإسلامية الأولى ، وإذا كان هنالك ما يتصدع له قلب المسلم بعد ألف وأربعمائة عام من الهجرة ، فإنها الفتنة ذاتها يتفرق حولها المسلمون فيقتتلون تحت نفس الراية ، لايوحدهم ما هو فوقها ، وإنما يفرقهم ما هو دونها .

الشيعة والسنة . . حيث الصراع قتل . .

الطرق والمذاهب . . حيث الصراع تكفير . .

بينما الله واحد . . والرسول واحد . . والدين واحد . .

● ● ●

ما الذى يعصم للانسان دينه فلا ينزلق إلى ما انزلق إليه الأوائل ، هى نعمة الله فاضت وأفاضت على المسلمين فى كل أرض ، هى نعمة الله أسبغها على الناس يوم أراد لدينه أن ينتشر ولا يندثر رغم فداحة الفتن وأهوال الخطوب ومكائد الحاقدين على دين الله .

رغم غربة عن الإسلام فرضتها سحابات كثيفة فى عهود توالت كالظلمات على المسلمين فى معظم ديارهم . . ظلمات المجون فى عهود الانحطاط رغم ألقاب الخلافة وأمارة المؤمنين ، فكان الرق للمتعة والخمر للمنادمة ،وبيت المال ليس للصدقات وإنما لشعراء النفاق وندماء المسرات والانحلال المزرى .

ظلمات القهر رغم النصر ، فما استبان المقهورون مواقعهم ، أهم مع أعداء الله ودينه ، أم هم مع الظالمين الذين أضاعوهم رغم الإسلام ، فضاعوا وضاعت معهم بطولات الأوائل الذين فتحوا الأندلس وملكوا بالإسلام مشارق الأرض ومغاربها . .

ظلمات الظلم ، رغم رايات الامارة ، وشكليات البيعة ، وتوارث الملك ، وتوسع الإمبراطورية ، فإذا بهؤلاء مع أعداء دينهم وضد ظالميهم فتحطمت الإمبراطورية العثمانية .

ظلمات بلغت كثافتها بل بلغت بشاعتها أن أصبح البديل للجور والقهر هو الخروج على الدين والأصالة ، فإذا التغريب بدل التعريب فى حاضرة الإمبراطورية العثمانية ، وإذا العلمانية بديل عن الإسلام ، وكأن الإسلام يعادى العلم أو يخاصمه ، وإذا الدولة الإسلامية الأكبر ، لا يحررها من قهر حكامها إلا تنصلها من جوهر دينها ، ولاحول ولا قوة إلا بالله .

ما الذى يمكن أن يكون للناس ودينهم إذا أرادوا أن يكونوا للدين وبه .

هل تتكرر الصورة ، وتتطابق الأشكال ، وتتعادل المسميات ، ونستعيد من الماضى رموزه ، لنكون بذلك قد بلغنا غايتنا من الإسلام وله ؟؟

هذا أمر كان يجوز الحوار فيه والأمر أمر تبشير بما هو قادم ، أما وقد قدم ، أما وقد تجاوزنا التبشير إلى التجسيد فأصبح الأمر لنا ، هنا يكمن الخطر العظيم ، بل هنا تكون المسئولية الأفدح ، مسئولية من يجسد الأمل ، فأما بنجاح يستقر به الإسلام بعد غربة ، وإما ضياع حتى للأمل وإلى غير رجعة.

فكم هى السنوات بل القرون تنتظرها الأجيال لتعانق من جديد مشارف صحوة إسلامية ، خاصة وأن الزمن لم يعد ذاته الزمن القديم ، تتكرر القرون عبره ، فإذا ما هو ثابت بقيمه دائم بقيمه ، ماهو رائع بقيمه فاضل بقيمه ، واليوم هناك الجديد .

العلم والتطور ، الاتصال والتداخل ، المعرفة المتاحة بغير جهد يستوعبها من يريد ومن لا يريد ، عبر أجهزة تقتحم على الناس حتى مخادعهم .

ثم هناك الإيقاع السريع للزمن والحركة ، التطور المذهل لشكل العمل وقيمة العمل وعائد العمل ، التراكم المستمر لمعطيات الفكر والعقل الإنسانى المبدع ، بوارق معرفة يغنى فيها العابر عن الأصيل ، الجديد عن القديم ، يأتى زمان لايبعد كثيراً عن هذا الزمان تكون فيه لحظة المستقبل هى الحاضر ، بينما الماضى بقيمه وعقائده ومثله ونماذجه إنما هو ترف لقلةلاتتعامل مع جوهره وإنما تبحث فيه عما قد يكون مثيراً .

ماهو المدخل الصحيح لإنسان القرن الحادى والعشرين على قيم دين جاءت بدايات بشائره قبل أربعة عشر قرناً مضت ؟ ؟

وهى قرون لم تكن للخمود أبدا ، وإنما أقل القليل منها ما أضاف للدين ، والكثير الكثير منها أخذ منه بأكثر مما أخذ عنه ، فإذا البدع وإذا الضلالات

وإذا الخرافات ، وإذا التأويل المغرض والنحل المتعمد ، ثم إذا هى من السنن ما يخالف سننه ، ثم ماذا عن الدين شكلا منظما للحياة هل يكون كما جاء أول مرة . . ؟ ؟

لو شئنا ذلك لما استطعنا ، ومعاذيرنا فى ذلك الإسلام نفسه ، الإسلام نهجه .

فما أرسى الإسلام فى الكتاب شكلا للحكم يلزم به الناس ولا التزم به السابقون من ذوى الفضل ممن شهدوا الدعوة وانتصروا لها بشكل موحد يمكن الرجوع إليه كنموذج ونمط لا انفكاك منه .

فلقد كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه فى مكة أول العهد بالدعوة ، كما كان فيها حتى قبل هجرته فى بداية الدعوة ، كتمها مأموراً إلا على بعض أهله وبعض خاصته ، ثم أعلنها وثبت لها ، ثم هاجر بدينه ومن معه إلى يثرب ، وقبلها حفظ للدين رجاله حين طلب من بعض من آمن بها أن يهاجر بدينه إلى الحبشة .

ثم نراه فى أول أمره بالمدينة ، غيره فى آخره ، عايش اليهود فى أول الأمر وتحالف معهم ، تحلل من العهد معهم حين نكصوا عن عهدهم له ، خاصم الكافرين على دينه ثم صالح الكافرين على دينهم ، ثم كان فتح الله ونصره .

اتخذ له أولياء من بعض أهله ، ثم اتخذ له أولياء من غير أهله ، ثم اتسعت رؤاه لحدود مسئوليته ، لتكون لمن آمن ومن لم يؤمن بدعوته من أهل الكتاب ، عاشرهم وزاوجهم ، وارتضى أن يكون معهم فى مواقع الدفاع عن أرضهم وأرضه ، عن عقيدته وحرية عقيدتهم . .

ثم إذا به صلوات الله عليه وسلامه ، حينما أدرك أنه الوعد وأنه المثاب والمآب لم يشر على الناس لمن يخلفه ، أشار لهم بمن يؤم صلاتهم فى مرضه ، ولو كان يريد بذلك أن يوصى بأن أبا بكر خليفته فى أمر الناس ، لما قام نفسه حتى بلغ موضع أبى بكر من المحراب وهو يؤم الناس فإذا به يأتم به .

ولو شاء صلى الله عليه وسلم أن يكون أمر الناس بيده من بعده لأمر الناس بما يريد ، وما كان له منهم فى ذلك إلا الامتثال والطاعة ، إلا أنه لم يشأ صلوات الله عليه أن يكون للناس فى دنياهم إلا إرادتهم وطاعتهم واختيارهم ، بينما أمر دينهم مضمون يحفظه كتاب الله وسنة رسوله .

ولو شاء أن يضع للناس نهجاً ، بما اعتادوه قبل الدعوة والرسالة لأوصى بأن يكون الأمر لعلى بن أبى طالب ، فهو إلى جانب صلة الرحم والنسب ، هو الذى شهد الإسلام ولم يشهد الكفر قبل بلوغه الحلم ، وهو المجاهد فى سبيل الله ، وهو الورع التقى الفقيه المجتهد الراوية للكتاب والحديث المؤتمن على دينه ، إلا أن الرسول لم يشأ أن يكون الأمر بعده كما كان الأمر قبله ، وإنما هو أمر الله أن يكون أمر الناس شورى بينهم . . « وأمرهم شورى بينهم » .

وكما كانت خلافة أبى بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها كما قال وكرر ابن الخطاب عمر ، فإنها كانت كذلك لأنها جاءت رغم فتنة كادت تعصف بالبرعم المبارك قبل أن تمتد الجذور وتقوى فى طبقات الأرض وصدور الناس .

ثم جاء عمر على غير الطريق الذى جاء به أبو بكر ، وبينما كانت البيعة لأبى بكر أخذها من خاصة الناس فى السقيفة ، ثم أخذها من عامة الناس

فى المسجد بعد ذلك ، فإن البيعة لعمر إرادة أبى بكر وحده ، سجلها فى كتاب وهو على مشارف الآخرة ، كتاب أملاه على عثمان بن عفان رضى الله عنه وفيه يقول رضوان الله عليه .

هذا ما عهد أبو بكر ابن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حين يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب . أنى استخلفت عليكم من بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، وأنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظنى وعلمى فيه ، وأن بدل فلكل امرىء ما اكتسب من الإثم ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . والسلام عليكم ورحمة الله » .

هكذا استن أبو بكر سنة رسوله ، ومع ذلك فلم يخرج على الدين وإنما ولى على الناس من كان علماً للعدل وسيظل قيام الساعة .

وابن الخطاب مانعرف ، حيث الصدق ما قال ابن مسعود ، « ان اسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة » .

ولقد يقال ما يقال حول شدته على نفسه وعلى آله وعلى ابن له استودعه الله بعد أن قتلته سياط الحد ، بقولة فيها التقى والورع والصبر والرحمة والجلد والقدوة بعد ذلك .

يقول للمسجى فى رحاب ربه ، فلتقل لله أن أباك يقيم الحدود ، وهو عمر والذى كان فيما يراه حقاً يراجع حتى رسول الله فيما يقضى ، إذا كان

الأمر أمر شورى ، ويطيع الرسول فيما يقضى ، لو كان الأمر أمر وحى يوحى ، وهو مع الحق تساند آيات من الكتاب حكمه على خلاف ما حكم نبي الله ورسوله . .

نرى الرسول فى مواقع الرحمة ، يستجيب لطلب ابن عبد الله بن أبى ابن سلول بأن يصلى على أبيه يوم مات ، فإذا عمر يراجع النبى فى الصلاة على المنافقين ، ويقرأ عليه الآية الكريمة :

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

سورة التوبة : ٨٠

إلا أن النبي يرد على عمر ويصلى على من مات على نفاقه ، فإذا به الوحى يراجع النبي فيما قضى ، يساند عمر فيما رأى ، وتنزل الآية الكريمة :

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

سورة التوبة : ٨٤

هو عمر الذى أخذ من الدين شدته على نفسه وآله وبيته ، واتسع به رحمة للعالمين ، مردداً قول الله :

وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ

سورة النساء : ٦

ولقد كان رضوان الله عليه يأكل بالمعروف ، فماله من مال المسلمين ، إلا حق اليتيم .

نرى حفصة تنتصح لعائشة أم المؤمنين فتنصح أباها بأن يوسع على نفسه وآلــه ، وإذا بها قولتــه :

« نصحت قومك وغششت أباك » .

وهو على ذلك يقترض من بيت المال لحاجة ، يردها عند ميسرة ، وإذا كان أبو بكر قد خاصم الزهراء على ميراث لها ، لأن الأنبياء كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لايورثون فقد خالف أبو بكر وعمر كلاهما ما أحله الله من هبة وأجر .

أما أبو بكر فقد استرجع من عائشة وهو على فراش موته ، ما كان قد وهبه لها ، ليكون مشاعاً لورثته ، واستوصى عمر ابنه عبد الله بن عمر ، أن يرد لبيت المال ما اقترضه منه وقد بلغ ثمانون ألف درهم ، من مال لعمر أو لآل عمر ، أو لبني عدى ، فإن لم يوفوا فليسأل قريش ولا يتعداها .

والظن أن القرض كان لعيشته وآله ، أجرا حلالا لما كان يقوم عليه من أمر الناس .

عمر الزاهد العادل الفاتح الذى أقام الديوان وثبت النصر ، وأدخل الأمصار وهزم الروم والفرس جميعاً ، هو نفسه عمر مودعاً الدنيا وعليه فيها وليس له منها .

فلماذا لايستن سيرة الخليفة الأول ، يكتب العهد مبايعة لغيره ، ثم يطلب من الناس بيعة للبيعة ، أن يقضي فى الأمر بما يرى والدنيا فى عهده غيرها فى عهد سلفه ، بل لأنها فى عهده غيرها فى عهد سلفه .

اتسعت الأمصار ، وتباعدت التخوم ، وزاد الفيء وكثرت الخاطر ، وأخذت الدنيا بزمام الناس فإذا بهم لدينهم ودنياهم ، بعد أن كان جلهم فى عهده وعهد سلفه وعهد صاحبه الرسول للدين فى الدنيا .

وهو لا يستطيع كالرسول أن يترك الأمر للناس واصداء الوحى مازالت ملء قلوبهم ، ورفقة الرسول عامرة فى أفئدتهم ، والكتاب فى الصدور والسنن حية والعهد غير بعيد . بالرفقة الأعظم ، والقدوة الأعظم ، والسيرة الأعظم لرسول الله ، فإذا كان الخيار لهم جميعاً فهم جميعاً أبرار أطهار لايختلفون على حق وإن اختلفوا فإلى وفاق واتفاق كما حدث يوم السقيفة .

وما عاد الأمر كما كان فى أول عهد أبى بكر ، الارتداد عن دين الله والنكوص عن عهده والحث فى الدعوة والإيغال فى الفتح ، ونور الدعوة تؤازرها نار الشدة حتى لاينقلب الناس على أعقابهم ، ومنهم من ضعف إيمانهم ، ومنهم من استجد إيمانهم ، فهم أحوج إلى شدة عمر فى دينه ، وأحوج إلى شدة عمر فى عدله ، وهكذا استخلف أبو بكر عمر على إجماع . ما زاحمه مزاحم ، وما ادعى عليه بفضل من هو أفضل منه لسابقته فى الإسلام أو طهر يده ، وعفة لسانه ، وحسم عزمه وجسارة قلبه ، ورقة فؤاده للمحتاج والضعيف والمسكين .

إلا أن الأمر بعد أبى بكر لم يعد كما كان قبله ، ما بقى من الصحابة عاشوا العهود وحضروا المشاهد وأبلوا فى الدعوة بلاءهم للردة والفتوح جميعاً ، كلهم أصحاب فضل وأصحاب دين ، وأصحاب خبرة وقدرة فليكن الأمر لهم جميعاً ، وليكن الأمر لواحد منهم .

هكذا استن عمر بن الخطاب سنته فى أمر الخلافة ، فدعا إليه ستة ، على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، ثم أمرهم أن يتشاوروا بينهم ليكون الأمر لأحدهم ، وواعدهم على أيام ثلاثة يقضون فيها الأمر على أن يحضرهم عبد الله بن عمر ، على ألا يكون له فى الأمر شىء ، ثم أمر أن يصلى بالناس صهيب الرومى .

وبهذا فقد وضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول سابقة وأخطر سابقة في تاريخ الدين كله .

ألا تكون السلطة الدينية نفسها السلطة الزمنية ، ألا تكون أمامة الناس مدخلا أو معبراً لولاية أمر الناس ، أن يكون أمر الناس للناس بغير ادعاء بفضل في الدين يؤهلهم للإمامة أو الولاية أو الإمارة ، دلالة تضاف إلى سماحة الإسلام ، أن يتولى إمامة الناس في صلواتهم واحد منهم ، لايحجب حقه في إمامتهم أصل أو عرق أو نسب ، فلقد كان صهيب لبعض الناس قبل عتقه .

فهم جديد لعمر في أمر الولاية غير ذلك الذى سبق في عهد أبي بكر ، غير ذلك الذى سبق في عهد الرسول ، كان صلوات الله عليه إمام الناس بأمر السماء ، وحاكماً على الناس وليس بحاكم .

ما حكمهم برأى له إلا وكانت الشورى والمراجعة والمخالفة ، بل وكان التراجع النبيل أحياناً من جانبه صلى الله عليه وسلم .

ثم حكمهم برأى من السماء ، آيات تتلى ووحى ينزل ، فلا راد له ، ولا مراجعة ، ولا جدل وإنما امتثال وولاء وطاعة .

فالأمر ليس لمحمد يرد عنه فيرتد بشورى ، وإنما الأمر لله والحكم لله ينزل على محمد ومن اتبع محمداً ومن خالف فهو من الكافرين .

نمط في الحكم لايتكرر ولن يتكرر ، منذ أن أتم الله نعمته على الناس واستكمل لهم دينهم واختار إلى رحابه آخر أنبيائه ورسله ورسالاته على الأرض

● ● ●

هى الفتنة ، وما تلاها يوجع القلب ذكره ، البيعة لعلى حيث لم يجمع الناس عليه ، حتى بعض الأقربين من الصحابة ، الزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وحتى الأولياء ، ومنهم عبد الله بن عمر الذى آثر الاعتزال فلم يشارك فى بيعه ، وعبد الله بن هو عمر الذى أخذ الخليفة الجديد ماطالب به من إقامة الحد عليه لقتله الهرمزان وبعض أهله ، ثم معاوية بن أبى سفيان القائم على أمر الشام ، والذى جعل أمر البيعة لعلى بن أبى طالب ، مشروطة بتسليم قتلة عثمان ، ثم غير هؤلاء من المؤمنات ممن لم يكن لهن فى الأمر شىء ومنهن عائشة أم المؤمنين .

فتنة كانت ولودا للفتن ، ما زالت تلد الظلمات على ديار المسلمين إلى أن يشاء الله ويرحم .

يقتل على غيله ، ويستخلفه الناس فلا يشير عليهم ، يقترح الأقربون أن يكون الحسين بن على خليفة لعلى بن أبى طالب ، فتكون هى الشورى للمرة الأخيرة ، يجعلها للناس وأمرهم ، يتركها للناس وشأنهم ، يزداد الإلحاح عليه يقول رضوان الله عليه « لا آمركم ولا أنهاكم » .

هى آخر الأمر شورى ، ليكن مالم يعرفه إلا الإسلام منذ كان رسالة ودعوة ، إلى أن استقام واتسع دولة فى عهد الراشدين جميعاً .

يصبح الأمر بغير شورى وبغير بيعة لمعاوية بن أبى سفيان ، ليصير له الأمر كله ، ثم يورثه ليزيد ليتوارثه الأمويون بعده ، يسقط حكم بنى أمية لينهض حكم العباسين وراثة أيضاً . فالفاطميون ، فالأيوبيون ثم يتوارثه الأيوبيون ثم العثمانيون ، وكلهم يرفعون راية الإسلام ، وما عرف الإسلام فى الولاية على أمر الناس وراثة .

يدلهم الليل وتتكاثف السحب ، ويظل الإسلام وهجاً فى قلوب مؤمنة ، لم يضلها الليل ولن يضلها ، تبحث عن مخارج للنور العظيم ، تتلمسه فى الذات فلا تجده ، فلقد طال ليل الغربة ، وأوشك حتى الآمل أن يغيب ، قدر الصابرين إلا يصبروا على مايعز كل صبر عليه ، وهو دين الله باق والحياة عابرة ، هو نور الله غالب والظلمات حالكة ، كيف إذن تكون البداية ، بالشكل أم بالنهج ، بالوسائل أم بالغايات ، الشكل يصوغه الزمان والمكان ، وكلاهما فى تغير ، والنهج والغايات سامقات كأصالة الدين وجوهر العقيدة، الشكل ما رأينا ، ما استقام على ثبات حتى فى عهد الأوائل ، والنهج ما نرى ، ثبات على يقين ، وغاية هى الانتصار لدين الله ورفع لراياته .

فى السودان مازال السؤال ملحاً ، إننا على مشارف دعوة ، وعلى أبواب تجربة ، لم تغترب عنها بواطننا، وإن اغتربت عنها عبر القرون مداركنا . . فبماذا نبدأ . . ؟ ؟

● ● ●

بشرنا ، ما وسعنا التبشير تمهيداً ، تمهلنا ، تدرجنا ، أخذنا أنفسنا بما لم نأخذ الناس به ، واخترنا خشونة المنحى ، لنكون للناس قدوة ، وقد رأى بعض الناس فيما نطالبهم به غلوا وتشدداً ، إلا أنهم استقاموا ، ثم أخذنا أمر الدين هدفاً ، فلا غلو ولا إسراف ولا تشدد .

وحينما كنا على مشارف عهد وفى نهاية عهد طرحنا على الناس رؤانا فإذا الناس له ، ما تكلفنا فيما نسعى إليه ، جذوة القرآن موقدة ، فسعينا إليها نستزيدها ضياء، فعمت وشاعت وسادت .

معاهد للدين قائمة ، أضفنا وما زايدنا ، علونا وما غلونا ، ظواهر تخالف الدين والفطرة لم نصادمها والدين راياتنا ، وإنما اقتلعناها وفطرة الناس

تساندنا ، أعدنا النظر فى القوانين ، فوجدنا الغالب فيها الإسلام مصدره ، فما تعجلنا إسرافاً أو مزايدة ، وإنما عدلنا لينسجم الجزء مع الكل ، ويستقيم النهج وتتجانس البيئة ، أعدنا الحياة إلى حيث موضعها ، هى للدين وبالدين ومنه ، لا خصومة بين الدين والحياة ، ولا خصومة بين الدين والعلم ، ولا خصومة بين التحديث والدين .

صبرنا على المزايدة ، صادمنا التسلط والتزمت والالتواء بالدين لأغراض وغايات ليس منه ، تدرجنا فإذا الناس تسبقنا ، تمهلنا فإذا الناس تدفعنا ، ويجىء يوم يصبح فيه العدل قضية ، ولأن العدل فى الدين بعض أركانه ، فلقد كانت تلك بداية أردناها تتويجاً لما سبقها وإضافة لما كان قبلها .

كانت القوانين الإسلامية ، راجعنا الأمر فى الدستور فلم نجد من الدستور ما تخالفه ، راجعنا الأمر فى بعض المؤسسات ، فلم نجد عائقاً ولا عقبة ، راجعنا ما استحدث فإذا به أدعم لما استجد ، طرح السؤال نفسه ، إلى أين بعد ذلك . . ؟ ؟ لمن تكون السيادة فى ظل النهج الجديد . .؟؟

السيادة لله فى مكان بعينه وزمان بعينه ، تعنى حاكمية الله المباشرة ، حيث الحكم له ، حيث لا يكون ولى الأمر إلا منفذاً لأحكامه ، لا عن طريق الاجتهاد والقياس والاستنباط والاستقراء من شرعة لله سبقت ، وكتاب لله نزل ، وآيات لله سجلت ، وإنما هو مستجيب لوحى ، منفذ لإرادة ، بل ممثل لإرادة ، يعنى الخروج عليها خروج على إرادة الله ، وذلك ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يمكن أن يكون لمن يأتى بعده ، وهو لمحمد بما يوحى إليه ، وهو لمحمد بما يؤمر به ، وهو لمحمد لصلة موصولة بربه ولن تكون لسواه . .

هو الرسول وسيط بين الله والناس ، اختاره الله دونهم واصطفاه وقربه وكرمه وهداه .

ومع ذلك فالرسول بشر يجرى عليه ما يجرى على الناس من خطأ فى حكم ، أو خطأ فى تأويل ، إلا أنه دون الناس يرد بالوحى ، ولعل الخطأ والرد بالوحى مقصودين لحكمه ، بأن لا عاصم لبشر إلا أن بعصمة من الله ، فعندما قطع النبى أيدى وأرجل أشخاص قتلوا راعياً وسرقوا ماشيته ، ثم سمل أعينهم بالنار فنزلت الآية الكريمة ترده عما فعل :

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

سورة المائدة : ٣٣

وكأن الآية بذلك لم تقر حكم النبى بسمل الأعين ، وعندما قبل النبى على خلاف مشورة عمر بن الخطاب أن يفتدى أسارى بدر أنفسهم ، نزلت الآية :

مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

سورة الأنفال : ٦٧

فعارضت الآية بذلك رأياً للنبي ، وعندما أسر النبي فى نفسه ما لم يظهره لزيد بن حارثة ، حين رغب فى طلاق إبنة عمة الرسول زينب بنت جحش ، تنزل الآية :

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ

سورة الأحزاب : ٣٧

وعندما أعرض النبي عن عبد الله بن أم مكتوم الشيخ الكفيف ، نزلت الآية :

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ

سورة عبس ١ : ٤

وعندما شكت زوجة لرسول الله أن زوجها لطمها ، أمرها صلى الله عليه وسلم أن تقتص منه بمثل ما فعل ، وما كادت تخرج لتفعل حتى ناداها الرسول قائلا ، أردنا أمراً وأراد الله خيراً ، ثم تلا الآية الكريمة :

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ

سورة النساء : ٣٤

وهكذا نقض حكمه الأول بالقصاص .

وعندما حكم النبي بأن زوجة حرمت على زوجها لأنه قال لها ، أنت على كظهر أمى ، حاورته فى ذلك ثلاث مرات ، فنزلت الآية الكريمة :

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

سورة المجادلة : ١

فما كان من الرسول إلا أن ينقض حكمه ، ويأمر الزوج بالتكفير وبعدم طلاق زوجته .

والحاكمية لله حتى عن طريق رسول ، لا تنفى عن الرسول بشريته بما يشوبها من ضعف تتطلب من الله عونا مباشراً لرسوله .

نراه سبحانه نخاطب نبيه :

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾

سورة الاسراء : ٧٤

تلك صفات لا تتوافر إلا فى رسول لا ينقطع الوحى عنه ، يمده ويرده ويراجعه ، وهى صفات لا تتوافر إلا له ، ولا تكون أبداً لغيره ، فهو آخر المرسلين وخاتم النبيين .

وهو القائل :

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

سورة الأحزاب : ٧٢

وهو الذى لو أراد ألا يكون أمر الناس للناس لما جعل هلاك الناس بأيديهم ، كما أن صلاح الناس بأيديهم ، وما كان قوله سبحانه وتعالى :

إِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

سورة الاسراء : ١٦

ولو لم يكن أمر الناس للناس ، لما كان ثوابه سبحانه ولا كان عقابه ، بل لما كان حسابه ، وما كانت نذره التى سبقت كلماته بالعذاب لمن لم يهتدإ . لما كان فرعون وجنوده يبتلعهم اليم ، وما كان لوط قد طلب لقومه تأخذهم الصيحة ، وما كان نوح فى أهله وأهله يجرفهم الطوفان ، وما كان عاد وثمود وأرم ذات العماد ، ثم ما كان الصالحون الذين ابتلاهم بدنياهم فتابوا لآخرتهم فأحسنوا فأحسن إليهم .

لو لم يكن الأمر للناس لانتفى الحساب والعقاب والمساءلة والجزاء الأوفى ، فالأمر للناس حريتهم ، اختيارهم رؤاهم وخطاهم ، وعبر ذلك جميعاً عدل الحساب .

والأمر للناس فيما يخص شئونهم ، فيما يجتمعون عليه حق أو باطل ، ظلم أو عدل ، هدى أو ضلال ، ذلك شأن الناس فى دنياهم ، ولله فى الآخرة عدل الحساب ، غير ذلك لا يكون فى الإسلام ولم يكن .

لم يكن فى عهد الرسول ، فما ادعى بالله سلطاناً على قومه ، وإنما كان ما أمره به :

فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ — سورة الكهف : ٢٩

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا — سورة يونس : ٩٩

ما ادعى على الناس ولاية فى أمر عقيدتهم ونص الآية يقول له :

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ

سورة القصص : ٥٦

ما أشار على الناس برأى له ، إلا وكان رأى له يقبل الشورى حوله ، ويقبل الرجوع عنه ، ويقبل النزول على رأى الإجماع فيه ، إلا فيما يوحى إليه ، سيادة الله موصولة بكونه ، وليست موصولة ببعض خلقه فى كل زمان ومكان .

موصولة بزمان تتصل فيه الأرض بالسماء حيث الرسالة ولكن ليست كل رسالة ، وإنما رسالة ووحى ورسول ، موصولة بمكان حيث الرسالة وموضعها ، والرسول فى مكانه وزمانه ، لم تمتد قبله ، ولا تمتد بعده ، له بدأت وبه انتهت .

السيادة لله فى مجمل كونه ، إلا أنها للناس فيما يخص شئون حياتهم ، مسلكهم مطامحهم ، سعيهم خطأ أو صواب ، السيادة لهم مادام الاختيار لهم ، مادامت العصمة معصومة عنهم . فلا حساب مع عصمة من أخطأ ، ولا جزاء إلا على الاختيار المطلق .

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة : ٨

السيادة للناس وإلا لسمعنا من الرسول ما سمعناه من خليفته الصديق وأمير المؤمنين عمر :

أبو بكر يستهل خلافته . .

« أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

وابن الخطاب يستهل ولايته ..

« إن رأيتم فى إعوجاجاً فقومونى » .

ويسمع أحد المسلمين يقول له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا » فيحمد الله عمر بن الخطاب الذى جعل من أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

لم يكن ذلك ليكون إلا لمحمد ، ولم يكن ذلك ليكون من أتباعه ، فما كان محمد يحكم برأيه ، وإنما يوحى يوحى إليه فالأمر لم يكن لمحمد ولا أتباعه وإنما لله ، كتابه ، وآياته وأحكامه وأوامره ، ونواهيه .

ما بعد محمد كان انقطاع وحى ، وختام رسالة ومحض اجتهاد . الصواب وارد ، والخطأ ممكن ، والناس شهود ، هم بجمعهم إلى الحق أقرب ، وهم باجتماع كلمتهم إلى الصواب أدنى ، وهم باختلاف نوازعهم تعصمهم الفطرة والعقيدة والإيمان وانعدام المصلحة الخاصة إلا أن يكونوا للحق وإلى الحق أقرب .

وما ولى الأمر فى الناس إلا للناس مصالحهم ، وما مصالح الناس إلا ما يجمعون عليه ، وما يجمعون عليه هو مجمل إرادتهم ، وهى نفسها مصدر قوتهم ، فالأمر للناس فيما يخصهم من أمر دنياهم ، والأمر لله فيما يخص الناس من أمر دينهم .

السيادة لله والحاكمية لله موصولة أبداً برسول ورسالة ، موصولة بزمانه ، موصولة بمكانه ، لا تتعداه انتقالا لغيره ، ولا تتجاوزه وراثة لسواه .

هو بموضعه من الله ينقل عنه ما يوحى إليه ، يحكم فى الناس بما يأمره الله مباشرة بغير وسيط ، إليه يحتكم الناس بما أنزل إليه ، بشرط إيمانهم المسبق برسالته ودعوته ورضائهم الكامل بما يحكم به :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

سورة النساء : ٦٥

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ

وهو فى موضعه من الناس حكماً وحكماً لا يقضى فى غير المؤمنين إلا بشريعتهم ، فشرط الإيمان لازم للرضاء بالحكم إلا إذا شاؤوا غير ذلك .

فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ

سورة المائدة : ٤٢

ومع الرسول ، ومكانته ، ومع الرسول ومنزلته ، ومع الرسول وما يوحى إليه ، فإن شورى الناس موصولة مازالت بحكمه ذلك الذى لا يستند من تنزيل أو يأتى به وحى :

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

سورة الشورى : ٣٨

فإذا كان الأمر للناس شورى بينهم ، وإذا كان التحكيم بين الناس بشرط رضاهم ، وإذا كان الأمر للناس فيما يخص شئونهم ، فما هى مسافات البعد مما نحن فيه ، مما نحن إليه نسعى ؟ ؟

هل نحن اغتراباً عن غايتنا . . ؟؟ لو كان الأمر كذلك لما سعينا إليها ، وما بلغنا بعضاً من مراميها ، ولا تمكنا من تجسيد أهدافها ، وما كنا اليوم نحتكم إلى ما نحتكم إليه كتاب الله وسنة رسوله ومجمل شريعته ومطلق أحكامه .

لو كان الأمر غير ذلك ، لكان علينا أن نعيد الأمر كله لنبدأ كما بدأ الأولون أول مرة ، بل لو كان الأمر غير ذلك لما استطعنا أن نبلغ من غايتنا ما بلغنا ، وإلا لكان بلوغنا إياه خرقاً لما تواضعنا عليه وأقسمنا اليمين بالله حفاظاً على الالتزام به .

دستورنا كان مدخلنا للنهج الإسلامى لم يسبقنا إليه حتى الأوائل ، فليس قبل السودان من سابقة تكون فيه السلطة مدخلا للدين ، وليس الدين مدخلا وقاعدة للسلطة ، هى المرة الأولى التى لا يتعارض فيها ما هو وضعى مع ما هو منزل ، بل يكون التطويع للوضعى ليمكن للمنزل ، هى المرة الأولى التى لا يكون فيها الدين مشروعية السلطة ، بل أن تكون السلطة موظفة للدين ترفع لواءه ، وتبنى أحكامه ، وترفع راياته وتحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله .

هى المرة الأولى ، التى لا يغترب فيها الدين عن العصر ، بل يلائم فيها الاجتهاد بالدين ، فلا عودة للقوالب القديمة والأشكال القديمة ، والمسميات القديمة ، فلا يكون الارتداد وكأنه مدخل للهدى ، ولا يكون الالتفات للماضى وكأنه رجعة للإيمان .

الدين جديد متجدد ، لا يحده مكان ولا يحاصره زمان ، وإنما هو لكل زمان ومكان بوسائله وأدواته .

وإن كان للسودان فى الأمر شىء فهو أمر التجديد بالدين لا التغريب باسم الدين .

كان الدستور بنصوصه ، عوناً على التشريع الإسلامى ، وسنداً .

تقول المادة ١٦ من الدستور :

« فى جمهورية السودان الديمقراطية الدين الإسلام ويهتدى المجتمع بهدى الإسلام دين الأغلبية ، وتسعى الدولة للتعبير عن قيمه » .

كان النظام الرئاسى الجمهورى مدخلا للتشريع الإسلامى والذى تدرج بتدرج ولايته .

فمن ولاية أرست الدستور قاعدة ، إلى ولاية طرحت النهج الإسلامى فكراً ، إلى ولاية خرجت بالفكر إلى التجسيد ومن التمهيد إلى التقنين .

كل ذلك والناس صادقة العهد على ما وعدت ، وفية لما عاهدت ، وملتزمة بما ارتضت واختارت .

كان التنظيم السياسى إطار الشمول لمجمل الأمة بالغالبية المسلمة منها ، تكافلا وتعاوناً وتكاملا وتجمعاً لقوى العمل والإنتاج ، تعاوناً على البر والتقوى ، وللبر والتقوى .

كان الجهاز التنفيذى سباقاً بالفعل والقدوة والالتزام بالإسلام نهجه وقيمه ومبادئه وأخلاقياته .

كان الحكم الإقليمى تعبيراً عن الفطرة حيث القواعد الأعظم والتى سبقت واستجابت ، بل بادرت وأجابت بالعمل لا بالقول على السؤال العظيم .

النهج الإسلامى كيف . . ؟؟

إجابتها : تحريم الخمر بمبادرات من قواعدها .

إجابتها : إحياء للتراث الدينى فى قراها ومدنها وعواصمها .

إجابتها : بأنها نفسها كانت أمر الناس للناس ، حيث الشورى مشاركة بالرأى والسلطة .

إجابتها : أنها قادت الصحوة الإسلامية من القاعدة إلى القمة ، فكانت الأساس الأقوى والقاعدة الأمثل للنهج الإسلامى العظيم .
هل يتطلب الأمر بعد ذلك إضافة . . ؟؟

تلك مسئولية أجيال تحمل الراية عن جيل كان له السبق فى التاريخ الإسلامى كله ، بل فى التاريخ البشرى جميعاً حينما جعل السلطة مدخلا للدين ، ولم يجعل من الدين مدخلا للسلطة .

حين أسقط حاجز الوهم بين حكومة الناس وحكومة الله ، فالأمر لله كله .

حين جعل أمر الناس لهم ، لهم هداهم ، إذا شاؤوا ولهم بخيره إذا أرادو ، والحكم عندئذ لله .

حين استظلوا بالإسلام منهجاً وقيما ، ولم يكتفوا من الإسلام واجهات ومسميات ورجعة لما لا يمكن الرجوع إليه فلكل زمان زمان ، ولكل مكان خصائص . .

حين أثبتوا أنهم فى الأرض ليس دعاة وإنما نموذج ، لا يدعون لأنفسهم إلا أنفسهم ، ليكون مسارهم هدى وهداية ، هى ذاتها مساراتهم فى حياتهم تنظيما وتحديثاً .

ما صاغوا وحدتهم الوطنية بالصراع وإنما بالحوار فكانوا نموذجاً ومثلا .

ما استمسكوا بالسلطان يجمعونه بعد التفرقة وإنما تفرقوا بالسلطان حيث الناس مصالحهم ومواطنهم .

ما أخذوا الدين وسيلة لغاية هى الحكم والسلطة لتكون غايتها الدين وقيمه ، ما استعاضوا عن الانتماء للدين بشموله عن الدين بقداسته ، وإنما رأوا فى الجهاد حفاظاً على الأرض والعرض من كل عدوان ، انتصاراً لقيم الدين وتعاليمه ، وما الجهاد فى سبيل الله والشهادة إلا حفظاً لحق وصوناً لأرض .

ما تفرقوا فى الدين ، وإنما تجمعوا فى رحابه ، ما اكتمل إيمانهم بدينهم ، إلا بإيمانهم بما سبق من رسالات النبيين والرسل أجمعين ، لا يتفرقون فيها فالدين واحد ولا إكراه فى الدين .

ما اشترطوا فى ولى الأمر فيهم إلا أن يكون منهم ، ليس أكثرهم مالا ، ولا أعزهم حسباً ، ولا أعرقهم نسباً ، ولا أفقههم ديناً ، وإنما هم على نهج عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والذى استخلف فى الناس ستة يختارون منهم ولياً للأمر ، ونصب فى الناس إماماً واحداً هو صهيب الفارسى المسلم المؤمن العارف بربه .

ما ارتضوا فى ولى الأمر فيهم أن يتميز عنهم بل أن يكون كغالبيتهم ، لا يتمايز فيتعالى ، ولا يتدانى فلا يقوى بين الناس إلا على القعود .

ما اختاروا له لقباً إلا ذلك الذى تواضع عليه زمانهم ، لقب يضعه حيث موضعه من الناس فى وطنه ، هو للمسلمين ، وغير المسلمين ،

للمؤمنين وغير المؤمنين ، له من الجميع ظواهرهم ، أما بواطنهم فعند علام الغيوب .

هو للجميع بموقعه ، هو عند ربه بباطنه ، يحكم بعمله لا بلقبه ، ثم ليحكم عليه الناس بالعمل ولا يهابه الناس باللقب يتخذ منه حصانة تقيه من عتاب عاتب ، وحساب محاسب ، وقولة حق يجاهره بها من لا يخاف إلا الله .

هو فيهم بصفاته لا بمواصفاته ، وهو لهم بأعماله لا بمهابته ، لم يرث أمرهم ، ولن يورث أمرهم ، فالأمر لهم من قبل ومن بعد .

هو فيهم ما ائتمر بهم ، وهو حاديهم ما استقامت خطاه فلا حاد عن الهدى ولا ضل عن الرشاد .

هو معهم يرفع أعلامهم ، ويردد نشيدهم ، ويحفظ للتاريخ اسماً لوطن ، وشكلا لحكم ، سبق وما لحق من سبقوه فحقق للاسلام مجداً بغير سوابق ، أن تكون السلطة للدين وليس الدين للسلطة .

أن يعيش عمره وإلى أن يصل أجله ، وغايته أن يؤكد وحدة أمة توحدت ، وعقيدة استقامت ، وديناً تجدد ، ونموذجاً تحقق ، أن يكون السلطان للايمان ، وليس السلطان بالإيمان ادعاء أو دعوة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وأنه وحده لشهيد . .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

« صدق الله العظيم »

النهج الإسلامي كيف ؟

الفصل الثامن

الولاية أمانة

الولاية أمانة

الضلالة والهدى رواسب سنين

سنوات قد لا تكون هي الضلالة ،هي باليقين بعداً عن الهداية ، اغتراب عما أمر الله واقتراب مما نهى .

لا أظنني غير نفسي . من آل إليه المصير أتقبله بالرضى والشكر لله ما أنعم ، وإن كان طموح الرشد أبعد ما يكون عن مرساه ومرتضاه .

تلك غاية الرضى أروض النفس عليها ما تبقى من العمر ما يشاء الله ويقدر ، ذلك إذا كان الأمر أمر نفسي ما كان منها استغراقاً في طلب المغفرة ، وما يكون لها صبرا على مغالبة الشهوات .

قال الناس وتهامسوا ، ولست عاتباً ولا ناكراً ولا منكرا ما يغمز به البعض ويلمز ، حتى بعض الأهل والصحب ورفاق للعمر عايشوا العمر في جهالة الصبا .

ينهى عن ذلك الذى لم ينته عنه ونحن شهود .

يعددون المواقف ويقصون القصص ويستشهدون بأحياء يرزقون .

عذرى فيما كان منى أستطيع تفصيله :

* * **هو طبيعة عصر ..**

* * **وهو حدود مسئوليه ..**

هو طبيعة لعصر ، فما كان السودان يوم تفتح الوعى إلا أطياف ذكريات طاهرة ، المهدى ، والخليفة ، شرعة الله ورسوله ، مجاهدة للنفس أن تبطل قناعة بباطل ، حتى لو كان الإسلام زوراً وبهتاناً .

فما هجر الناس الأهل والولد وتابعوا خطى محمد أحمد المهدى ، يحاربون فى صفوفه وينتصرون لدعوته ويستشهدون دونها إلا محاربة لبدعة وإنكاراً لضلالة ، نزوعاً إلى الأصل الكريم ، للدين الكريم ، كتاب الله وسنة رسوله ، ذلك جهاد طمح أن تكون كلمة الله هى العليا ، وتلك رسالة تجاوزت شرعية دينية موهومة للخلافة العثمانية ، تسربلت بمسوح الإسلام وما عرفته ، ادعت الاحتكام إلى الكتاب وما كانت إلا خروجاً عليه .

رسالة هى الاتجاه القويم نحو النبع القويم حيث لا وساطة بين المسلم وربه ، ولا شفاعة للمسلم عند ربه إلا ما قدمت يداه ، وخلصت نواياه وصلح عمله .

رسالة أنكرت حتى هوية دعواها ، فما كانت من السودان لتكون للسودان وحده ، وإنما بشرت بالهدى من آمن بالله ومن كفر ومن خرج .

رسالة طال مداها ومبتغاها فوحدت وطناً ، وأرست قواعد أمة ، وانتشرت فى الأرض تبشر بالخلاص .

توهجت فأعطت وأخذت من صحوة إسلامية عظمى ، تمردت على القهر التركى فى الجزيرة العربية حيث الثورة الوهابية ، وفى شمال غرب القارة الأفريقية حيث الحركة السنوسية ، وأوحت لعرابى مصر بأن فى الإسلام الخلاص من قهر مطامع الغاصب والغريب الذى يرتكز على سلطان موروث ، فما عرف الإسلام إرث ولاية ، وإنما أقر الإسلام بيعة إجماع .

كانت الدعوة الرسالة خطراً على ما استقر عبر قرون الظلام التى اغترب فيها الإسلام فى دياره ، وكانت خطراً على الريح الجديدة القاهرة الظافرة بالنصر الرخيص على ديار المسلمين ، لترث الإمبراطورية العثمانية . ولقد يقال ما يقال عن رجل أوروبا المريض فى أواخر أيامه ، ، بأنه كان الطرف الأضعف فى كل تحالف ينتهى دائماً بالهزيمة والانكسار فى أواسط أوروبا . إلا أن الخلافة العثمانية كرمز لوحدة المسلمين بغض النظر عن شرعية الرمز وجديته فى الالتزام بالإسلام نهجاً ودرباً وسبيلا ، كان الرمز قبل الأصل هو المستهدف ، كانت أساطيل الاستعمار الغربى ترسو على شواطئ ديار المسلمين مدفوعة برياح للحقد حملتها القرون منذ الحروب الصليبية .

ذلك هو الأصل فى التوجه الشامل للثورة المهدية بعد أن استقر لها الأمر فى السودان ، ولو قنعت بما طالت لامتد بها الأمان لسنوات أطول على الأقل ، إلا أنها التزمت بجوهر دعوتها فأوحت بالنموذج وحرضت وأغدقت حتى على بشائر الانتفاضات فى ديار المسلمين ، ذلك كان خطراً

ما كان للاستعمار الغربى أن يغفل عنه بعد أن استقرت له الأمور ، وذلك كان أخطر لو استمرت جذوة طاهرة تهدى بالبعث من جديد .

لهذا كان القهر الاستعمارى المسلح لسودان الثورة المهدية مجرد بداية لمهامه بل أخطر مهامه .

تطاول على الشريعة بالتشريع المدنى والجنائى ، نقلا حرفياً لقوانين استوحت على الأقل روحها من القانون الرومانى القديم .

وهكذا تباعدت الشقة بين فطرة الناس فيما يحتكمون إليه ، وبين ما يمارس فى الناس ومن الناس أيضاً بقانون ، لو أمكن القول أنه غير معاد لشريعتهم ، لاطمأنت إلى القول بأنه مغترب عنها ، فما أبعد الكتاب والسنة عن أهل الذمة وشرائعهم ، إلا أن ذلك كان مقصوداً ومطلوباً .

كان مقصوداً لأن القوانين تنظم علاقات الناس بالناس ، فإذا احتكموا إليها فقد خضعوا لها ، فهم بالضرورة تمرد على ما يخالفها ولو كان شرعاً وديناً وآيات كتاب وسنة رسول .

ثم أن الاستعمار القاهر للصحوة الإسلامية ممثلة فى الثورة المهدية ، كان قد تجاوز حتى مقاصده حينما أرسى قواعد للتنظيم الإدارى تعتمد أساساً على السطوة الموروثة ، والنفوذ الموروث ، وحق صاحب المال أن يكون نفسه صاحب السلطان والعكس مباح ومتاح .

هكذا سقطت البيعة كما أمر الإسلام بها ، وهكذا تراجعت الشورى كما نص الكتاب عليها ، وهكذا لم يعد حتى لولى الأمر أن يأمر فيطاع فيما يرضى الله وينفع عباده .

وولى الأمر فى سودان المهدية الإسلامية هو ما أجمع الناس ببيعة له ، وما ارتضى الناس أن يكون فيهم مادام منهم ولهم احتكاماً للكتاب والسنة .

ثم إن الاستعمار حينما دانت له البلاد عمل على أن تكون الطاعة له قناعة ، لذلك فقد أرسى قواعده من خلال نماذجه ، وكانت أحد ثلاث ..

* **صاحب سلطان :**

* ولقد كان أقرب إلى المستعمر فكراً وقيماً وسلوكاً ، والقرب هنا لا يعنى التطابق ، وإنما كان يعنى الطاعة لمن لا طاعة له بحكم الإسلام وشرائعه .

* **وإما صاحب ثروة :**

* ولقد كان من هؤلاء من اتخذ من المستعمر الغريب قدوة .. شاى العصر ، وكأس المساء والبايب أيضاً .

* **وإما صاحب علم :**

* وتلك طبقة أرست قواعدها بمن وفدوا مع المستعمر أو اتخذوا جانبه فكانوا له عوناً فى شئون الإدارة ، ثم اتسعت قاعدتهم بما انضم إليهم من أهل البلاد ، ولقد كانوا فى البداية قلة اتسعت بانتشار التعليم الغربى فى الداخل وفرص التعليم فى الخارج .

* ولأنها طبقة ذات سطوة بحكم عونها وتعاونها مع المستعمر فى شئون الإدارة ، فإنها أغرت كل صاحب طموح وأيضاً صاحب مواهب أن ينضم إليها ، ولقد تنوعت فروع هذه الطبقة فى كل مجالات الحياة التى تمس احتياجات الناس .

ومع بزوغ فجر الحركة الوطنية وبدايات التراجع الاستعمارى ، حدث الخلط بين التحرر والتعليم ، وهو خلط مشروع فى جوهره إلا أن الشمول غير الصحى كان لشمول مفهوم التعليم باعتباره تمردا على كل ما هو أصيل من القيم بدعوى التجديد والمعاصرة .

هكذا اختلط التعليم بقيم الحياة الغربية ، وكان هذا يعنى هجراناً إن لم أقل إنكاراً لقيم الإسلام .

اتسعت قاعدة التعليم وتقلصت قيم الأصالة ، وتوسعت المدن وتعددت العواصم ، فإذا تعريفها يعنى البار ، والنادى ، وأوكار الملذات غير المشروعة .

انفتح الداخل على الخارج ، فإذا المردود ما فى الخارج إلى الداخل بغير مراعاة لقيم ودين ، وطبيعة شعب ، وأخلاقيات أمة .

فإذا ما فى عواصم الغرب فى عواصمنا ، وما فى مدن أوروبا أكاد أقول أنه شارف أن يطول كبريات قرانا .

أصبح المشروع عرفاً وقانوناً ، هو المحرم شريعة وديناً .

كان النموذج فى الأعالى يلمع حيث الاستعمار بسطوته والأعوان بنفوذهم ، والمتعلمون وبريقهم ، وأيضاً فى القاع وبعد القاع عيون تتلهف إلى ما وصلوا إليه .

لم ينكر أحد ما يجرى باسم التحديث ، ولم يستنكر أحد نذر الخطر إلا بحديث كالهمس وعيداً بعذاب مؤجل فى الدار الآخرة .

تلك كانت الصورة والوعى على مشارف ، هكذا عايشت جيلا سبق وجيلا لحق فلحقنى الطوفان ، إلا أننى فى الطوفان شهدت ما يمكن أن يكون بوادر الوعى الجديد ، والأصح والقول ، الميلاد الجديد ، وإن تمهل .

رأيت نفسى بين الناس رغم حداثة السن وقلة الخبرة وضحالة التجربة أكاد أملكهم .

أخو إخوان ، وجار بجير ، وصديق وقت الضيق كما يقولون ، أرانى رغم حداثة السن وضحالة التجربة ، أجد نفسى فى عملى وفى مختلف مجالاته أمتثل لمن هو أكبر ، أسمع لمن هو أنضج ، أتعلم ممن هو أرشد ، أقود من هم دونى ، ليس بسطوة الرتبة ، ولا فارق المكانة ، وإنما بالمثابرة فى العمل وجدية القدوة والقدرة على التحمل .

أذكر من ذلك حادثات لا تنسى . .

* يوم تهاوى مع المشى الطويل غيرى فصمدت ، يومها قننت السيطرة على جنودى .

* يوم اختلفت الرؤية بين ما رأيته تهوراً ، وبين ما ظنه البعض شجاعة ، فتمسكت وتماسكت وثبتت بالنصر الأخير قناعتى .

* يوم تحديت الخراب بالعمار ، والاستنفار المتوتر بالاستقرار المطمئن ، فشاع الأمن بعد طول غياب .

* يوم استوحيت قناعتى فما أضلنى وعيد فكان النجاح والنصر .

تلك حادثات كان الوعى سيدها ، والوعى ما أقصد هو يقظة للعقل تغيب إذا كان لليل سمار تعرفونهم .

سمار الليل كان كلهم أبناء جيل انتمى إليه ، جيل انبهر بالوافد وانساق ، انسلخ عن الماضى العريق وما وجد من يلوم .

سمار الليل وكنت منهم ، أعمـــار تتقارب ، وظروف تتشابه وكلهم ، إلا أقل القليل ، ممن صادف من نفسه ميلا عما هو شائع ومباح بالقانون .

كانت الليالى كـكل الليالى ، غياب للوعى ، مجاهرة بكل ما هو منكر ، فماذا شهدت من نفسى وبنفسى منها . . ؟

شهدت كبير النهار صغيرا فى الليل يترنح ، شهدت الصديق يتنكر لصداقته ، والشهم ينضو عن نفسه أثواب الشهامة ، شهدت وشهدت وشهدت . . . . إلا أن ما شهدته كأن بوادر وعى قارنت فيها بين حالى وحالى ، بين حال وحال . .

تمر الأيام . . . . الكثير من الأيام ، فإذا الهموم الصغيرة يستوعبها الهم الكبير ، تدرجاً ، ربما تبرما أورث سخطاً صاغ تساؤلات حول ما هو كائن وما ينبغى أن يكون .

الشرارة . . كل شرارة تبدأ بسؤال بلا جواب بدأت أقرأ . . .

غفر الله لعمر الحاج موسى والذى كانت أولى هداياه للطالب الحربى جعفر محمد نميرى فور تخرجه حزمة من الكتب .

قرأت ، وسمعت ، وعايشت أحداث الوطن ، انحسر جزء من الليل للوعى اليقظ ، تزايدت إيقاعات الأحداث فإذا بى فى قلبها مدفوعاً بما لا أعلم ، الغريب من بين هذه الأحداث ما جعلنى أقرب إلى عون الضحايا وهم فى أثواب الجناة .

أحداث أكتوبر سنة ١٩٦٤ :

رغم كل مشاهدها المثيرة فإن من بعضها بيوت تحترق ، نسوة تصرخ ، جموع تحتشد ، أصوات متهدجة بانفعال اللحظة تهاجم البيوت والنسوة ، من بين المهاجمين من أعرف أنها نفس البيوت ، ملاذه فى ليالى الضياع .

الجناة أنفسهم هم الضحايا ؛ فلمن يوجه الاتهام .

ساعات ساهمت فيها قدر جهدى فى إخماد فتنة ، إلا أن السؤال ظل بعدها لمن يوجه الاتهام .. ؟؟

سنوات فإذا بها الثورة ، وإذا بى فى مواضع المسئولية تلاحقنى نفسى .... بمن أبدأ مسيرة الخلاص .. ؟؟

• • •

معـــــاناة الخـــــــــلاص

الثورة أيامها الأولى ، الثورة ساحاتها الأولى ، الثورة ككل ثورة كان مخاضها السخط ، والسخط عطاء شباب كانوا أنفسهم طلائعها ، نخبة وإن لم يكونوا صفوة ، بعضهم انتمى بالفكر ما أنكر ، وبعضهم عايش إيقاع زمانه فسايره .

النخبة غير الصفوة ، فالفوارق بين المفهومين خطيرة .

الصفوة تتعالى بالفكر عن واقعها ، لا تستوحى جذوره طموحاً لتغييره ، هداها فى تصورها ما هو أمثل ، ليس ما هو كائن ولكن ما ينبغى أن يكون .

النخبة هى نتاج واقعها تتقبله وتتفاعل معه ، تقبل بعضه وتنكر بعضه ، وتتجه بما هو متاح لما هو أفضل .

الصفوة ادعاء قد تواكبه دعوة ، بينما النخبة هى قناعة تصونها حركة .

الصفوة امتثال للمثل حيث لا نظير لها بين الناس وإن كانت لبعض أحلامهم .

والنخبة هى جموع الناس منهم وفيهم وبهم ومعهم ، لا تتعالى ولا تتمايز ولا تدعى وأيضاً لا تبحر سفنها بأشرعة من التعالى .

النخبة كانوا طلائع الثورة ، من أنكر فكراً ينتمى إليه ، ومن عاش واقعاً أخلص فى التفاعل مع معطياته ، ولأن القاسم المشترك كان غلابا ،

فإن خلافات فى الفكر لم تطف والسفينة على أهبة الإقلاع والقافلة على وشك المسير والفجر يدق أجراسه .

أيام بعد النصر ، بل ساعات بعده ، فإذا خلافات الفكر حقيقة .

الثورة فكرة غير الثورة حركة ، غير الثورة مغالبة لواقع ، واستعانة بواقع ، تلك معادلة المشقة ، محاولات الاحتواء سقطت .

حتى الغدر مسلحاً وقاهراً فى يوليو سنة ١٩٧١ تناثر بعد ساعات من اندلاعه ، لتثبت الأحداث أن مواجهة نوفمبر سنة ١٩٧٠ كانت أكثر من ضرورة .

الطلائع بعضها الشباب سخطاً ، وبعضها الشباب فكراً يخالف النهج ، والدين ، والعقيدة ، والواقع الاجتماعى .

كانوا يوم السادس عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٠ على موعد مع قطيعة . ثم كانت الثورة بشمولها هى القطيعة للفكر المغترب كما عبرت عنه فى بيانها للأمة فى الثانى عشر من فبراير سنة ١٩٧١ ، ثم كان يوليو الغدر والنصر فى نفس العام ، انعتاقاً للسودان وغير السودان من دول المنطقة ، من وهم التحرر بقيادة الشيوعية الدولية والتحرر من سراب التقدم تحت رايات الماركسية اللينينية ، إلا أن النصر وإن كانت العقيدة الإسلامية فى وجدان الناس عدته ، إلا أن الإسلام فكراً ونهجاً وقيماً ، إنما هو مسلك وقبل ذلك قدوة .

فبمن أبدأ . . . ؟ ؟

هى نفسى . . مغالبة النفس عسيرة إلا أنها ليست مستحيلة ، ولأن العسر مدخل لليسر على أن يكون دربه التدرج ، فإن ذلك كان يقتضى تفهماً

لمسارات أمة ، والتى هى جموع شعب ، والذى هو مسلك أفراد ، والذى هو ترسبات سنين .

أمة تضمد جراحات تشتتها ، فلتكن بداية البدايات وحدتها ، وعلى هذا الدرب تتابعت الخطى .

ميثاق العمل الوطنى ، أولى خطوات التقنين للشرعية الثورية ، وضع الدين فى مكانته من وجدان الأمة ، ثم الدستور تقنيناً للشرعية الدستورية ، يحدد للدين بشمول الدين مكانه كمصدر للتشريع ، يستوحى الإسلام دين الأغلبية ، والمسيحية دين البعض من سكانه ، وكريم المعتقدات كمصادر للتشريع بغير تناقض ، إلا أن الميثاق والدستور ، بل والقانون نفسه لا يغنون عن القدوة ، وقبلها القدرة على مغالبة النفس أولا .

تبدلت معايير الحساب من المسلك العام إلى المسلك الخاص على مستوى القمة ، كان ذلك فى البداية مقصوداً أن يكون سراً مشتركاً بينى وبين من يهمه الأمر لضمان البداية ، عتاباً ، فمراجعة ، فزجرا فردعاً ، يعرف وحده دواعيه وأسبابه .

ثم كان ذلك بعد ذلك علناً ، ولعلنى أذكر هنا خطاباً واكب تعديلا وزارياً سنة ١٩٧٣ أطلق عليه صحفى لبنانى إسم الخطاب « القنبلة » ، وهو الخطاب الذى أوضحت فيه تلميحاً يكاد يكون تصريحاً عن أسباب إقصاء البعض من مواقعهم ، وهى أسباب تتعلق بالمسلك الخاص فى المقام الأول .

سقطت نجوم لامعة قاربت القمم فى ذلك التاريخ وبعده للأسباب عينها وللموجبات ذاتها ، والتى عرفها البعض ثم تناساها فلحقه ما لحق سلفه من تطابق للظروف يكاد يكون كاملا ، فمعاناة الخلاص فى هذا المجال كانت بالطبع عسيرة .

بعض من ذكرت كان زميل صبا ، ورفيق شباب بل شريك خندق واحد ، خاصة فى ساعات المخاض وساحات الخطر . .

بعض ممن ذكرت كان له من أدائه ومن فكره والأهم من ذلك كان له من دوره ما هو محسوب على الثورة وعلى حساب أعدائها ، ولقد كان سقوطه يعنى بالوهم على الأقل سقوط حصن من حصون الثورة ، واهتزاز ركن من أركانها .

تصاعدت مع هذه الموجة موجة التآمر على الثورة ، ذلك أن الذين لم يفطنوا إلى دلالات الحركة على مستوى القمة ، ظنوا أن البراكين بدأت تفور على السطح مؤذنة بالغروب الوشيك .

محاولتان فى سنة وبعض السنة ، إحداهما كانت كالوهج الطائش برق وخباء ، والأخرى كانت نفسها الطوفان امتد وانحسر ليبقى ما ينفع الناس ، وما ينفع الناس كان يمارس بالتدرج تأثيره ، ومن آثاره مغالبة ما هو عاجل الفائدة لصالح ما هو فى خدمة النهج الإسلامى ، أصوله ، وجذوره ، بغير مزايدة .

● ● ●

المراهنة الرياضية والتى شاعت تحت اسم « توتو كوره » كانت الموازنة حولها تكاد تصل إلى حد التعادل المرهق بين منطق تدعمه الأرقام ، دور لها فى امتصاص فائض القدرة الشرائية بما يعادل العرض والطلب ، ويتصل مباشرة بتركيز الأسعار ، وحركة التضخم واستقرار حالة السوق ، وبين خروجها الفاحش على الإسلام وما أمر ، والإسلام وما نهى بتحريم الميسر بكافة أشكاله ، خاصة وأن الترويج لها كان دعامة روجها ،

والدعاية لها إحدى مرتكزات مناشطها ، براقة جذابة تصنع الحلم الجميل بمكسب بغير جهد ، وثراء بضربة حظ ، إلى جانب ادعاء دور لها فى تنشيط الرياضة .

الإبقاء عليها ضرورة اقتصادية – يقول البعض وأسبابه معه ، وإلغاؤها كان للنهج الإسلامى وبه ومنه . . . واختارت الثورة وانحازت .

● ● ●

النهج الإسلامى يعنى تقوية للمؤسسة الدينية لا من حيث هى أجهزة دعاة لدعوة وإرشاد ونصح وتحذير ووعيد ، وإنما من حيث هى استجابه لاختيار الناس واستجابة لفطرتهم .

وهكذا تضاعف عدد المساجد ثم تضاعف ثم تضاعف بما لا يعرفه السودان فى كل تاريخه .

وهكذا أسقطت عن مساجد الله أعباء تكلفة الإنارة وتكلفة المياه ، فإذا بالمساجد فى كل قرية منارات تتوهج بالضياء داعية عباد الله إلى مساجد الله تعمرها بالتواصل فيها ، وما الصلاة إلا صلة بين العبد وربه ، بين الناس وبعضهم بالخير والمعروف .

الثورة على طريقها مع النهج الإسلامى تتقدم بغير إعلان .

تشكيل لجنة لإعادة النظر فى القوانين بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية ، فإذا السودان ساحة لحركة إسلامية دولية نشطة ، شارك فيها كل من آتاه الله علماً من ديار المسلمين فى كل أنحاء العالم ، ومع ذلك فلقد كانت معاناة الخلاص فى هذا المجال تعنى الصبر على مزايدات التعجل .

كان التعجل نقيضاً للتدرج ، وكان التدرج يستهدف قناعات الناس بالالتزام وليس بالإلزام أبداً .

قناعات الناس مدخلها القدوة ، وعلى هذا الطريق ساقت المقادير أحداثا تؤكدها :

ساحة قصر الشعب فى إحدى الليالى . . المناسبة حفل عشاء لتكريم رئيس دولة كبرى يزور السودان ممثلا لبلاده والتى تماثل السودان حجماً ، وإن كان تعداد سكانها بمئات الملايين ، المناسبة تتطلب كلمات يتبادلها الضيف والمضيف ، الكلمة تقليدية ، ترحيب من جانب وشكر من جانب آخر ، على أن يراعى فيها مقومات الكبرياء الوطنى للبلدين ، لغة التخاطب الشائعة فى كل منها ، على أن تكون الترجمة مواكبة للإلقاء باللغتين جملة بجملة ، المهمة قام بها وزير سودانى ، وقبلها كنت قد لاحظت فى النص عبارة تدعو لتبادل الأنخاب تحية للبلدين ، طلبت رفع العبارة لاعتبارات تتعلق بالإسلام الذى لا يقر الأنخاب ورموزها باعتبارها مرادفة للكأس والخمر ، وما نهى الإسلام عنه وحرمه ، لاحظت أن الوزير يسوق اعتراضاً على رفع العبارة ، متعللا بالبروتوكول وأصوله والشكل وضرورة مراعاته ، جرت مناقشة حول الدلالة ، انتهت برفع العبارة من الكلمة المعدة .

مراسم التكريم تتابعت خطاها ، استقبالا للضيف فى مدخل القصر ، تحية بالنشيد الوطنى للبلدين ، مصاحبة له إلى رأس المائدة ، استقراراً حولها ، ثم إلقاء كلمة الترحيب من جانبى .

الكلمة عبارة عبارة يقوم الوزير بترجمتها من العربية إلى الإنجليزية ، وصلت إلى جملة النهاية لأسمع بعدها الوزير يترجم عبارة لم ترد فى النص ولم أنطق بها ، هى نفس العبارة المرفوضة بتبادل الأنخاب . . . لحظة الحرج كانت نفسها لحظة الاختيار .

استجاب الضيف الزائر لما سمعه فوقف ورفع كأسه ، وقفت بجانبه لأقول له بصوت مسموع لغيره بأن دينى ودينه ، رغم عقيدة دولته ، وهو الإسلام لا يسمح لى أو له أن نتبادل الأنخاب .

استجاب الرجل مرحباً ، جلس وجلست ، أوضحت له خطأ الترجمة ، تفهم بل وبارك وأيد ، إلا أن ما حدث لم يكن نهاية أحداث تلك الليلة .

نهايتها كان صدور قرار جمهورى بإعفاء الوزير من منصبه . . . لماذا . . ؟

لأنه فى بلد مسلم ، مع زائر مسلم لا ينبغى التجاوز عن مبادئ الإسلام ، ولأن الاختلاف فى الرأى بين الوزير وبينى كان اختلافاً فى النهج كما أراه قدوة على مستوى القمة ، وكما رآه هو شكلا ينبغى تجاوزه مراعاة لشكل غريب عن الدين .

ولقد قلت لنفسى بعدها إننى ربما أكون قد ظلمت الرجل ، بل إننى سألت نفسى عن دوافع خفية حتى على نفسى بالنسبة لدوافع قرارى ، فربما يكون عقاباً لمن لم يمتثل لما وجهت رغم توضيح ومناقشة ، إلا أن ذلك لم يكن بالقطع صحيحاً ، ذلك أن الرجل عاد بعد فترة للعمل العام ، بعد أن استوعب الدرس ، والأهم من ذلك أننى تمكنت من إرساء المبدأ .

بداية بالنفس تكون البداية ، إلا أن معاناة الخلاص ينبغى أن تنتقل إلى الأداء العام بالتدرج .

لا يكفى أن يكون فى السودان من يراعى نهج السودان وقيمه ، بينما ممثلون للسودان خارج السودان يخرجون عليه علنا ، كان ذلك مسار تفكيرى فى نفس الوقت تقريباً الذى توافرت فيه الأنباء عن عثرات لدبلوماسيين

سودانيين بتأثير الخمر فى الخارج ، كان العقاب مطلوباً ، إلا أن الدلالة كانت مطلوبة أيضاً .

الدلالة لمن هم ليسوا فى مواقع العمل العام فى الداخل وفى الخارج ، لمن هم غير ذلك ، للجموع للملايين ، للذين هم مع الإسلام ، إلا أنهم وطوال سنوات الاغتراب عن الإسلام اغتربوا عن قيمه . . . لماذا . . ؟ لأن ولاة أمورهم يجاهرون فى مسلكهم بما يخالفه ، الذين ساءتهم القيادة الرشيدة ومواصفاتها لم يدركوا ما قصدته منها ، أن يكون القيادى بعيداً عن مواضع الشبهات ، أن يمتنع لو أراد عن خمر وميسر وغير ذلك مما حرم عليه كمسلم ، ذلك إذا أراد أن يحتفظ بموقعه ، وإلا فإن الأمانة تقتضى أن يقول لا فيذهب ولا جناح عليه ، أو أن يقول نعم ويلتزم بما عاهد .

الدلالة المنسية فى هذا الإجراء أن تتسع قاعدة القدوة ، ألا تكون مقصورة على فرد مهما كان موقعه القيادى ، بل أن تكون القدوة بكل المؤسسة القيادية على مختلف مستوياتها .

القيـــادة الرشيدة كانت طلب التزام أعرف أن البعض التزم بها صدقاً ، وأن البعض تظاهر بذلك ادعاء ، وأن البعض حافظ واحتفظ بعاداته قبلها ومسلكه قبل صدورها ، ولكننى فى كل الحالات كنت أستوحى بنهج الإسلام ليسود بالقناعة لا بالإلزام .

ونهج الإسلام لا يبيح أخذ الناس بالشبهات ولا يقيم الحدود بغير بينة ، ولا يسمح بالاغتياب أن يكون دليلا وحجة ، كان يكفينى من القيادة الرشيدة وبها ، أن ما كان مدخلا للزهو ، أصبح مدعاة للخجل والتستر والكتمان والإخفاء ، كان يكفينى منها أنها أنهت ظواهر ومظاهر الزهو العلنى بما يغضب الله ، كانت غايتى أن يكون من الناس ، بعض الناس ، من يحاسبهم صغارهم على تناقضهم بين ما يعلنون وما يكتمون .

معاناة الخلاص مع القيادة الرشيدة ، أننى كنت أكاد أعلم يقيناً أن البعض خارج عليها ، إلا أننى كنت أدرك تماماً أن الأخذ بما أعلمه ظناً ، هو خروج على النهج الإسلامى بسموه وعدله وكماله وتمامه ، والذى يأمر بعدم أخذ الناس بالشبهات .

كانت معاناة الخلاص ما يكاد أن يكون استحالة إقامة الدليل على من خرج على مواصفات القيادة الرشيدة إلا بصريح اعترافه ، وتلك حالات لم أصادفها إلا مرتين .

مرة بالإعجاب أحمله وسأظل ، لقيادى قال لا أستطيع الالتزام بما يتطلبه فأعفيته وتابعته فإذا به يمتنع مرتين . . يمتنع عما نهت عنه القيادة الرشيدة طواعية ، ثم يمتنع بعد ذلك عن العودة إلى موقعه ، لأنه لا يريد أن يكون جزاء التزامه بشرع الإسلام عودة إلى موقعه أو مدخلاً للعودة .

ومرة بالدليل القاطع ، حيث اعترف من خرج على مواصفات القيادة الرشيدة بخروجه المقصود عليها . . . غير هؤلاء بعضهم صدق ما وعد ، وبعضهم ما زال لم يصدق ، وحسبي فى هؤلاء رأى أنفسهم فى أنفسهم ،

وحسبي فى هؤلاء ما ينكشف للناس من أمورهم ، آية نفاق ودلالة ضعف ، تنعكس على أدائهم فإذا بهم على البعد من مواقعهم . معاناة الخلاص كانت تعنى التدرج لظواهر بعضها فادح وبعضها فاجر إلا أنها إفرازات السنين .

• • •

الطائرة فى طريقها إلى السودان بعد زيارة عمل فى الخارج ، الوقت الطويل أغرانى وأغرى رفاقى . . رفاق الطريق بالمناقشة .

موضوع الحوار كان حول علانية الدعارة فى السودان ، طرحت الموضوع قاصداً لأعرف ردود الفعل بعد أن اتخذت القرار بينى وبين نفسى ، بل بعد أن حددت توقيت إعلانه .

رفاق الطريق كانوا ثلاثة ، واحد التزم بالصمت واثنان انبريا للحوار .

وحـــدى كنت محايداً حتى لا أؤثر فى مساره ، مع نهاية الرحلة كانت حصيلة الحوار على النحو التالى من جانبهم :

* إن الدعارة هى أقدم مهنة فى التاريخ ، وهى تكاد تكون ضرورة اجتماعية لاستيعاب الفارق الزمنى بين بلوغ الذكر وقدرته على الزواج .

* إن الدعارة العلنية هى صمام الأمان ضد مخاطر بديلة منها الانحراف ، ومنها الإفساد للمحصنات من النساء .

* إن الدعارة العلنية وإلغاءها لن يكون نهاية للدعارة الفعلية واستمرارها .

* إن الدعارة العلنية إفراغ لطاقات شباب ، إن لم يجد متنفساً لطاقاته الطبيعية فإنه حتما سيتجه إلى السخط السياسى بأنواعه ، والسخط الجنائى بمخاطره .

* إن أوطان التقدم فى عالمنا المعاصر لا تحرم الدعارة فلماذا نزايد على أنفسنا بما لا طاقة لنا به ولا صبر لشبابنا عليه .

● ● ●

من جانبى كانت زاوية الرؤية مختلفة :

هى ثورة تلك التى أقودها ، وهى ثورة تلزمنى بمواثيقها ، بمؤسساتها ، بمنظماتها ، بوضع الإنسان فيها .

هى ثورة ينص ميثاقها على الالتزام بالإسلام والشرائع السماوية .

هى ثورة ينص دستورها أن تهتدى بالإسلام والشرائع السماوية كمصادر للتشريع وتنظيم علاقة الإنسان بالإنسان فى ظله .

هى ثورة ينص دستورها على عدم التمييز بين المواطنين بسبب اختلافات من بينها الجنس بمعناه المزدوج .

هى ثورة تساوت فيها حقوق النساء مع حقوق الرجال بما لا يخالف شرع الله وشريعته .

هى ثورة ينتظم فيها جهد النساء فى العمل الوطنى ، فما بالنا بعد ذلك كله ، نراعى الرجل فيما يريد وعلى حساب المرأة فيما لا تريده ، وهل إرادة المرأة إلا كرامة المرأة حفاظاً على عرضها من أن يكون سلعة تباع وتشترى ، ثم كيف نمهد للنهج الإسلامى ونبشر به ونحرص على التزام الناس به قناعة والناس يرون الخروج عليه علناً .

صفوف متزاحمة أمام بيوت المتعة الرخيصة ، هل تكون تبشيراً بالنهج الإسلامى نهتدى به عملا قبل أن يكون فكراً ، جوهراً قبل أن يكون قولا لمزايدات القول أو ترف الوعظ وادعاء الوصاية . . . وكان القرار ..

قرار إنهاء الدعارة العلنية فى السودان .

● ● ●

مغالبة الخلاص هل انتهت . . ؟ كان هناك قبلها وبعدها مغالبة المزايدة على فجر أوشكنا بالجهد أن نبلغ مشارفه ، كانت إرادة الناس مطلوبة فى معركة التغيير .

٢ - خطوات على الطريق

النهج الإسلامى غاية مرصودة بمغالبة النفس وهى نفسها مغالبة الخلاص إلا أن الامتثال للقدوة ومهما اتسعت قواعدها قد يكون للإبهار لا للإشهار ، كقاعدة تتسع وتتسع لبناء مجتمع يسترشد بالإسلام نهجاً وقيما وسبيلا .

الطريق إلى هذه الغاية وإن كان زاده الفطرة ، إلا أنه موكول لمعرفة لا بمكونات حاضر نعيشه ، وإنما بمكونات تراث نستشرف بالأمل والعمل والتطلع والشوق دروبه .

كانت القراءة فى كتب التراث وسيلة ، وكانت القراءة فى إبداعات المجددين مطلوبة .

وكان السعى بما أنعم الله على أهل العلم زاداً ، وكان الحوار مكثفاً ومتصلا ثنائياً كان أو جماعياً ، بعضاً من المداخل للهدف العظيم ، إلا أن التاريخ نفسه كان متاحاً فى سنين عصر الدعوة ، ما كان للعلم الإسلامى رجال يختصون به ، وإنما مؤمنون جاهدوا واجتهدوا ، حاوروا وسألوا ، أفادوا واستفادوا ، فكان تراث الصحابة والرواة فى أيام صدر الدعوة وبدايات قيام الدولة الإسلامية الأولى ، كان المسلمون أنفسهم أصحاب علم وأصحاب تجارة ، وجنداً مجندة تذود عن دعوة الحق وتجاهد لانتشارها .

ما عرفت الدعوة فى انتشارها والدولة فى أوج ازدهارها ، من انعزل عن الحياة الدنيا أملا فى الحياة الآخرة ، فاكتفى أن يكون نصيبه من الأولى زاداً من العلم فى شئون دينه ، بل ما كان الاجتهاد إلا مجاهدة فى شئون الدنيا ، يستوعب الجديد من متغيراتها فيطوعه بالنص والقياس والاجتهاد ، بل ما تعددت المذاهب إلا بتعدد الرؤية ليس فى شئون الدين ، فأركانه مفصلة فى الكتاب ، وأحكامه مطبقة فى السنة ، بل كان الاجتهاد استيعاباً للجديد وما الجديد إلا متغيرات الحياة والتى مهما تشكلت فلا تخرج ضوابطها عن جوهر العقيدة وحدود الله وشرائعه ، فما ضاق الدين عن الحياة أبداً ، وإنما كان الدين للحياة دائماً :

قوله تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

سورة الجمعة : ٩

وللآية الكريمة دلالة عظيمة على الصلة الوثيقة بين الدين والحياة ، فلم يسبق تلك الآية فى الكتاب وما تلاها تحديداً للصلاة مرتبط بميقاتها مقترن بشكلها تجمعاً للناس وفى صلاة جامعة ، إلا ما ارتبط بالحج وتحديد ميقاته .

فإذا ارتبطت الدعوة للصلاة جامعة فى يوم الجمعة بدعوة للناس أن يذروا البيع قبلها ، وأن ينتشروا فى الأرض الله بعدها ، فما هذا إلا تمجيد للعمل والحياة ، تأكيداً للصلة الموصولة بين الدين والدنيا .

تلك رؤية استلهمتها بما قرأت واستوعبتها بما حاورت ، اطمأننت إليها ممن زادهم الله من عنده علماً ونورا .

من هؤلاء الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى ، الداعية الإسلامى الذى ما انقطع للعلم فابتعد عن العمل فهو المفكر والكاتب والمدرس والداعى والوزير أيضاً .

من قبله ما انقطع لشئون دينه من الصحابة والأجلاء ممن نعرف ، ما كان على بن أبى طالب ، إلا جندياً وناسكاً مجاهداً وعالماً ، وما كان عثمان بطهر المصاهرة والانشغال بتدوين الكتاب إلا بين الناس يكيلهم ويكتالهم فى تجارة الحلال ، وما كان عمر غير هذا وما كان ابن الوليد وأبو بكر إلا انشغالا بالدنيا وأمورها ، وإلا لما أقاموا العدل وأسسوا الدولة وانتصروا لدين الله فإذا الأمصار للإسلام ، وإذا كلمة الله فيها هى العليا .

ما انشغل السلف عن أمور الدنيا ، ولا احتكروا دون الناس علوم الدين ، وإنما جاهدوا واجتهدوا ، سألوا واستشاروا ، توسعوا فى الشورى للحد الذى أصابت فيه امرأة وأخطأ عمر كما قال عمر .

ما قرأت وما سمعت ، ما استوعبت وما حاورت ، كان عونى للنهج الإسلامى ، بعثاً للصحوة الإسلامية وتجديداً للحياة فى إطارها ، سندى فى ذلك فطرة الناس والتى ما غابت رغم طول غربتهم عن منابع دينهم الأصيل .

سندى فى ذلك أننى لم أكن وحدى ، كانت المؤسسات السياسية تشارك، كانت المؤسسات الدستورية تسهم ، كان الجديد من نظام الحكم يمهد الطريق ويفتح الأبواب ويعطى الضمانات . ضمانات الانتصار ساعة تحين الساعة .

الفجوة بين الأمل والعمل محسوبة ، حسابها ما جرى التمهيد به ، ولو قيس جهد التوعية بمؤسسات إسلامية شهد السودان مولدها وبارك السودان نشاطها وأسهم السودان فيها لكان من الممكن أن أعد وأحصى :

* مؤسسات تحفيظ القرآن الكريم ومسابقاتها السنوية والتى يتولى رعايتها رئيس الجمهورية .

* المركز الإسلامى الإفريقى ومقره السودان .

* معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها ، وهؤلاء مسلمون من غير العرب .

* جامعة أم درمان الإسلامية وتوسيع مناشطها ، والخروج بها من دورها الإقليمى إلى دور عالمى ، حيث استضافت غير مرة معسكرات الشباب الإسلامى باركها وشارك فيها رئيس الجمهورية .

* إعادة إنشاء المعهد العلمى .

* الاحتفال بالمناسبات الدينية فى مستوى الاحتفالات القومية .

* التوجه المتدرج للاعلام ليقوم بدوره فى التوعية الدينية بما يحجب ولا ينفر ، بما يجذب ويستقطب ويراعى مستويات الناس .

* السودان مقر المؤتمرات للدعوة الإسلامية ، السودان مشارك فى كل المؤتمرات الإسلامية ، السودان مبادر بالدعوة إلى إقامة اتحاد لبرلمانات الدول الإسلامية .

* ثم السودان خارج السودان ، قدر جهده يعطى من يحتاج لعونه فى مجالات التعليم الإسلامى والدعوة .

فى الداخل كانت الخطى تتقدم ؛ ولعلى هنا أفصل ما أقصده للمرة الأولى ، ذلك أن الناس كانوا قد استقبلوا بالدهشة ولا أقول بغيرها ؛ مقدمات طويلة تتحدث عن الإسلام ونهجه ؛ الإسلام وقيمه ، الإسلام ومبادئه فى كل خطاب يتناول شئون الناس وهمومهم .

كانت الآيات الكريمة مطولة تتصدر الخطب والخطابات ، وكان غيرها من الآيات الطاهرات مسك ختامها .

كان ذلك مقصوداً بمداه الطويل ، توعية للناس أو على الأصح تعبئتهم وتهيئتهم لما هو قادم ، ذلك أنه ما كان لنا أن نأخذ الناس بحدود دينهم دون أن يتعرفوا على جوهر دينهم ، بأنه للعدل وأنه لكرامة الإنسان وصلاح دنياه وآخرته .

ما يمكن أن يتناوله الحصر لخطابات دينية خالصة لرئيس الجمهورية قد يكون بالعشرات ، وخطابات تتصدرها القيم الدينية قد يكون بالمئات ، بالإضافة إلى جهد يتبلور فى كتاب هو « النهج الإسلامى لماذا ؟ » .

وقد اخترت للكتاب عنوانه عن قصد ، واخترت للكتاب محتواه لغاية ، أن يكون السؤال والمحتوى مداخل للوعى بضرورة النهج الإسلامى وحتميته .

ذلك فى مجال الفكر والدعوة ، ليس مرصوداً لشخصى فما أنا إلا جزء من مؤسسة قيادية شاركت وأسهمت وتجاوبت فى مختلف مجالات تخصصها .

فى الاتحاد الاشتراكى فى مختلف مستوياته ، فى الجهاز التنفيذى بمختلف تخصصاته ، فى الجهاز التشريعى والذى بادر وشارك وأسهم إسهاماً عظيما .

ذلك جهد محسوب لنظام بكامله وشموله ، والذى لم تكن مجرد التوعية بالكلمات والخطابات حدود دوره وإنما بالمشاركة الفاعلة والملهمة والتجاوب الفعال بالإجراء والإنجاز .

ولعلها تلك السنة الحافلة التى شهدت جولة قمت بها بتكليف من الجامعة العربية سنة ١٩٧٧ فى محاولة لصيانة التضامن العربى بعد زيارة الرئيس الراحل أنور السادات للقدس ، كانت الجولة مرهقــة بحجم حركتها ، مرهقة باختلاف أطراف الحوار حول ما جرى ، مرهقة بما رافقها وواكبها من مناورات بل ومؤامرات شاركت فيها أطراف عربية وأخرى دولية لإجهاض المبادرة ، وإنهاء حتى الأمل فى إمكانية الوصول للتضامن العربى .

جاءت المهمة والولاية الأولى على أبواب نهايتها ، ولقد كان شاغلى ألا يكون الشخص مهما كان دوره التاريخى هو موضع الاستفتاء ، كان المطلوب غير ذلك ، كان المطلوب إجابة لسؤال حول الصيغة السودانية من حيث تعدد ثقافات وعناصر ومعتقدات وهل تستجيب للاسلام نهجاً ، تتقبله وتتفاعل معه ، وترضى به تنظيما للحياة لا يخل بتوازنها وبمـا يؤكد التفاعل الصحى بين أطرافها .

كان المطلوب إجابة لسؤال آخر ، هل الفطرة وهى حقيقة متغلغلة فى الوجدان من الممكن أن تطفو فوق تراكمات الغربة عن النهج الإسلامى

والاغتراب عنه ؟ ثم هل هناك تناقض فى الفهم على الأقل بين مسار الحديث وخطى التقدم الاجتماعى الاقتصادى والالتزام بالنهج الإسلامى ..؟؟

هل مثل هذا الفهم يختلط عند الناس ، أم أن الناس أقرب إلى فطرتهم ..

كانت لجنة التضامن العربى التى أترأسها تتطلب منى حركة متصلة على امتداد المنطقة العربية من محيطها إلى خليجها ، ولقد كان ذلك يأخذ من الوقت ما كنت أريده تفرغاً لما أريد ، خاصة أن ما أريده لم يكن ينفصم عن رؤيتى لإيقاع الحركة الاجتماعية والاقتصادية السريعة فى بلادى .

كانت الثورة قد أعطت قدر طاقتها ففاض عطاؤها عن حدود قدرتها .

ذلك محسوب وسيظل محسوباً بعض الوقت على التوسع الهائل فى التعليم وما نتج عن ذلك من إيجابيات غير منكورة ، وسلبيات لا يمكن التستر عليها أبداً ، هجران للقرى وتكدس فى المدن والعواصم ، كنتيجة لفهم خاطىء عن تناقض خاطىء بين التعليم والعمل اليدوى زراعياً كان أم حرفياً .

ولقد كان هذا يعنى صداماً اجتماعياً بين قيم البساطة الوافدة وقيم المدن المستقرة ، وكان ذلك يعنى منافذ للنشاط الاقتصادى بعضها مداخل للانحراف .

كانت الثورة قد أعطت للانتقال والاتصال معابر جديدة ، ومع دور لهما فى تحقيق التفاعل والتجانس وبناء الأمة ، إلا أنه كان يعنى أيضاً اقتحاماً لنمط جديد للحياة بغير تأهب ، والذى كان يعنى بالتالى صداماً بين أنماط سلوك وأنماط سلوك ، تعزز الجريمة أو على الأقل الأخطاء والخطايا .

كانت الثورة قد اقتحمت خمود الريف بمشروعات للتنمية كبيرة

وعملاقة ، ولقد كانت مراحل التأسيس لهذه المشروعات نفسها مداخل الخطر .

فمع إيقاع للنشاط والحركة يختلف عن مناشط للرعى هى الصبر ، ومناشط للزراعة هى الانتظار ، فان الحديد كان يغرى بهجران القديم ، بالإضافة إلى أن الحديد كان يعطى أسرع وأكثر وفى كل الحالات بجهد أقل .

ما رأيته ورويته عن تغيير فى السلوك والمظهر فى بعض القرى والأقاليم ، كان مدخلا للزهو والجزع فى وقت واحد ، الزهو بايجابيات التغيير ، والجزع من سلبيات لا تحاصرها قيم دين ولا تعصمها .

كانت الثورة قد أنهت الطائفية كمؤسسات سيادة قاهرة للإرادة ، وكانت الثورة قد أنهت الإدارة الأهلية كسلطة محلية بل كسلطة موضوعية تمارس القهر ، إلا أن كلا المؤسستين كان لهما من النفوذ ما يضبط السلوك الفردى على الأقل .

ومع غياب الوعيد ووعد بالجنة وسلطة تمارس القهر ، فإنه حتى مع حرية الإرادة ، يبقى مطلوباً ما يضبط سلوك الناس بقناعتهم ، لهذا كان من الضرورى والطبيعى الاتجاه لفطرتهم ، وليست فطرتهم سوى جوهر دينهم وعقيدتهم .

ما شغلنى أيضاً فى تلك الفترة ، أن الحركة بإيقاعها فى السودان كانت قد ازدوجت . .

مداخل إلى السودان تتمثل فى هجرة وافدة من أقطار مجاورة ، ولا أقول فيها سوى أنها قيم وعادات وتقاليد تختلف عما ألفنا .

ومخارج من السودان تتمثل فى قدرة الجذب الجبارة للدول البترولية خاصة بعد ارتفاع أسعار النفط ، لم يكن الخطر كامناً فى كفاءات نفقدها ، وإنما كان الخطر فيما يفد منهم ويفد معهم .

توفرت قدرة شرائية نابعة من قاعدة إنتاجية من الخارج إلى الداخل بغير تمهيد ، ولذلك فقد صادف حجم الإنتاج الوطنى قدرة شرائية تتجاوزه ، فكان التضخم بكل مخاطره ، بالإضافة إلى أن قدرة شرائية بغير منافذ تعنى التسرب فى بدائل ليست كلها الفضائل بل نقائضها .

ولقد كان مطلوباً مع ذلك كله ما يعصم الناس ويبصرهم ، ولا يعصم الناس إلا فطرة الناس وهى كريم عقائدهم .

• • •

أيام الولاية الأولى تتسرب والرحلة الطويلة تتواصل .

وفى إحدى مراحلها وكانت الإسكندرية ، وصلت قبل المساء ، قابلت الرئيس الراحل السادات فور وصولى ، تبادلنا الرأى حول حصاد مهمتى ، طال بنا السهر ، اقترح أن نواصل اللقاء فى صباح اليوم التالى .

قصر رأس التين حيث قضيت تلك الليلة أقرب ما يكون إلى قصور الأساطير .

ممرات طويلة ، غرف واسعة ، أسقف مرتفعة ، قاعات تتصل بقاعات ، فشرفات تطل على البحر العريض .

الإرهاق والليل لم يشغلنى عما كنت مشغولا به .

الورق والقلم والحجرة ، بل الورق والقلم والشرفة خرجت أسعى إليها ، تابعوا خطواتى ، تقدمت فتقدمت ، تحرجت كما تحرجت من السؤال عما أقصده ، امتد بنا الطريق عبر القاعات الطويلة ، وأخيراً وجدتها ، شرفة تطل على البحر ، وعلى مقعد وأمامى منضدة صغيرة ، امتد بى الليل حتى فوجئت بالشمس وأنا أوشك أن أنتهى ، واصلت وانتهيت وعدت إلى حجرتى ، صليت فجراً ودعوت رباً ، ونمت لساعات .

• • •

رفاق الرحلة سمعوا بطول السهر ، سألوا عن سره فأجاب بعضهم بعضاً ، قد يكون الأرق .

فى الخرطوم يسألنى عمر الحاج موسى رحمه الله وغفر له ، يسألنى عن خطاب لرئيس الاتحاد الاشتراكى فى المؤتمر القومى حول برنامج لمرشح لرئاسة الجمهورية للولاية الثانية .

سألت . . باعتبارك أميناً للتنظيم ماذا أعددت لنفسك . . ؟

بسماحته رحمه الله وغفر له أجاب ، بأنه سوف يستوحى فطرة السودان وأهله .

وأجدنى أقول . . وأنا أيضاً . .

بالصدق قد استوحى بالفعل عمر الحاج موسى فطرة السودان وأهله فى خطابه التاريخى أمام المؤتمر وهو يعلن نتائج انتخاب رئيس الاتحاد الاشتراكى السودانى والمرشح لرئاسة الجمهورية ، والذى شاءت إرادة الله أن تكون أجمل وأنبل وأروع كلماته ، هى آخر كلماته لتبقى خالدة خلود أصالة وعمق انتماء .

قبل ذلك كنت قــد استوحيت فطرة السودان وأهله وما فطرتهم إلا عقيدتهم .

والذين تساءلوا يومها ، لماذا طرحت برنامج تلك الولاية على الأمة وليس عبر المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى ، ولماذا اخترت له أن يكون عبر لقاء المكاشفة للشعب كله ، وليس لمن يمثلون الشعب فى المؤتمر القومى ، لعلنى الآن والآن فقط أقول لهم أن ذلك حدده محتوى البرنامج والذى صاغه ليل السهر قرب البحر فى قصر رأس التين فى الإسكندرية .

محتوى البرنامج والذى قرأته للمرة الثانية ساعة إلقائه على الجماهير فى إطار برنامج اللقاء الشهرى كان طلبى للاستفتاء على الالتزام بالنهج الإسلامى ، أكثر منه طرحاً لشخصى مرشحاً كرئيس للجمهورية .

كان قصدى أن يكون الطرح مباشراً بغير وسيط ،كان قصدى أن يكون التوجه كاملا للناس فى أمر يمس فطرتهم ، كانت غايتى أن أقول للناس : النهج الإسلامى وليس شخصى ، وحتى : النهج الإسلامى بغير شخصى ، وكان ذلك متاحاً فى التخاطب الشامل مع الأمة ، وليس بالسهل أمام تجمع محدود ، ولو كان ذلك فى مستوى المؤتمر القومى .

ذلك أن الجزء لا ينوب عن الكل فى كبريات الأمور . تعمدت أن يكون التخاطب مباشراً كما تعمدت أن يكون الطرح للنهج الإسلامى كبرنامج للولاية الثانية واضحاً ، فاستشهدت بآيات من الكتاب ، وأحاديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعت التزامى بدينى مقدماً على كل اعتبار .

ولما كان الاستشهاد بالنص يوضح المغزى ، فإن طرح بعض فقرات من برنامج الولاية الثانية قد يجدى ويفيد ، ومن فقراته :

* أن الممارسة إذا صادفها النجاح فى إطار منهج واحد وعبر فكر واحد قد تغرى بالجمود عند هذا المنهج ، رغم أن الجمود لا يفرز سوى الفشل ذلك أن الظروف لا تتجمد ، والمتغيرات تتطلب الإبداع والابتكار .

* إن الولاية أمر خطير ، وأن الولاة فى غاية الخطر ، فإنهم إن قاموا بما يلزمهم من حق عباده تعبوا وتعبوا ، وإن ضيعوا ذلك هلكوا وعطبوا .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم تحرصون على الإمارة وأنها ستكون ندامة يوم القيامة » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشفق عليهم فأشفق عليه ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فأرفق به » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« ما من وال على الناس إلا جئ به يوم القيامة مغلولةيداه إلى عنقه ، فكه عدله ، أو أوبقه جوره » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« ليودن رجال لو أن زوائبهم معلقة بالثريا ولم يلوا من أمر الناس شيئاً » .

* إننا أيها الأخوة ندرك أنه من العسير بل من المتعذر أن أسير فيكم بسيرة أهل العدل والإحسان المجافين للظلم والعدوان ، ولكن يتعين

على إذا كنت حريصاً أن أبتغي رضوان ربى وثوابه ومشفقاً من سخطه وعذابه ، أن أكون فى سيرتى وفى جميع أفعالى وأقوالى مقتدياً ومتأسياً بأئمة الحق والهدى والعدل والإنصاف ، ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، باذلا ما يمكننى وما أستطيعه من غير ميل إلى اتباع الهوى وإيثار الدنيا على العقبى ، وأقل ذلك أن أكون فى سيرتى فى جميع أمورى إلى ولاة العدل والإحسان أقرب وأشبه ، وعن ولاة الجور والطغيان والظلم والعدوان أبعد ، وسأكون معترفاً بتقصيرى ، وخائفاً مشفقاً على نفسى من تخليطى وتفريطى غير مغتر ولا معجباً بنفسى ، ولا ظاناً ولا متوهما أن لى قدماً مع ولاة العدل والحق والإنصاف ، فلعلى بذلك أخلص وأنجو ، وإن كانت النجاة والخلاص من أبعد الأشياء وأعزها فى حق ولاة وقادة هذه الأزمان والأعصار ..

* عندما أشعر بأنى قد أعجبتنى نفسى واغتررت بربى وقبحت سيرتى وساءت تصرفاتى وذلك من شؤم تلبس الشيطان وسوء خداعه وسعيه الخفى فى هلاكى ، وإن شاهدت تقصيرى وعدم القيام بما يجب على من حق ربى وحق من استرعيتهم من عباده وتوليت أمرهم من خلقه ، فإننى أعاهدكم أن أترك الولاية راضياً مختاراً وأرجع إلى الله سبحانه وتعالى مستغفراً لذنوبى معترفاً بالاقتراف والتقصير وعازماً على التوبة إلى الله سبحانه وتعالى .

* أعاهدكم إذا وليت عليكم أن أتبصر فى الدين وأتعلم ما لابد لى من علمه من علوم الإيمان والإسلام لأزداد معرفة بما فرض الله على من طاعته ، وبما حرم على من معصية ، وبما أوجب سبحانه وتعالى من حق ربوبيته فى نفسه وفى حق من توليت أمرهم من عباده ، إننى أدرك أن العالم يعرف ذلك ويهدى إليه والجاهل مصدر كل شر وضياع .

* سأكون أحرص الناس على إقامة فرائض الله واجتناب محارمه وتعظيم شعائر دينه وحرماته وسآمر الناس بذلك وأحثهم عليه ، فإننى مقتنع بأن الله لم يولنى أمر عباده إلا لأقيم فيهم دينه وما أمر من طاعته وحرم من معصيته ، أما أمور الدنيا ومعاشها ورزقها فهو تابع لذلك ولاحق به والأصل هو السعى فى إقامة الدين وما أمر الله فى عباده .

* سأحرص على إزالة المنكرات ومحو آثارها وسوف لا أمكن أحداً من التظاهر بها ، ومن أظهر من ذلك شيئاً سأزجره أبلغ الزجر وأعاقبه أشد العقوبة حسب ما يقتضيه الشرع أو الدستور أو القانون ، إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

* سأبذل قصارى جهدى لأجعل كل شخص يعدل فى رغبته الخاصة بين أهله والأولاد والعاملين تحته وقد قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ما يلزمهم من طاعة الله وفرائضه واجتناب محارمه ويحملهم على القيام بذلك فعلا أو تركاً ، وعليه ألا يظلمهم فى حقوقهم التى جعلها الله عليه لهم ، ألا يمكن بعضهم من ظلم بعضهم وأن يأخذ للمظلوم منهم من ظالمه .

* إن التنمية مدخل للرخاء إلا أن الرخاء قد يؤدى إلى المزيد منه وقد يؤدى إلى إجهاض آثاره إذا ما تسرب عائده إلى ما لا يفيد الفرد وأسرته ومجتمعه، ومن هنــا فإن تحديد مسالك الاستهلاك لا يمكن أن تحددها قيود بغير الالتزام بالقيم والاعتصام بالدين والامتثال بأوامره والابتعاد عن نواهيه وهذا دور مناط بالدولة ومؤسساتها الدستورية والسياسية بالإضافة إلى أنه واجب الأسرة كذلك .

* اللهم اجعلنى من الذين قال فيهم سيدنا على كرم الله وجهه « أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله على

حججه حتى يؤدوها إلى نظائرهم ويزرعونها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعبه المترفون ، وأنسوا بما استوحش به الجاهلون ، هيجوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى فى بلاده ، ودعاته إلى دينه .

• • •

كانت تلك خاتمة برنامج الولاية الثانية والذى أردته أن يكون شاهدى على الناس وأمام الناس إذا أجازوه ، أو أن يكون طموحى قد جاوز رؤيتى .

فالأمر لله ولهم ، فما أردت أن أقضى فى أمرهم بغير مشورتهم ، ولا أتجاوز مطامحهم برؤية طالت مطامحى وحدى .

إلا أن الناس وفطرتهم كانت أصدق وأسبق ، ومع هذا فلم يكن ذلك هو آخر الخطوات . . بعده بدأ درب المشقة .

• • •

٤ - درب المشقة

كان النهج الإسلامى برنامجاً للولاية الثانية ، ثم النهج الإسلامى لماذا .. ؟ كتاباً ، بالإضافة إلى جهد اتصل عبر السنوات لإحياء ما تراكم عليه الزمن .

كان ذلك بكمه على الأقل لا يتعادل بل ولا يتقارب مع اجتهادات البعض عبر السنين لإحياء التراث الإسلامى .

سنوات طويلة تلك التى كانت قد انقضت على جهود فردية ، وأخرى جماعية ، حاولت بحسن النوايا ، إلا أن تصادمها مع تراكم السنين ومتغيرات العصر وإيقاع الحياة الجديدة ، لم يكتب لها فى أقل القليل النجاح الكامل .

فترة زمنية شهدت صراعاً بل بلورة صراع وهمى بين العلم والدين ، وبين الدين والعدالة الاجتماعية ، بين المحتوى الاشتراكى للإسلام وبين كلمة الاشتراكية ككفر وزيغ ، حتى تخيل البعض أن الإسلام وهو العدل الاجتماعى المطلق يناقض الاشتراكية أو يعاديها ، سنوات هى طويلة ، تلك التى جمدت مفهوم البيعة كأنه تناقض مع الديمقراطية ، ومفهوم الشورى وكأنه غير توسيع لقاعدة المشاركة .

سنوات طويلة تلك التى كانت الرايات المرفوعة مع الدستور وضده ، كأنها نفسها مع الإسلام وما يخالفه ، شارك فى ذلك الكل بغير استثناء ، فرق ادعت الانحياز للعلم وكأنه مناقضة للدين ، وفرق رفعت رايات الدين

وكأنه خصومة مع العلم ، بل كانت قمة المأساة فى تطوير الصراع فإذا التحديث كفر وإذا الدين رجعية .

تلك ملامح من صورة سادت وصادفت النهج الإسلامى دعوة ، والقيادة الرشيدة تطبيقاً ، والتمهيد للغاية تدرجاً وتمهلا .

كان هناك من يقاوم باسم التحديث ولكنه لا يعلن ، وكان هناك من يزاود فيطالب ويطلب ما لا يقل عن إلغاء الحاضر والعودة للزمن القديم ..

من قاوم ولم يعلن ، فلقد كان مظهره غير مخبره ، وما يظهره غير ما يخفيه ، ولأن التعامل مع الأقاويل خطأ ، وأخذ الناس بالشبهات خطيئة ، فلقد كان العسير هو تحقيق التعادل بين ما يدعو إليه النهج الإسلامى والقيادة الرشيدة ، وما يتناقله بعض الناس عن بعض الناس .

كانت هناك الشائعات تبالغ فى رسم الصورة وحكاية التفاصيل ، والقسم الغليظ بأن ما يقال حدث وقد حدث وبأدق التفاصيل ، بل أن التفاصيل كادت تكون تسجيلا حرفياً للكلمة والفعل والإشارة ، كأن الراوى كان طرفاً فيما حدث أو شريكاً فيه ، الشائعات تزايدت بما يخدم الهدف ، والاتهامات قد بالغت تحقيقاً لقصد .

ألا يتطابق ما ندعو إليه مع ما يمارس ، أن تسقط مصداقية التمهيد للنهج الإسلامى والقيادة الرشيدة فى سلوك قيادات .

كان الدرب هو درب المشقة . . . لماذا . . ؟ لأننا لو أخذنا الناس بما يشيعه الناس لكانت الهاوية ، ولو تركنا للناس الحكم على الناس بغير بينة ، لكنا إلى الظلم أقرب ، وعن النهج الإسلامى أبعد ، وعن حدود الله كما حددها الله اغتراباً وغربة .

كان الانسياق وراء شائعات من هذا النوع خطراً ، إلا أن تجاهل القصد من مثل هذه الشائعات أخطر ، الحل كان فى المواجهة ، ما يقال لا يتسرب إلى بئر اللامبالاة ، ما يقال يكون للمجابهة والمصارحة والسعى إلى عدل لا تطوله شبهة ظلم ، وذلك عند الله أكرم .

حادثان . .

منهما ما واجهت به الناس علناً رواية لما حدث وتناقلوه ، ما حدث وتحققت قدر وسائلى منه .

أقاويل جابهت بها صاحبها ، بعضها بدليل كنت أملكه ، وبعضها بقانون أيامها لم يعاونى .

فى بريد اللقاء الشهرى تلقيت رسالة من مواطن يتحدث فيها عن ممارسات فرد ينتمى لأسرة لها مكانة دينية محدودة فى منطقتها ، ولم يكن الخطير فى الرسالة إلا دلالتها ، ممارسة لما يخالف الدين تحت راية الدين وفى ظل قداسته ، ولأنها رسالة بغير توقيع ، فلقد كان الأقرب إلى المنطق أن أهملها ، إلا أننى لم أفعل .

ذات صباح كانت الرسالة أمامى ، وفى مواجهة من وجهت إليه الاتهامات ، تعمدت استدعاءه وتعمدت اطلاعه على الرسالة ، ولم يكن هدفى من ذلك عقاباً وإنما أردت له أن يعلم بمضمون اتهامه ، فإذا كان باطلا فلا جناح عليه ، ولو كان يعرفه فى نفسه لردع نفسه بعدما انكشف أمره ولو بغير دليل .

كنت أرجو أن أحفظ للدين هيبته ، وأن أحافظ عليـــه من أدعيائه ، لو كانوا بأفعالهم غير ملتزمين به ، ثم إننى أردت ألا تكون الدعوة للنهج

الإسلامى كلمات تقال ، وإنما ممارسات ومحاسبة ، ما لم يعينى القانون عليه ، بل ولا يسندنى الشرع فيه ، فواحش إن رويتها كما سمعتها لـكان فاحش القول مقارباً لفاحش الفعل ، من ذلك محارم انتهكت ، بل وحرمات تجاوزها عقل بغير وعى ، فإذا ما لم يحله الله أحل لنفسه ومع من هن أقرب إليه من نفسه ، فوجدتنى لا أجد فى القانون ما يساندنى ، بل ولم أجد فى الشرع ما يقرنى عقاباً أطلبه ، مادام السند مفقوداً والدليل غائباً وليس حاضراً إلا واقع الحال ، وما كان واقع الحال فى هذه الحالات إلا خروجاً على النهج الإسلامى قيمه ومبادئه ، غاياته وأهدافه ، مع ذلك فلقد كان الطريق ما يزال طويلا .

كان الالتزام وليس الإلزام مطلوباً ، كانت القناعة كقاعدة للالتزام بل وللإلزام أيضاً هى ضمانة التوفيق فيما سألت الله أن يعينى عليه ، فقد كنت أخشى أن يستجيب الناس رغم إرادتهم ، وفى ذلك إكراه على نهج دين قالت آيات كتابه « لا إكراه فى الدين » .

لذلك كان التمهيد والتدرج مطلوباً رغم مزايدات فى الداخل وأخرى من الخارج ، لعل أبرزها ما يسمى بالثورة الإسلامية فى إيران ، وبغير دخول فى تفاصيل عن المذهب الشيعى قربه أو بعده عن النهج الإسلامى الأصيل ، فإن فكرة الإمام الغائب والحاكم المطلق ، وإرادة الفرد موصولة بإرادة خالقه ، كل ذلك لا يعرفه الإسلام ولا يقره .

كان ما يسمى بالثورة الإيرانية ، تدق أجراس المزايدة ، ينعكس صداها فى الداخل حتى عند بعض أهل السنة ، فى وقت كنا نرى فيه الخطر كل الخطر على الإسلام من فرق المزايدة وإذا بالأمور تتزايد وتتطور فى إيران ومن إيران .

فى إيران من الحرس الثورى بإرهابه إلى حد القتل بغير بينة ، والتكفير بغير دليل ، والهوس باسم الدين يصوغ قتلا ودماراً وإعداماً حتى للأطفال .

ومن إيران ، فإذا بالسلطة الجديدة تدعى أنها للاسلام وحدها وأن غيرها فى كل أرض إنما هم كفار وفجرة ، صدرت دعوتها أو حاولت ، كثفت حملاتها بل جندت جنودها فإذا المسلمون يواجهون المسلمين ، فى ظل شعارات عرقية لا يعرفها الإسلام ولا يقرها ، فإذا عرب العراق فى مواجهة مع أهل فارس ، وإذا بإسرائيل تدمر المفاعل العراقى فى وقت يتهدد فيه العراق خطر الغزو الإيرانى ، وإذا بأرض عربية جديدة يحاصرها خطر جديد ، باسم سيادة العنصر وتميز الثقافة مرة أخرى .

ولم يكن هناك بد من الالتزام الإسلامى والقومى فى وقت واحد ، الالتزام الإسلامى والذى حرض المسلمون على أن يكونوا ضد الفئة الباغية ما لم تستجب إلى السلم وتجنح له ، الالتزام القومى مادمنا التزمنا باتفاقيات الدفاع العربى المشترك ، وما دام السودان قال نعم مع الإجماع فى قمة فاس حول هذه القضية .

ولقد رأى البعض فى التزام السودان الإسلامى والقومى خروجاً على النهج الإسلامى الذى تدعو له الثورة وتمهد له .

● ● ●

ومع ذلك فقد استمرت خطانا على طريق نهدف إليه ، كان الحكم الشعبى مرحلة على طريق هذه الغاية ، كان تقسيم المديريات خطوة إليه ، ثم كان الحكم الإقليمى أقرب الخطوات إلى الهدف الكبير .

كانت القناعة والالتزام مطلوباً ، وما كان ذلك ممكناً بغير إرادة حرة للناس تصوغ قناعتها ، وتحسم أمرها بغير شبهة وصاية .

وهكذا أثمرت الدعوة للنهج الإسلامى أولى ثمارها الملموسة فى قرارات للقاعدة وعلى مستوى المديرية ثم على مستوى الإقليم .

صدرت قرارات منع الخمر فى مديرية كسلا ، ثم صدرت قرارات منع الخمر على مستوى مديرية جنوب دار فور ، ثم توالت القرارات على المستوى الإقليمى بعد قيام الأقاليم ، عبرت الإرادة الشعبية عن إرادتها ، صاغت قراراتها ، ثم ألزمت بما قررت ، ذلك لأنها نفسها صاحبة القرارات ولأنها نفسها أقدر على تطبيقها .

تحول النهج الإسلامى من دعوة إلى حركة ، ومن توجيه إلى قرار ، إلا أن التسرع فى كل الحالات كان مرفوضاً ، كانت العوامل الجغرافية لها دورها وكان ينبغى أن تراعى ، كانت العادات الاجتماعية لها تأثيرها ، وكان ينبغى ترويضها ، كان التسرع يعنى الإجهاض ، فما أسهل صدور القرار وما أفدح ثمن الاستخفاف به عند استحالة تنفيذه .

ذلك خطر محقق إلا أنه أخطر فيما يمس الدين والعقيدة .

• • •

الخرطوم تعيش ما يقارب الأزمة السياسية ... تشخيص جرىء للوضع الاقتصادى فى البلاد تضمنه بيان إلى الأمة فى اجتماع لقيادات العمل الوطنى .

إجراءات لا تخلو من خشونة أملتها ضرورات اقتصادية أعلنت عنها فى نوفمبر وابتدأ تطبيقها فى يناير ، فانفجرت تظاهرات طلابية ، ولأن الفارق بين المصارحة للقيادات والأمة بهذه الإجراءات وتوقيتها والتحرك المعارض لها كان بضعة أسابيع ، فلقد كان مطلوباً من قيادات العمل الوطنى أن تطرح رأيها فيما جرى ، أسبابه ودوافعه ، دعوت لاجتماع موسع لكل

القيادات ، ولأنه اجتماع تعمدت عقده فى ظل الأزمة ، فلقد كان حيوياً وفعالا وفيه نقد للذات جنح فيه البعض إلى ما يشبه التجريح والتشهير بالثورة .

خلال عقد جلسات هذا الاجتماع الساخن أصدر مجلس منطقة أم درمان قراراً بمنع الخمر فى حدود منطقته ، القرار من حيث الشكل تجاوز اختصاصات مجلس المنطقة ، كما أنه من حيث إمكانية التنفيذ يصل إلى حد الاستحالة .

أم درمان ترتبط بالخرطوم بكوبرى ، وترتبط بالخرطوم بحرى بكوبرى ، والعاصمة بمدنها الثلاث متداخلة إلى حد التطابق ، ولذلك فإن القرار لم يكن مهدداً بالفشل ، بل إنه كان الفشل نفسه ، لا للقرار ومن أصدره فحسب ، وإنما لمحتوى القرار وما يهدف إليه ، وهذا هو الأخطر .

كان منع الخمر فى أم درمان يعنى المزيد من إباحتها فى الخرطوم والخرطوم بحرى ، وهكذا يتهاوى القرار وغايته ، والأفدح أن يتهاوى القرار ودلالته .

الأزمة السياسية تتفاعل ، وضغط الإجراءات الاقتصادية ثقيل ، ومع ذلك فلقد كان الانحياز للمبدأ والجوهر على حساب الشكل بل وعلى حساب المخاطر .

أبطلت بصلاحياتى كرئيس للجمهورية قرار مجلس منطقة أم درمان ، فتوهجت على الفور جمرات المزايدة إلى حد استجلاب اللعنات علناً والاتهام بالخروج على الإسلام من فوق بعض المنابر ، ولقد قال من قال إننى اخترت الوقت غير المناسب للقرار غير المناسب ، وأننى أفتح الباب أمام المزايدة الدينية ، إضافة إلى المزايدات السياسية التى كانت تشهدها قاعة الصداقة ، إلا أننى كنت مع المبدأ وله ...

ألا يساء إلى النهج الإسلامى الذى أعلنته الثورة والتزمت به مهما خلصت النوايا ومهما كانت المخاطر ، كانت الموازنة صعبة إلا أن المعادلة لم تكن عسيرة ، ما دمنا نعرف متى نبدأ ، بعد أن عرفنا كيف نبدأ ، النهج الإسلامى فكراً قد تأصل بتركيز الدعوة إليه والنهج الإسلامى ممارسته قد تأكدت بالالتزام الجزئى بها على مستوى القيادة اجتهاداً بأن تكون قدوة ، وعلى مستوى القاعدة التى استخلصت لها الثورة إرادتها فصاغت لنفسها قراراتها وفقاً للنهج الإسلامى والتزاماً به .

يبقى بعد الجزئى ما هو كلى . . .

كانت اللجنة الشعبية الممهدة لتشكيل اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى السودانى قد استمعت وناقشت وأضافت إلى ما يؤكد استمرارية النهج الذى اختطته الثورة حفاظاً على مبدأ التنظيم السياسى الواحد ، تمسكا بصيغة التحالف ، توجها للالتزام الكامل بالنهج الإسلامى .

الاتحاد الاشتراكى السودانى كان قد أسقط العمل الديوانى واستلهم الإراده المباشرة للجماهير بالندوة والحوار واللقاء المفتوح . . . فصاغت الجماهير برنامجها للعمل السياسى الشامل ، طرحته على المؤتمر القومى الرابع للاتحاد الاشتراكى السودانى فأقره ، جرى الاستفتاء على رئيس الجمهورية فى إطاره ، باعتباره برنامجه الملزم .

ماذا فى البرنامج السياسى الشامل . . ؟ ؟

* كان تأكيداً على سلامة خيارات الثورة الأساسية واستمراراً لها وبها .

* كان تقنيناً شعبياً للامركزية كنهج للحكم كما أقره الدستور ودعما لمؤسساته والمتمثلة فى الحكم الإقليمى .

* كان العدالة الناجزة .

* ثم كان النهج الإسلامى ركيزة لبرنامج العمل السياسى الشامل وفى كل أبوابه .

وهكذا تحولت الدعوة من نطاق الفكر والتبشير والتمهيد والإنجاز المحدود ، إلى تكليف جماهيرى شامل ، وهو تكليف عبر عن قناعة ، وقناعة أكدت أن سنوات الإعداد أعطت ثمارها كما أكدت أن رشد الممارسة مدخلنا إلى التعميم .

ولكن بماذا نبدأ . . . ؟؟

• • •

ظلت قضية التشريع فى السودان مشكلة تطبيق قبل أن تكون جهد تعديل أو جهد إضافة .

القوانين السودانية رغم أنها فى مجملها قد استرشدت بالنهج الإسلامى والشريعة الإسلامية ، إلا أنها تأثرت فى مجال الإجراءات بالقضاء الإنجليزى وروافده خاصة القضاء الهندى ، يرجع ذلك إلى سيادة مبدأ الفصل فى القضايا بالقياس والرجوع إلى السوابق فى القضاء الإنجليزى ، ويرجع ذلك إلى التأثر بأسلوب فى الممارسة تميز به القضاء الهندى ، ظل يمارس تأثيره فى السودان عن طريق القضاة الهنود قبل الاستقلال ولسنوات بعده ، بالإضافة إلى نوعية التعليم القانونى والمتأثر عموماً بالنموذج الغربى . .

الفارق النوعى فى طبيعة الإجراءات الملازمة لتطبيق القانون بين القوانين الوضعية والتشريع الإسلامى ، هو ذات الفارق فى الهدف .

فبينما تكون الشريعة الإسلامية تستهدف أن تكون زواجر للجماعة ، تركز القوانين الوضعية على ردع الفرد وعقابه .

تستهدف الشريعة الإسلامية رفع الظلم بما لا يتناقض مع الحق الطبيعى فى التعويض ، بينما القوانين الوضعية تستهدف التطبيق الحرفى لنصوصها بغض النظر عن الطرف الثالث الغائب ، وهو الطرف المضار من الفعل المعتدى به على المال أو على النفس ، وبينما القضاء هو الركن الأساسى فى النهج الإسلامى كركيزة للحكم وشرعية للسلطة ، فإن القضاء بغير النهج الأسلامى مجرد واحد من السلطات يستلزم فصله عنها ، وحياده بينها ، وانعزاله عن دوره الأساسى كواحد من أهم أركانها . . . ذلك أن دوره فى إطار النهج الإسلامى هو تطبيق شريعة الإسلام بشمولها الجامع من حيث هى تنظيم للحياة فى كل جوانبها وبكل جوانبها . . .

من هنا تكون البداية إذن . . العدالة الناجزة . . تلك التى أفرد لها برنامج العمل السياسى الشامل أحد أبوابه ، وتلك التى يحقق بها البرنامج السياسى الشامل التحول العظيم للالتزام بالنهج الإسلامى فيما يخص الفرد والمجتمع ، حركته وتطوره وغايات مساره .

العدالة الناجزة كتكليف من التنظيم السياسى ممثلا فى برنامجه ومؤتمره القومى والقرارات المفصلة لقيادته المركزية ومكتبها التنفيذى ، كانت تعنى نهاية مرحلة التمهيد للنهج الإسلامى بالفكر والقول والتطبيق المحدود إلى مرحلة التطبيق الشامل .

هكذا طرحت استراتيجية العدالة الناجزة فى إطارها الإسلامى ، وهكذا تم طرحها فى البيان التفصيلى حول مسارها وإنجازها أمام القيادة

المركزية ، ثم هكذا كانت القوانين المدنية والجنائية استلهاماً مباشراً من الشرع الحنيف والشريعة الإسلامية بسماحتها .

ولقد يقال أن ذلك هو آخر الطريق . . ولكنني عن قناعة أقول أنه بدايات بدايته .

ذلك أن النهج الإسلامي حتى فى صدر الدعوة لم يكن تشريعاً وإنما قبل ذلك قناعة إيماناً ومخافة الله من ظلم يقع .

كذلك كان نهج الأوائل وصالح السلف ، والذين ألزموا أنفسهم بحدود الله فما حادوا عنها تطرفاً ومزايدة ، فما كان منهم فى موقع القضاء فى الناس إلا تشدداً فى الحق حتى ينصره ، على الظلم حتى يرفعه ، على البينة حتى تصل إلى حد اليقين ، على الشبهة ولو توافرت فإنها لا ترقى أبداً إلى موقع الدليل .

ما كان صالح السلف فى موقع القضاء فى الناس إلا التزاماً بالنهج الإسلامى من آدابه وقيمه ، فلا تجسس ولا اغتياب ، ولا نميمة ، لا أخذ للناس بالظنون والشبهات ، لا مشروعية لدخول بيوت الناس قبل أن يستأذنوا أصحابها ، ولا اكتمال شهادة فى عظائم الأمور إلا إذا تعددت ، لا تهاون مع كاتم الشهادة ، ولا رحمة لكاذب الشهادة ، ولا اعتداد إلا بما يقارب اليقين ، ما عرفوا العدل إلا حقاً يستعاد وما أدانوا الظلم إلا أنه باطل إلحاق الأذى بمظلوم فى ماله ودم واحد من أهله ، فأحلوا ما أحله الله .. دية مقبولة ، وعفواً كريماً ، وتوبة عن ذنب يعادل العفو إذا ما صح واستبان ، ما جعلوا الحدود روادع لأفراد وإنما زواجر لجماعة ، وما التزموا بعدل القصاص ، سن بسن ، وعين بعين ، ونفس بنفس ، والبادى أظلم ، إلا حماية للجماعة من أن تكون عدوانا من نفسها على نفسها كما

كان الغابرون قبل الإسلام ونوره ، إلا أن العدل ناجزاً ليس النهج الإسلامى كاملا ، فما زلنا على مشارف الطريق .

ذلك أن النهج الإسلامى هو عدل الكفاية وعلى طريقها تتقدم الخطى ..

هو الشورى فما أمر الناس فى الإسلام إلا شورى بينهم ، ولسوف تتكثف خطانا ليكون أمر الناس للناس بلا مركزية السلطة ، ولا مركزية القرار تخطيطاً وتنفيذاً ومتابعة ، هو الاعتصام بحبل الله ، وما كان الاعتصام بحبله سبحانه إلا تجمعاً على الخير وتوجها للخير بعزم الجماعة ، بتوحد فكرها وتوحد غاياتها ووسائلها . .

دربنا فى ذلك ما ارتضيناه من تنظيم للناس فى إطار تنظيمهم السياسى الواحد ومنظماتهم الفئوية والجماهيرية .

هو السماحة ، وما الإسلام إلا سماحة ، فلا إكراه فى الدين ، بل معايشة المسلم لغير المسلم فى وطن واحد يسوده السلام والمحبة ، هو القول المعروف والعمل بالمعروف والموعظة الحسنة والقدوة الحسنة ، لا غلظة فى قول ولا فعل ، فلو كان نبى الإسلام فظاً أو غليظ القلب لما التف الناس حوله ، لا تزمت فالإسلام سماحة ، ولا تجمد فالإسلام للحياة ، والحياة تطور ، لا جمود فالإسلام ساوى الجهاد بالاجتهاد فى شئون الدنيا ، لا وصاية باسم الدين ولا احتواء من فرد أو جماعة ، ذلك أن الإسلام دين للناس ، كل الناس ، حيث لا شفاعة للانسان إلا عمله ولا وسيط بين العبد وربه ، وهو سبحانه الملم بالنوايا وما تخفى الصدور ، ثم أن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمسلم فى الإسلام هو من أفاد الناس بفكره وعمله ، ذلك موصول بحسن ثواب وكريم قصد وشريف عمل وإخلاص جهد واتقاء الله فى عباده وما ينفع عباده ، وما ينفع عباد الله عباد الله أنفسهم ،

لهم من دينهم ما يرشدهم ، ولهم من نهج عقيدتهم ما يهديهم ، ولهم من سنة صالح السلف نماذج الإبداع والإنجاز والنصر الكريم .

ما كان الإسلام ونهجه حدود عقاب على من خرج حتى قاصداً على حدود الله ، ذلك أنه فى الإسلام يسبق الذنب التوبة ، وتلاحق المغفرة المعصية ،تكاد البينة أن تكون استحالة فى كبريات الكبائر ما لم تكن من اليقين يقيناً ، بأربعة شهود عدول وإلا لكان الاتهام بالفاحشة فاحشة تستوجب إقامة الحد على من ادعى .

ما الحدود فى الإسلام إلا حدود الإسلام ، رحمة للناس أن ينالهم من الناس مضرة ، وما المضرة فى الإسلام إلا صغائر تحجب الكبائر فتماثلها . . فها هو ابن الخطاب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يتفقد رعاياه فإذا به يسمع ما يريبه خلف باب وراء حجاب وإذا به بعد الباب وعبر الجدار يرى شارباً للخمر يشرب ، فإذا هم عليه بالحد راجعه بأنه خالف فى واحدة ، وهى الخمر يشربها ،والخليفة خالف فى ثلاثة لا يقرها الإسلام ولا يقبلها : فلقد تجسس ، وقال الكتاب لا تجسسوا ، وقد دخل البيوت من غير أبوابها ، ولقد قال الحق ادخلوا البيوت من أبوابها ، ولقد دخل الدار بغير إذن صاحبها ، وقد قال المولى ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا .

فاستحيا الخليفة وما استكبر ، وأصاب الخاطىء فيما أخطأ عمر ، هو الإسلام نهج وقيم وآداب وسمو ورفعة .

ما أعطى إلا لولى الأمر وما يتولى عنه القضاء حق الحساب ، وما ترك الأمر للناس يجتهد فيه الناس بما يعرفون وبما لا يعرفون ، ما أقر الإسلام الظن والشبهة ، ولا أخذ الإسلام بغير البينة ، ولا كان الإسلام إلا سماحة استنها

رسول الإسلام حين أنكر على أحد صحابته تكفيراً لمن أتى الكبائر ، ذلك أن رحمة الله واسعة ومغفرته تسع السموات والأرض ، ما عرف الإسلام من الناس من يدعونه دون خالق الناس ، فهو رحمة للعالمين . وهو هدى للعالمين ، والناس فى رحابه سواسية كأسنان المشط .

ما كان الإسلام مظهراً وإنما هو جوهر قناعة تلزم بالطاعة من اهتدى ، ومن لم يهتد فإن أمره عند الله وحسابه من لدنه فى الدنيا والآخرة .

ما كان الإسلام وهج برق ينفصل نوره من السماء إلى الأرض يسترشد به الضال فيهتدى ، وإنما الإسلام،منذ كان الإسلام،وهج فى قلوب مسلمة راعت الله فى أنفسها ، فلم تسرف عليها بما لا يفيد ويضرها ، راعت الله فى أهلها فما قترت ولا قست ، ولا هانت ولا استهانت بزوج وولد ، وإنما عادلت فعدلت ، أمسكت زوجها بمعروف وما المعروف إلا طاعة لله ويعد عن نواهيه ، أو سرحت بمعروف فلا إجبار ولا إكراه .

فيصلها فيما أمسكت وفيما سرحت ، عفة تصان وعرض يحفظ وزينة لا تكون إلا للزوج ومحارمهن .

تلك ولاية الزوج على زوجه ، ولولى الأمر على من هم فى كفالته ، وتلك غاية موصولة لمن بيده الأمر من كل راع وفى حدود رعيته .

ما كان الإسلام وهجاً تستضاء به البصائر ، وإنما هو إيمان تستضىء به القلوب والضمائر ، فتخلص النصح ، وتحسن الرعاية وتدعو للبعد عما حرم الله .

ما كان الإسلام إلا قدوة ، إرادة الله مجسدة فى رسوله ، وصالح السلف ممن اتبعوا هداه ، ولقد كان فيهم وما زال فى عاطر ذكراهم ما يلهم الرشد وما أحوجنا إليه .

أن نكون مؤمنين مسلمين ، وألا نكون كمن قالوا أسلمنا ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وما المسلم المؤمن إلا مخلصاً فى عمله .

وما أحوجنا لنهج الإسلام إلا أن نكون كذلك ، حيث بيننا المزارع المسلم يرعى الله فى أرضه ، فلا يستنبتها دون قدرتها ، وإنما يعطيها بما أعطاه الله من قدرة لتفيض عليه وعلى العباد بركة وخيراً .

الصانع المسلم ، الذى لا يركن لأجره يستوفيه بعمل لا يكافئه ، فإذا به مغتصب لجهد غيره ظالم لنفسه فى دنياه وآخرته .

الطبيب المسلم ، والذى يعلم أن حياة الناس موصولة بربه ، إلا أن الله جعل لكل شىء سبباً ، المرض والعلاج ، الداء والدواء ، وقد منحه الله من العلم ما أهله لأن يكون للشفاء سبباً ، وللداء خصما ، وللمرض عدوا ، وللناس رحمة وبالناس شفقة .

العالم المسلم ، والذى يتقى الله فى علمه فلا يجعله مقتصراً لما ينفعه وأهله ، وإنما لوطنه وللمسلمين وللبشرية جمعاء .

فما كان الإسلام ولا ينبغى أن يكون المسلمون إلا رحمة للعالمين .

المعلم المسلم ، والذى لا يطاول إسلامه حدود إلمامه بشئون دينه فحسب ، بل جوهر دينه أيضاً ، والذى جعل من العلم ما يكاد يكون فريضة ، فكان أول ما أمر به الله رسوله أن قرأ ، ثم ربط العلم بالقلم ، وتعددت فى محكم كتابه آيات تدعو للتعليم والعلم .

وما العلم إلا إجابة يسبقها سؤال . .

وفى أنفسكم أفلا تبصرون . . ؟

أفلا يتفكرون فى خلق السموات والأرض ؟ والسماء كيف رفعت ؟

الطالب المسلم ، الذى تكون آية إسلامه أن يكون كما جاء فى الكتاب فى قول الحق ، علم الإنسان ما لم يعلم ، فالعلم إرادة الله ينبغى للطالب المسلم أن يخضع لها بأن يتعلم ما لم يعلم .

ذلك مدخله الجد والاجتهاد والمثابرة ، وتوسيع دائرة المعرفة لينتشر فى الأرض معمراً لها بعلم ينفع الناس .

الجندى المسلم ، وما الجهاد فى الإسلام إلا درباً من دروب العبادة ، وأن الاستشهاد فى الإسلام قمة التقى ومدخل الرضوان ، والذين يقتلون فى سبيل الله هم أحياء عند ربهم يرزقون ، وما فى سبيل الله إلا ما أمر الله فى كتابه وحدد ، وطن لا يستباح ، سيادة لا تنتهك ، وفتنة لا تطول الناس جمعهم وأوطانهم .

العامل المسلم ، هو كل من عمل عملا فأتقنه ، أو كلف بمهمة فأخلص فيها ، استؤجر فكان القوى الأمين .

المجتمع المسلم ، هو غاية الغايات ، يسترشد بالإسلام كتاباً ، وبالإسلام سنة رسوله ، وبالإسلام نهجاً ودرباً وسبيلا ، أن تسود سكينة القناعة بعدل لا يطاوله ظلم ، بكفاية لا تنقصها حاجة ، بقول معروف ، وعمل معروف وموعظة حسنة ، يتعايش مع أهل الكتاب فطعامهم حل لنا ، وطعامنا حل لهم ، وشرائعهم موصولة بأمور حياتهم ، فلا إكراه فى الدين .

مجتمع هو التماسك على الحق ، والوحدة للخير ، والعدل للانسان ، الهداية للبشر بالنموذج والقدوة .

مجتمع لا يكتمل إسلامه إلا باكتمال إيمانه بما أنزل الله على الناس من رسل وكتب آمن بها المسلمون وصدقوا ، هى الزبور والتوراة والإنجيل ثم ما كان لبعض الناس من قيم فاضلة ، وهؤلاء : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وما كان الإنسان إلا على نفسه بصيرا ، حسبنا لهم كمال القدوة ، وحسبنا لهم حسن الموعظة ، وحسبنا منهم أن حسابنا وإياهم لله رب العالمين .

النهج الإسلامى كيف . . ؟ ؟

قد يكون ما بدأنا بتوفيق من الله بداياته ، أما خواتمه كمالا واكتمالا فذلك جهد الأجيال بتواصل عطائها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومنه القصد وبه الاستعانة والتوفيق من عنده ، والهداية من لدنه يهبها من يشاء .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

« صدق الله العظيم »

المنهج الإسلامي كيف؟

الفصل التاسع

العاصفة

الفصل التاسع

العاصفة

الخميس : اليوم المتمم لذى القعدة من السنة الثالثة بعد أربعمائة وألف من الهجرة ، الموافق الثامن من سبتمبر سنة ١٩٨٣ .

اليوم بداياته . . .

انتقال الفريق إبراهيم عبود إلى رحاب ربه بعد رحلة العمر الطويل ، الذى كان خلالها رجلا أعطى وطنه قدر طاقته ، وكان من المفروض أن ينال من وطنه ما يستحق .

ما أعطاه ، أنه كان القائد العام الثانى للقوات المسلحة السودانية بعد الفريق محمد أحمد أمد الله فى أيامه .

ثم ما أعطاه كان فترة من الاستقرار القلق ، امتد من السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٨ إلى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٦٤ ، يسجل للرجل رغم ملابسات تسلمه للسلطة فى السودان ، انه استطاع أن يتصدى لبعض الوقت لتيارات الانقسام الحزبى والطائفى والتى أوشكت أن تضيف إلى الصراع الدامى فى الجنوب اقتتالا فعليا فى الشمال .

ما سبق حكم الفريق عبود فى نوفمبر سنة ١٩٥٨ ، كان مسلسلا من الانحدار الخطر سبق إعلان الاستقلال وواكب مسيرته ، بداية بأحداث

أول مارس الدامية سنة ١٩٥٤ ، إلى موت العشرات خنقاً فى عنبر جوده فى النيل الأبيض ، مرورا بالائتلاف والاختلاف بين الأحزاب ، وهو ائتلاف واختلاف وصلت ضراوته إلى انقسام الحزب الواحد إلى أحزاب « الوطنى الاتحادى » ، والبيت الواحد إلى معسكرات متناطحة « الخلاف بين الصادق الصديق عبد الرحمن المهدى ، وعمه الإمام الهادى عبد الرحمن المهدى » إضافة إلى صراعات تنظيمات العقائد فى اليسار واليمين .

كل ذلك وقضية بناء الدولة ، وعلى الأخص مؤسسة السيادة تكادتكون مستحيلة الحل ، فالطامعون فيها ليس لأحدهم من القوة ما يمكنه من الانفراد بها ، وليس لهم من القوة ما يسعفهم لتناسى ذواتهم ، فكان الحل فى مجلس خماسى للسيادة ، يتمثل فى الكل ولا يمارس فى ظله الكل حتى شكليات السيادة .

حكومات تتشكل ، فإذا الأسابيع كرياح « الهبوب » فى السودان تعصف بها ، حلفاء الأمس خصوم اليوم . نواب الشعب أدوات للتغيير بصرف النظر عن غاياته وأهدافه ، الدستور ، حلم معلق على الأمل المستحيل لا أحد يستطيع طرحه ، ولا أحد يستطيع إقراره ، فقد تباينت وجهات النظر إليه .

حكومة تقلص أنصارها فى الجمعية التأسيسية ، معارضة استطاعت بوسائلها أن تستقطب من هؤلاء .

تحدد موعد طرح الثقة على الحكومة القائمة ، وقبلها بساعات صدر البيان الأول عن تشكيل المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الفريق إبراهيم عبود ، وعضوية عدد من العسكريين من الرتب العليا .

نبرات البيان هادئة ، هدوء استلام السلطة أو تسلمها ، لا وعود

ولا عهود ، ولا حتى محاولة تسيس للحركة الانقلابية ، فقط عدد من الإجراءات والقرارات التى توقف النشاط الحزبى فى البلاد .

على مدى ست سنوات من نوفمبر ١٩٥٨ إلى أكتوبر ١٩٦٤ ، ما الذى يمكن أن يحسب على نظام الفريق عبود وما الذى يحسب له .

ما يحسب عليه مهمة للتاريخ ، ولعل التاريخ قد حكم عليها بالثورة الشعبية والتى شاركت فيها وقادتها الطلائع فى القوات المسلحة ، والتى أنهت الحكم العسكرى فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ .

ما يحسب له :

* انه استطاع لبعض الوقت أن يحقق نوعاً من الخمود المؤقت للصراع الطائفى والحزبى ، وهو مجرد خمود ، لأنه لم يحاول وربما لم يستطع أن يقتلع جذوره الطائفية ورموزها ، وإنما تعامل معها فى ظل تعايش أقرب إلى الهدنة المتوترة طوال فترة حكمه .

* إنه وفى ذات الفترة ، استطاع أن يضع نهاية للتوتر الخطر فى علاقات مصر والسودان ، خاصة فيما يتعلق بموضوع حلايب ، والذى وصل فى فبراير سنة ١٩٥٨ إلى حد دق طبول الحرب وتعبئة المشاعر .

* انه تجاوزاً للخلاف ، خطا الخطوة الأكبر نحو تسوية قضية التعويض على الأراضى السودانية التى يجتاحها نهر النيل بعد قيام السد العالى وقيام بحيرة صناعية ، هى ما تواضع على تسميتها فى مصر ببحيرة ناصر أولا ، ثم بحيرة السد العالى ، وما تواضع على تسمية الجانب السودانى منها ببحيرة النوبة .

* تضمن الاتفاق مع مصر تعويضات عن أراض سودانية والأهم مدينة سودانية كاملة هى مدينة وادى حلفا ، والذين يعايشون الأنهار ويسكنون ضفافها ، يدركون مدى العلاقة العاطفية بين الإنسان والأرض ، خاصة إذا ارتبطت الأرض بتراث حضارى عريق وعميق .

لذلك كانت مقاومة التهجير فى مدينة وادى حلفا ضارية ، إلا أن عملية التهجير كانت ممتازة :

** لأنها هيأت أرضا قابلة للزراعة وأن استوطنها الرعاة على امتداد تاريخها.

** ولأنها كانت قبل التهجير ممرا ، فأصبحت بعد التهجير مستقراً للآلاف من الأيدى المدربة على الزراعة ، فأعطت وأفاضت .

** أرض كانت قبل التهجير قد خلت من مظاهر الحياة ، فإذا بها استعداداً للتهجير قد تهيأت لها كل سبل الحياة ، خزان على مجرى النهر ، بيوت للإسكان ، مخازن آليات ومدارس ، مرافق خدمات .

** ثم لأنها وبعد صدمة الانفصام عن الموطن الأصلى ، استطاعت بما أعطت أن تداوى جراحات الحنين .

** ثم أنه يظل محسوباً للفريق عبود وحكومته ، انها أول من حاول اجتهاداً أن يستشرف إمكانيات التنمية فى السودان ، المحاولات كانت سطحية ربما بحكم الظروف ، والمحاولات لم يصادفها النجاح ربما بنقص الخبرة ، إلا أنها كانت اجتهادات منها :

* مصنع للسكر فى خشم القربة .

* مصنع للسكر فى الجنيد .

* مصنع للكرتون فى أروما .

* مصنعين لتعليب الفاكهة .

* مصنع لتجفيف الألبان فى بابنوسه .

ثم يظل محسوباً له أو محسوباً عليه ، انه عبر بالسودان عاصفة المتغيرات السياسية والدولية فى تلك المرحلة ، فلم يكن السودان فى عهده محسوباً فى معادلة التفاعل العنيفة التى كانت تشهدها المنطقة العربية باسم القومية العربية ، ولا القارة الأفريقية ، فى إطار المخاض الأليم من أجل التحرر من الاستعمار .

أيام الفريق عبود انتهت فى السلطة فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٦٤ ، وأيام الفريق عبود انتهت فى الحياة فى الثامن من سبتمبر سنة ١٩٨٣ ، عن عمر جاوز الثمانين .

الرجل بتاريخه العسكرى يستحق التكريم . .

والرجل بتاريخه فى العمل الوطنى ، لا يجوز تجاهل وداعه ، فهو جزء من تاريخ السودان على أى حال .

فى ذلك اليوم أصدرت تعليمات بأن يحتفل بجنازته احتفالا رسمياً يليق بمكانته ، نقل الجثمان من منزله إلى نادى الضباط حيث كنت فى استقباله ، ثم كنت من المشيعين له من النادى وحتى المقابر .

وقفت على حافة القبر ، حتى انتهت مراسم الدفن قرأت الفاتحة على روحه ، وطلبت له من الله سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة .

● ● ●

فى نفس اليوم ، بل وفى نفس لحظة التشييع ، كانت الإذاعة تذيع بياناً سجلته وأعلنت فيه بداية العمل بالتشريع الإسلامى ، مبتدئاً بمراجعة قانون العقوبات ليتمشى مع الشريعة الإسلامية .

بعد أسبوعين تقريباً من هذا اليوم ، أى يوم الجمعة السادس عشر من ذى الحجة سنة ١٤٠٣ الموافق الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٨٣ كنت على موعد مع جماهير الشعب السودانى .

مكانه :

مواقع على النيل ، فى الخرطوم ، والخرطوم بحرى وأم درمان .

مناسبته :

إبادة الخمور وإراقتها فى مياه النهر ، ملحمة اشترك فيها الآلاف يرددون الله أكبر ، ضحاياها ، آلاف ، عشرات الآلاف من زجاجات الخمور ، تدمرها الأيادى والبلدوزرات ــ ويشارك فيها مع الناس قوات الشعب المسلحة والقوات النظامية الأخرى .

أيام . . . أعلنت بعدها العفو الشامل عن جميع المسجونين فى جميع سجون السودان .

عفو ونذير . . .

العفو عن ذنب سلف ، حتى نستقبل العهد الجديد بقلوب يطهرها الغفران والصفح ، ومع العفو إعانة مالية لكل مسجون .

والنذير ، كان إذا عادوا عدنا ، وإذا أسرفوا على أنفسهم ، فليس بيننا وبينهم من حكم إلا كتاب الله وحدود الله .

وتمر الأيام . . . .

ويقام الحد للسرقة ، علنيا كما أمر الله .

● ● ●

لا خمر فى السودان ، ولا سرقة ، ولا رجس ثم لا ربا .

● ● ●

ردود الفعل فى الخارج كانت حرباً معلنة ، ردود الفعل فى الداخل كانت ناعمة وإن كانت مداخل للخطر فى الخارج والداخل .

عودة لأجواء الحروب الصليبية القديمة ، حملات إذاعية برامج تليفزيونية ، مداد هو الحقد لأقلام بما يكتب فى الصحف والمجلات هجوماً على السودان وقيادته لماذا . . ؟

لأنه طبق شريعة الله . .

السودان لماذا . . ؟

* ربما لأنه الدولة التى بادرت ولم تواصل ، بمعنى أن السودان ليس السعودية حيث الشريعة الإسلامية راسخة جذورها لأنها رموز الدولة

والأمة ، ولأنها الدولة والأمة تعيش فى رحاب البيت العتيق والحرم النبوى الشريف .

* ربما لأن السودان ليس فى حجم غيره من صغرى الكيانات فى المنطقة العربية والذى يعد سكانها بعشرات الآلاف لا يزيدون .

* وربما لأن السودان ليس باكستان أو بنجلاديش ، حيث الهوية الوطنية هى الهوية الإسلامية بحكم مبررات انفصامهما عن القارة الهندية .

* وربما لأن السودان لا يطبق الشريعة الإسلامية عبر عنف الثورة كما حدث فى إيران ، وإنما بالتدرج والتمهل والإقناع والاقتناع .

* وربما لأن السودان لم يجعل من الدين ركيزة للسلطة تبرز به وجودها وتستمد منه شرعيتها ، وإنما هى السلطة وظفت للدين .

* وربما لأن الصحوة الإسلامية فى السودان تستدعى فى الوجدان الأوربى أمجاد للسودان فى ظل الثورة المهدية الإسلامية العظمى ، وهى الثورة التى ناطحت إمبراطوريتين ، فانتصرت ، الإمبراطورية العثمانية ، ثم الإمبراطورية البريطانية .

تلك كلها احتمالات للهجمة الإعلامية والسياسية الشرسة التى واجهها السودان منذ لحظة إعلان تطبيق القوانين الإسلامية ، إلا أنه يظل السبب الأهم فى ضراوة ردود الفعل فى فاعلية الفعل نفسه .

فالقوانين الإسلامية ، ليست مجرد تشريعات تحكم سلوك الناس وتضبط حركة المجتمع ، شأنها فى ذلك شأن القوانين الوضعية الأخرى ، وإنما هى قوانين بحكم مصدرها وهو الكتاب والسنة ، إنما تمس الإيمان وتفجر الإيمان وتجدد الإيمان بالله ودينه .

إيمان لا يكمن فى القلب وحده ، حيث الترويج إليه فطره ، والارتكان إليه فطره ، والاحتكام إليه فيما يخص النفس فى علاقتها مع النفس وعلاقتها الأسمى مع الحق سبحانه ، وإنما بالتقنين الإسلامى يتحول الإيمان من قناعة إلى التزام ، من معيار يتطلع الناس من خلاله إلى السمو المنشود ، إلى معيار موجود يحكم الفرد ونفسه ، يحكم الفرد وغيره ، تقنين علاقاته وممارساته وسلوكياته ، ثم نظرته لنفسه كمخلوق موصول بخالق ، وموجود متصل بوجود يتعالى على وجوده ، من حيث الزمان فالله أقدم ، ومن حيث المكان فهو سبحانه الوجود اللامحدود بزمان أو مكان .

التطبيق الإسلامى يعنى التكافل بمعناها الأشمل ، يعنى التراحم بمفهومه الأرحب ، يعنى التواصل بين الناس بالود لا بالصراع ، بالحب لا بالأحقاد.

التطبيق الإسلامى فى حقيقته وجوهره ، هو المساواة بين الناس فلا فضل إلا بالتقوى ، ولا فضل إلا بالعمل الصالح ينفع الناس ودينهم ودنياهم ، التطبيق الإسلامى بشمول رؤيته للاخاء الإنسانى والتواصل الإنسانى ، هو الحاجز الأمنع ضد محاولات الغزو الفكرى والتفسير الماركسى للتاريخ . . والتبشير البائس بصراع الطبقات كحتمية تاريخية تضع الناس فى مواجهة الناس فى سلسلة من العداء بغير نهاية .

التطبيق الإسلامى فى السودان بهذا المفهوم ومن خلاله كان صدمة لكل قوى المطامع فى السودان :

* للذين توهموا أن فشل السبعينات فى استقطاب السودان للفكر الشيوعى ، من الممكن تجاوزه باخضاع السودان للقهر الشيوعى خاصة أن حول السودان كيانات ماركسية الهوية والعقيدة ، ماركسية الاتجاه والتوجه ، ماركسية بحكم التحالف الاستراتيجى مع الاتحاد السوفييتى .

* للذين راهنوا على تفاعلات التطور ومساراته ، فظنوا أنه فى شمال السودان قد تجسدت بعض مظاهره فإنه فى جنوب السودان ما زالت تتعثر خطواته ، وتلك فوارق لابد أن تلعب دورها مع الزمن لتعيد الزمن إلى ما كان عليه بين الشمال والجنوب ، صراع فاقتتال فانفصال ، بكيانات لا يستقيم وجودها إلا بمن يعطيها ويحميها ، بل والأهم أن يخضعها .

* للذين راهنوا على ما توهموه أخطاء ثورة مايو تلك التى دفعت بالتطور الاجتماعى يمارس دوره ، قبل أن يعطى البناء الاقتصادى ثماره ، حيث التعليم مدخل للتطلع ، وحيث الاستهلاك مدخل للمزيد من الاستهلاك ، وحيث الخدمات لا تصوغ القناعة بالمقارنة بما سبقها من انعدام الخدمات ، وإنما بالتطلع للمزيد من الخدمات .

* للذين راهنوا على الهجرة من خارج السودان إلى داخله ، مئات الآلاف ينزحون من دول مجاورة للسودان وهم إضافة تستهلك ولا تنتج ، تأخذ ولا تعطى ، وهم بهذا قنابل موقوتة من الممكن أن تفجر السودان وتتفجر به .

* للذين راهنوا على الهجرة من داخل السودان إلى خارجه ، حيث فرص العمل فى الدول العربية الغنية ، حيث زيادة الدخل لا يمكن منافستها داخلياً ، وحيث مستوى الحياة لا يطيق السودان أن يوفره فى الداخل ، بمثل ما هو متوفر فى الخارج .

* للذين راهنوا على السباق بين قدرات السودان فى إعداد الكوادر والخبرات والمهارات والكفاءات ، وبين هجرة الكفاءات السودانية وتسربها من السودان إلى خارجه .

* للذين راهنوا على مشروعات التنمية العملاقة فى جنوب السودان ، الاستثمار التجارى للبترول السودانى فى بعض مناطقه ، مشروع قناة جونقلى فى أواسطه ، وهؤلاء كانوا قد راهنوا على تلك المشاريع ألا تقوم ، حتى تظل فوارق النمو بين الشمال والجنوب فعاله فى إثارة الفتن بين أبناء الوطن الواحد .

هؤلاء وهؤلاء وجدوا فى التطبيق الإسلامى خطرا . . . خطر يتجسد فى السودان كنموذج لصحوة إسلامية تغرى بالتعميم ، وخطر على مطامعهم فى السودان كذلك .

وهكذا هبت العاصفة . . .

عاصفة لعلنى أول من واجهها بصورة مباشرة . . أعلنت القوانين الإسلامية فى سبتمبر سنة ١٩٨٣ ، وفى نوفمبر من نفس العام كنت فى جولة ، زرت فيها إيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة .

وعلى طول الطريق وفى كل هذه العواصم كانت الحملات الإذاعية والتليفزيونية والصحفية تلاحقنى .

تلاحقنى هجوماً على التطبيق الإسلامى ، تحت شعار ما يسمونه حقوق الإنسان ، تحت شعار حقوق الأقليات غير المسلمة فى السودان ، تحت شعار الارتداد عن العصر والهجرة من الحاضر إلى الماضى ، تحت شعار الدفاع عن الحرية وكأن الإسلام ليس دين الحرية ، والذى ينفرد بتأمين حرية الفرد والمجتمع بغير تناقض .

فى الدول العربية ، وبعضها يطبق الشريعة الإسلامية كنت أسمع وأرى بل وأواجه أسئلة من نوع :

– ألا يعنى تطبيقك للشريعة الإسلامية ، هروبا من المشاكل وإحساساً بالضعف ، واعترافاً بالفشل .

وأجدنى أقول :

رغم اعتراضى على الشكل الهجومى فى محتوى السؤال فإننى أسأل ، لماذا لا يكون منطقياً أن يتجه الإنسان إلى الله فى حالة الضعف ليزيده قوة ، وفى حالة الفشل ليكسبه نجاحا .

وسؤال يقول :

الخمر والسودان . . . كيف يمكن حظر الخمر فى بلد اعتاد الناس فيه أن يسامروا الكأس قبل أن يعايشوا الأحلام كل ليلة ، واعتاد بعض الناس فى بعض أجزائه أن يكون الخمر بعض غذائهم وكل غذائهم .

وأجدنى أقول :

وكيف كان الحال فى صدر الدعوة . . ؟

هل جاءت الدعوة والناس على الهدى ، لا يذوقون خمرا ولا يقارعون كأساً ، ولا يعرفون منادمه ، بل كانوا كذلك ، وإلا لما كانت الرسالة ، ولما كان المنع والحظر والتحريم .

وجود الباطل لا يعنى الاستسلام له ، ووجود المنكر لا نكران لإنكاره .

أما الكأس والليل فى السودان ، فلقد كان ذلك من رواسب ماض انتهينا منه منذ سنوات ، ليس بالتشريع والقانون وردعه ، وإنما بالقدوة على مستوى القمة ، بالتوعية والدعوة والإرشاد والتطبيق المتدرج .

أما الخمر غذاء . .

فذلك أمر لا أجيب عليه ، يجيب عليه علماء التغذية ، والذى لا أظن أنهم يوافقون على أن الإنسان من الممكن أن يتخذ الخمر غذاء .

وسؤال يقول :

تقطعون يد السارق لماذا . . ؟

وأجيب :

لأنه بذلك أمرنا الله . . ولأن بلاد غيرنا لا تكتفى بقطع اليد وإنما بالإطاحة بالرؤوس لجرائم ومخالفات أدنى من السرقة ، ومع ذلك فإن قطع اليد ليس مطلقاً ، هناك العوامل المخففة التى تجيزها الشريعة ، وهناك التعزير بعقوبات بديلة ، وهناك الاستتابة والعفو أيضاً ، وهناك وهذا هو الأهم أن للقطع شروطاً لا تتوافر فى كل سارق .

وسؤال يقول :

الإسلام والوحدة الوطنية . . الإسلام وجنوب السودان ؟

ألا يعنى تطبيق الشريعة الإسلامية تفريطاً فى وحدة السودان الوطنية . . ؟

وأجدنى أسأل لماذا .. ؟

يقولون :

لأن الإسلام ليس الدين الغالب فى جنوب السودان

وأقـول :

وليست المسيحية كذلك ، فالأغلبية فى جنوب السودان لها كريم معتقداتها ، من غير الأديان السماوية ، وهى معتقدات نص الدستور على احترامها ،ومع ذلك فمن الذى قال أن الشريعة الإسلامية تطبق بمجملها على غير المسلمين .

أسئلة أقرب إلى الاستنكار وتعليقات فى الصحف أقرب إلى الإنكار ، حتى العلاقة مع مصر علاقة التكامل ، تناولها الهوى من زاوية اختلاف الرؤى والرؤية بين القاهرة والخرطوم فيما يتعلق بتطبيق الشريعة الإسلامية ، علماً بأن الشريعة الإسلامية مصدر التشريع فى جمهورية مصر العربية حسب دستور سنة ١٩٧١ ، وحيث القوانين فى مصر فى مجملها مستمدة من الشريعة الإسلامية ، وحيث مصر ، هى مصر الأزهر ، والقاهرة مدينة الألف مئذنة ، وحيث علماء المسلمين الدين الإسلامى فى مصر هم منارات الهدى لأمة الإسلام .

• • •

إلا أن تلك كانت وحدها البداية ..

العاصفة كانت رياحها قبل ذلك بكثير تتجمع ، إلا انها اختارت الشريعة الإسلامية لتكون واجهة انطلاقها المدمر .

في جنوب السودان . .

كانت سنوات الاستقرار بعد اتفاقية أديس أبابا والتي وقعت في مارس سنة ١٩٧٢ هي نفسها سنوات المخاض لماذا . . ؟

لأسباب أعدها على النحو التالي :

أولا : لأن الكيان الإداري في جنوب السودان كان بغير تقاليد تقريباً ، طوال سنوات الاستعمار البريطاني كان الجنوب منطقة مقفولة ، وكانت الإدارة في الجنوب حتى في مستوياتها الدنيا للانجليز وحدهم ، مستوى التعليم كان معدوماً ، إلا شذرات تتاح لقلة في نوع من التعليم الكنسي ، إضافة إلى قلة أقل تلقت تعليما متوسطاً وفوق المتوسط خارج السودان .

ثانياً : إن الاتفاقية كانت قد أرست قاعدة للحكم الذاتي المطلق ، بحيث تكون مسئوليات الإدارة بكاملها لأبناء الإقليم ، ولقد اجتهدهؤلاء ، إلا أنهم لم يحققوا النجاح الممكن لأن القدرات الممكنة لم تستطع في البداية أن تستوعب مسئولياتها .

ثالثاً : لقد حرصت الحكومة المركزية في الخرطوم حرصاً على الاتفاقية وحرصاً على السلام ألا تتدخل حتى بالنصيحة إلا إذا طلبت ، ولقد كان طلب النصيحة في المرحلة الأولى على الأقل يمس الحس الإقليمي وهو يتحمل مسئولياته في بداية عهده .

رابعاً : لقد بلغ الأمر حداً من الاضطراب يكفي للتدليل عليه ، أن السيد أبيل البير أول رئيس للحكومة الإقليمية في جنوب السودان كان أول من بادر في السودان بمنع الخمر ولم يكن ذلك بدوافع دينية إسلامية ،

فهو مسيحى ، وإنما لأن الأمر فى شرب الخمر كان مدخلا لخلل إدارى خطير ، وخلل اقتصادى أخطر .

خامساً : إن الاتفاقية كانت قد حددت شكلا برلمانيا للحكم فى الجنوب ، بحيث تكون من مسئوليات مجلس الشعب الإقليمى تشكيل الحكومة الإقليمية كما كان من سلطاته إقالتها ، ولأن التجربة حديثة ، فإن الصراع على السلطة كان مدخلا لعدم استقرار السلطة ، وهكذا تسقط حكومة لتتولى أخرى ، لتعود الأولى وتذهب الثانية ، أو تحل محلها ثالثة وهكذا . . . ولم تكن مخاطر التغيير مقصورة على الاستقرار واستمرارية مشروعات التنمية ومتابعة توسيع قاعدة الخدمات فحسب ، وإنما كانت وذلك هو الأخطر مدخلا لخصومات شخصية ، سرعان ما تضيف نفسها فى حالة الفوز على خصومها لصالح الحكومة الإقليمية والوحدة القومية ، وفى حالة فشلها فإنها تحسب نفسها خصما للطرفين .

سادساً : لقد كان من شروط الاتفاقية استيعاب أعداد كبيرة ممن حسبوا على المقاتلين من أجل الانفصال فى الجيش السودانى القومى ، ولقد استقر هؤلاء فى معسكرات فى مناطقهم وهنا وقعت أولى مظاهر الخلل .

هم بحكم مواقعهم كجزء من قوة نظامية قومية يخضعون للانضباط العسكرى وقوانينه ، بما فى ذلك قابليتهم للتنقل من موقع لآخر فى الجنوب أو خارج الجنوب فى مختلف أنحاء السودان .

إلا أنهم بحكم واقعهم كانوا قد تعايشوا مع هذا الواقع بتقاليده ومناشطه الاقتصادية أيضاً ، وهى تقاليد تسمح بتعدد الزوجات بغير حدود ، وهى تقاليد تتيح للزوج حقوقاً من الزوجة كل زوجة تتمثل فى عدد من الأبقار ، وهى تقاليد تجعل من الأسرة وحدة اقتصادية ترتبط بالمكان

ارتباطاً وثيقاً ، فالزوجات والأبناء والأبقار والزراعة المحدودة جزء من هذا الكيان الأسرى لا تنفصل عنه .

ولذلك فلقد كان من العسير لبعض الوقت تطبيق الانضباط العسكرى بشكله الكامل على هؤلاء ، ولقد كان ذلك مقبولا لبعض الوقت مراعاة للحساسية وحرصاً على التجربة ، إلا أنه بمرور الوقت ، كان الاختيار حاسما .

إما أن يكونوا قوة نظامية تخضع لما تخضع له القوات النظامية ، بما فى ذلك الخضوع لأوامر النقل أو لا يكونوا كذلك .

ولقد استجابت الأغلبية الغالبة لمتطلبات الانضباط العسكرى بينما ماطلت قلة ، وهى القلة التى حاول البعض من قيادات الإقليم الجنوبى استغلالها فى صراعها السياسى مع خصومها .

ولأن خصومات الداخل تجد دائماً من هو على استعداد لاستغلالها من الخارج خدمة لمصالحه ، فلقد وقع هؤلاء فى أحضان دولة مجاورة للسودان ، ووقع بعضهم فى إطار مخططات ليبيا المعادية بصورة سافرة للسودان .

سابعاً : واكب ذلك كله ظهور البترول فى بعض المناطق الجنوبية الغربية من السودان ، ولقد كان ذلك مدخلا للعداء الدولى للسودان والتى يتزعمه الاتحاد السوفييتى وتلعب ليبيا فى إطاره دور مخلب القط ، ثم للخصومات الداخلية بين قيادات الجنوب أنفسهم فكانوا بالمزايدة دعوة لأن يكون كل البترول للجنوب دون السودان كله ، أن تكون المصفاة هناك ، وخط الأنابيب ينطلق عبره ، بداياته آبار البترول ونهاياته فى ممباسا الميناء الكينى المشهور .

ثامناً : أنه يظل مطروحاً قصة الثورة والوحدة الوطنية . هكذا كانت مشاهد الصراع الدامى فى كاتنجا فى الكونغو فور استقلالها ، وهكذا كانت حرب الانفصال فى بيافرا منطقة البترول فى نيجيريا ، وقد حاولت كل الأطراف تكرار اللعبة فى جنوب السودان وبجنوب السودان .

تاسعاً : إننى واحد من الذين يرون أن الإرادة الشعبية قاهرة لكل حاكم ومهما كانت الظروف ، لذلك فحينما تبلور الاتجاه فى جنوب السودان نحو تقسيمه لعدة أقاليم كما هو الحال فى باقى أنحاء السودان ، فإننى على الفور استجبت ، ولقد كان ذلك أيضاً مدخلا لكل خصوم السودان ووحدته الوطنية .

عاشراً : لقد تجمع كل هؤلاء بضغط التحريض الخارجى مستترا فى البداية ، ثم سافرا فى النهاية .

فإذا تنظيم يقود عمليات إرهابية مسلحة تستهدف مواقع التنمية فى الجنوب .

تنظيم رأته الماركسية اللينينية معلنة ، زعيمه جنوبى مثقف يدعى جون قرنق ، تلقى تدريباً عسكرياً فى الستينات فى إسرائيل ، ودراسات فوق الجامعية فى الولايات المتحدة فى الثمانينات ، ثم أعلن نفسه زعيما لتنظيم شيوعى فى جنوب السودان تحت إشراف دولة مسلمة وهى ليبيا ودولة أخرى مجاورة للسودان لها هويتها الماركسية .

الهوية أعلنها ، مصادر التسليح لا يخفيها ، قواعده فى دولة أفريقية مجاورة للسودان، صوته وبياناته وانتصاراته المزعومة ، يتولى راديو ليبيا الترويج لها ، وأدوات ليبيا الإعلامية فى جميع أنحاء العالم تتولى تضخيمها .

حادى عشر : إنه لمن المعروف كقاعدة أن حركات التخريب المحدودة القوة ، الضئيلة التأثير ، الفاقدة للدعم الجماهيرى واسعاً أو حتى محدوداً ، إنما تتجه إلى عمليات ذات عائد إعلامى فى المقام الأول ، بصرف النظر عن تأثيراتها الفعلية ، الدليل على ذلك ما نراه حتى فى المملكة المتحدة ، حيث يتجه التخريب الانفصالى الايرلندى إلى ما هو مثير إعلامياً ودعائياً فى المقام الأول ، قتل جنود الحرس الملكى فى حدائق هايدبارك على سبيل المثال ، تفجير القنابل فى الحى التجارى فى قلب لندن ، زرع المتفجرات فى محلات هاردوز الشهير قبل الاحتفال بعيد الميلاد بأيام .

على نفس النمط ولذات التوجه ، اختار عملاء ليبيا والشيوعية الدولية مواقع التنمية فى الجنوب هدفاً لأعمالهم التخريبية المحدودة .

اختطاف لبعض العاملين الأجانب فى مشروع جونقلى هجوم ، محدود وغادر على أحد معسكرات العمل النائية لشركة شيفرون التى تعمل فى مجال استثمار البترول فى السودان .

الهدف الإعلامى كان لحجم الهدف وليس بفاعلية التخريب ، وقد جرى استثماره على نطاق واسع إعلامياً خارج السودان ، بينما ظل تأثيره محدوداً ومحدوداً للغاية داخل السودان ، ذلك أن السودانيين الذين عايشوا الحدث أدركوا هدفه وأدركوا حجمه المحدود .

ثانى عشر : لقد كان ذلك كله محسوباً على مطامع داخلية تتعلق بالصراع على السلطة الإقليمية فى الجنوب ، وعلى مطامع إقليمية ودولية تتولاها ليبيا بتشجيع من الاتحاد السوفييتى وتحت راياته ، إلا أنه وفى الوقت المناسب بالضبط ، وقت إعلان التشريعات الإسلامية جرى حساب كل ذلك على حساب الشريعة الإسلامية وكنتيجة لها . . كيف ؟

* لأنها تعطى للعمل التخريبي المحدود حجماً ، والأهم من ذلك تعاطفاً يتعدى المخططين ممثلين فى ليبيا والشيوعية الدولية إلى الغرب المسيحى كله ، والذى تصور له أدوات الدعاية الإعلامية فيه أن الخطر الأكيد على كيانه ، هو الدين الجديد كما يسمونه ، ويقصدون به الإسلام .

* لأنها تعطى عمليات التخريب المحدودة فى جنوب السودان طابعاً لم يكن لها قبل إعلان تطبيق الشريعة الإسلامية ، بحيث يجرى تصويرها انتفاضة الأقلية غير المسلمة ، ضد الأغلبية المسلمة .

* لأن عمليات التخريب المحدودة فى جنوب السودان تضاف إلى الجهد الواسع والمكثف والذى شارك فيه أعداء الإسلام فى كل مكان فى محاولة يائسة لخنق برعم الصحوة الإسلامية فى السودان...

على النطاق القومى :

وأعنى به السودان فى تحوله .

فلقد كانت العاصفة ناعمة كما أسلفت ، إلا أنها كانت أكثر من خطيرة .

خطيرة لأنها أدركت أنها لا تستطيع مواجهة الإجماع الشعبى العارم والمؤيد لتطبيق الشريعة الإسلامية فى بلد هو بوجدانه وفطرته وأخصب مراحل تاريخه ، هو للاسلام عقيدة وشريعة ، ولذلك فلقد اختارت العاصفة شكل النسيم الذى يستطيع أن يستأصل البذور قبل أن تمتد جذورها فى عمق الأرض .

كانت البدايات مع بدايات التطبيق . .

بدأت بشائعات حول الخمور التي أبيدت ، وكيف تسربت .

بدأت بالشائعات حول التطبيق العشوائي للحدود بما يخرج عن شريعة الله والتي هي في أصلها الرحمة ، عن ساعد بتر بدلا عن كف تبتر ، حول مبادرات أفراد أعطوا لأنفسهم سلطة القاضي وسلطة التنفيذ بالنسبة للص سيئ الحظ وقع في أيديهم .

بدأت أيضاً بالمبالغة عن نوعية سرقات لم يعرفها السودان قبلا .

سرقات طابعها العنف الدامي ، حيث الخيار أمام اللص إما أن ينجو ، وإما أن تبتر يده ، فلا مناص أمامه إلا القتل .

شائعات تتحدث عن مجموعات للسرقة تقتحم البيوت ليلا بل عصراً .

شائعات تتحدث عن عنف وقتل ودماء ، ثم بعد ذلك سؤال عن ماهية الردع الذي حققه تاريخ تطبيق الشريعة الإسلامية ، هل هو منع للجريمة ، أم هو تطوير عنف لها . . ؟

شائعات أخذت مناحي أخرى لا تخلو من ذكاء . .

قصص محبوكة تصلح لأفلام السينما ومسلسلات التليفزيون « أسرة تتكون من زوجة وزوج وثلاثة أطفال ، أعمارهم على التوالي ، ثمانية أعوام ، ستة أعوام ، أربعة أعوام ولدين وبنت .

الأم لاهية عنهم بهموم مطبخها ، الأب مشغول بقراءة الصحف والمجلات قبل الغذاء ، والأطفال الثلاثة في (حوش) فناء المنزل يلعبون .

ماذا كانوا يلعبون . . ؟

يلعبون لعبة اللص والقاضى . .

قام بدور اللص أصغر الثلاثة ، طفل الأربع سنوات ، ولأنه لص ، ولأن الأطفال سمعوا أن عقوبة اللص هى قطع اليد حسب الشريعة الإسلامية ، فقد قام الإثنان بمحاولة قطع يده بموس الحلاقة .

تفجر الدم من يد الصغير ، سمعت الأم والأب صراخه ، هرعوا إليه ، وجدوا الدم فى يده والألم فى ملامحه .

اختطف الأب طفله ، اتجه إلى جراج سيارته ، أدار المحرك تأهب للانطلاق بالطفل إلى المستشفى ، تحركت العربة فى وقت لم يكن يعرف فيه الأب أن طفليه الآخرين كانا تحتها هرباً مما فعلا ، وخوفاً من العقاب .

العربة تتحرك ، يسمع الأب صرخات تنبعث من تحتها ، يوقف العربة ، يفاجأ بأن طفليه كانا بالضبط تحت العجلات.

يترك الجريح فى مكانه ، ينتزع مع الجيران أشلاء جثث الطفلين من تحت العجلات ، مع الصدمة ، والهول والفزع ، ينتبه الجميع إلى جريح اليد داخل العربة ، يعودون إليه ، يفاجأون بأنه قد فارق الحياة هو الآخر نتيجة للنزيف » .

قصة مروعة . . نعم . .

إلا أنها الكذب المقصود .

كذب القصد منه هو الترويع بالضبط ، الترويع من تطبيق حدود الله .

العاصفة تتعدى الشائعات والأقاصيص الكاذبة لتدخل طورا أخطر .

الحديث عن اقتصاد البلد الذى انهار نتيجة لمنع الخمور ، قدر أدعياء المعرفة ، إن خسارة الدولة وبالتالى الشعب مئات الملايين من الجنيهات ، كانت تجيء كضرائب ورسوم على استيراد الخمر وتوزيعها .

تحدث أدعياء المعرفة ، عن البديل وهو الخمور البلدية ، أى الخمور الذى يجرى تصنيعها محلياً ، كيف انتشرت ، كيف انتصرت ، كيف بددت أموال الناس والأهم من ذلك صحتهم .

العاصفة تتجه إلى حقول الكسب الحرام ، فتورق وتثمر ، نشطت عمليات تهريب الخمور من دول أفريقية مجاورة ، الخطير أن التهريب كان يتم بالمبادلة ، مبادلة الخمور بمحاصيل زراعية سودانية ، أهمها الذرة ، وإنتاج صناعى زراعى سودانى أهمه السكر .

العاصفة تستمر فى فاعليتها . .

محاولة إجهاض الأمل بعد أن تحقق ، قتل البرعم بعد أن أزهر ، إشاعة اليأس بين الناس من إمكانية الاحتكام إلى شرع الله وشريعته .

إلا أن العاصفة رغم ذلك مستمرة ، ذلك قدر كل العواصف ، تبدأ بالعنف وتنتهى بالموت ، ذلك إذا كان الصمود يواجهها ، وهل هناك صمود أقوى من صمود الإيمان ، إيمان بأن فى البدء كانت الدعوة .

دعوة لم يستوجبها إلا ضلال محقته ، وباطل سحقته ، ومنكر محته فكان نصر الله والفتح .

إيمان بأن ما نجاهد فى سبيله ، هو إحياء حكم الله وسنة الله فى أرضه .

فإذا قدرنا أن نواجه العواصف دفاعاً عنه ، فذلك قدر صادف من سبقنا ومن يلحقنا إذا ما واجه رواسب السنين ، وبعد العهد بين نور النبوة وبدء الدعوة ومبتدىء الرسالة ، وبين قرون مضت ، وعهود انقضت ، ساد فيها الباطل على الحق ، ولكن إلى حين .

النهج الإسلامى كيف . . ؟

بالصمود . .

ولا صمود إلا بالإيمان . .

● ● ●

خاتمة

اللهم اننى ما تفقهت من أمور دينى إلا ما أعانتنى عليه فطرتى وقدرتى .

• • •

اللهم إنى أسألك عفوا فيما هدفت ، أجراً على ما اجتهدت ، توفيقاً فيما رميت وما قصدت إلا وجهك ، رضاءك ومرضاتك .

• • •

اللهم إنى تحملت الولاية على الناس أمانة وما الصدق إلا قولك ، وما العدل إلا حكمتك ، وما الحكمة إلا كريم آياتك فى منزل كتابك :

• • •

اللهم إنى بقصور قدرتى ، وقلة حيلتى وبكمال طاقتى قد استشرفت صالح السلف وما طمعت فى بلوغ مراتبهم ، حسبهم أنهم كانوا إلى الرسالة أقرب ، وإلى الرسول ألصق ، وحسبى أننى منهم على مبعدة السنين .

فما طال اجتهادى جهدهم ، وما حست نفسى إلا تطلعاً إلى ما خلفوا من سنن وماتبعوا من الرشد، عدتى فى ذلك الناس وفطرتهم ، وغايتى فى ذلك

الناس وما تحبه سبحانك لهم ، عدل موصول ، وظلم مرفوع ، وعيش كريم، وصلاح فى الدين ، وصلاح للآخرة .

● ● ●

اللهم إنى أعلم أننى فى الناس أتحمل عن الناس ومع الناس هموم دنياهم ، إلا أننى أسألك لطفاً ومغفرة ورحمة فى ولاية أمر الناس ، وهى أمانة تسألنى عنها ما أصبت ، وتحاسبنى عليها ما قصرت . فاللهم عفوك وغفرانك.

● ● ●

اللهم إنى مدرك أننى فى الناس لا أملك بواطنهم ولا أعرف سرائرهم ، أنت وحدك العلام بما تخفى الصدور ، حسب جهدى أن يطولهم عدل الإسلام ونهجه ، ما وسعنى السبيل إلى ذلك ، وهدى للاسلام ما بلغ الجهد حدود غاياته ، وقيم الإسلام كما جاء فى كتابك وسنة رسولك .

فاللهم أسألك توفيقاً فيما نويت خيراً وقصدت خيراً .

● ● ●

اللهم إننى أسألك للناس عفوك ، وللناس رضاك ، وللناس رحمتك ، فما كنت هادياً لهم على طريق الإسلام ونهجه إلا استلهاماً لفطرتهم وامتثالا لرغبتهم ، وسعياً على طريقهم ، فما حددت ركبهم ، وإنما سايرت دفعهم إياى على طريق دينك ، وهو الحق والعدل والسلام والخير .

● ● ●

اللهم إننى أعلم أنك بعثت فى الناس من ترك فى الناس مالا يضلوا أبداً لو تمسكوا به ، كتابك سبحانك وسنة رسولك ، اللهم إنه طلب للناس

استجبت له ، وهدى للناس شئته أنت لهم فتبعتهم أنا : أن يكون كتابك شريعتهم ، وأن تكون سنة رسولك منهجهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

• • •

اللهم إن الغاية دونها العمر ، والوسيلة دونها القدرة ، فأسألك اللهم عونك ، وأسألك اللهم رشدك ، وأسألك اللهم توفيقك .

• • •

اللهم إن دينك هو الحق، ودينك هو العدل ، ونهج دينك هو الصراط المستقيم ، اللهم أعنى وأهلى على بلوغ مراتب المسلم الحق ، برا بالناس ، ورحمة للناس ، وعوناً للناس ، وخيراً للناس ، لا نفرق بين أحدهم ، نخلص فى طاعتك إخلاصنا فى خدمة عبادك ، ننشد عدلك بعدل نقيمه وظلم نرفعه ، نبتغى نعمتك ما أغدقت وأعطيت ، بعمل نتقى الله فيه ، فيكون لنا الثواب ، ثواب الآخرة ، وثواب فى الدنيا كفاية وخيراً .

• • •

اللهم إنا نسألك أن تعيننا على أمر أنفسنا أن نكون كما أمرت أمة وسطا ، لا نتطرف تعصباً ولا نتحيز تجبراً ، نصل الناس ونكون للناس عدلا وسلاماً .

• • •

اللهم إنك العدل وما ابتغيت إلا عدلا ، اللهم إنك الخير وما أردت إلا خيرا ، اللهم إنك الرحمة وما أردت إلا رحمة بالناس ، وما الإسلام إلا رحمة للعالمين .

• • •

اللهم إنك تعلم ما فى الصدور فلا تضعنى إلا حيث قصدى ، ولا تسألنى إلا حدود جهدى ، اللهم إنك أنت السلام فأعنى على أن يكون السلام لوطنى ، والخير لأهلى .

• • •

اللهم أسألك دعوة أدعوها تستجيب لها ، أن تجعل هذا البلد آمناً وأن ترزقه من الثمرات وإننا على نعمائك حامدون ، ولعطائك شاكرون، ولفضائلك صابرون ، وإنك أنت الأول والآخر ، وإليك المصير .

• • •

اللهم إنى دعوتك الخير لأهلى والصلاح لبلدى والهداية لنفسى ، إلا أننا من الناس بعض أمة ، تخيرت بما التزمت بنهجك ، أمر بمعروف ، ونهى عن منكر .

• • •

ربنا هى أمة كانت خير أمة أخرجت للناس مادامت بنهج ما أمرت . وما زاغ بصرها واهتزت أركانها إلا حين زاغ إيمانها ، فما تطابقت قناعاتها مع عقيدتها ، ولا تقارب دربها مع نهج دينها الحنيف .

• • •

ربنا هذا حالنا لا يرضيك .

وذلك ما كنا لا ترضاه لنا حيث ارتضيناه لأنفسنا ، شتات لا يجمع الحق كلمتنا ، نستظل بغير نهجك ، ونحتكم بغير شريعتك ، ونختصم بغير عدل ننصره ، وظلم نرفعه ، وباطل تؤاخذنا عليه ، فإذا نحن ما نحن فسبحانك أنت أعدل العادلين .

أعطيت وأغدقت فما نفعنا ، أن نكون فى الناس أكثر مالا وأعز نفرا ، فإذا بعطاء النعم نقمة ، وإذا بكثير الناس فرقة ، بعد أن توزعنا على أنفسنا فإذا بعضنا لبعضنا عدو مبين .

• • •

اللهم أعوذك من شر أنفسنا ، وما شر النفس إلا أن تضل النفس ، تعرف الباغى فتكون معه ، وتعرف المظلوم فلا تنصره ، تستنصر عدوها على عدوها ، فلا يصادف إلا الخسران غايتها .

• • •

ربنا أدعوك رشد الهداية لأمة كانت خير أمة ، كما أمرت ، لنصبح ما نرضى . ألا تهون على الناس بغير عزتها ، وأن تكون فى الناس بحجم قدرتها ، وأن تلوذ بالخير وما الخير إلا العروة الوثقى ، اعتصاماً بحبل الله فلا شتات ولا فرقة .

• • •

ربنا ألوذ بك من شر أنفسنا ، فنحن أمة أباحت لعدوها ما لم يستبحه فيها ، فما طال منها غير بعض أرضها ، فأسلمته إرادتها ، وما نال فيها إلا شهداءها ، فأنالته منها قتلتها وقتلاها ، فإذا العدو الحكم ، وإذا الخصم الوسيط ، وإذا الظالم هو العدو ننشده لأنفسنا نستبقيه ونلوذ به ، نحتمى منه ويستجبره بعضنا من بعضنا .

• • •

ربنا هذه أمة لسانها لغة كتابك ، فطرتها كريم قرآنك ، تراثها نهج رسولك ، غايتها غاية المسلم أن ينصر أخاه مظلوماً برد الظلم عنه ، وظالما يمنع ظلم الناس عليه .

فما بال أمتنا غير ما كانت ، نعماؤها نقمة ، وكثرتها ضعفاً ، وجمعها شتات ، ووحدتها خصومة ، وقوتها فلول ، وقدرتها خور ، ودمها مباح لطامع فيها ، وطامع فيها يحالف عدوها عليها ، وينتصر لعدوه منها .

• • •

ربنا هى أمة لا خلاص لها إلا بعودتها لينابيع عزتها .

فإذا كنا على طريقك قد اهتدينا فاللهم إهد أمتنا بمثل ما هديتنا ، وإذا كنا قد رجعنا ورجوعنا الحق ، فاللهم ألهم أمتنا أن تحذو حذونا ، اللهم إننا أخلصنا القصد إبتغاء مرضاتك فلا تزرنا وزر من ضلوا وإنما نسألك اللهم لهم الرشاد والهدى .

• • •

اللهم لا يرضيك حال المسلمين فانصرهم على أنفسهم ما داموا عن هداك أبعد ، ولمعصيتك أقرب .

• • •

اللهم أعنا على أمر أنفسنا ألا نكون انشغالا بها فلا ندعو لحق آمنا ، ونهجا التزمنا ، وطريق رشد سلكنا .

• • •

اللهم إننا فى ظلك وبظلك وهداك ندعو من نحب ، وما أحب إليك إلا من أخلص من عبادك ولخير عبادك .

• • •

اللهم أن دينك هو الحق فأعنا بأمتنا أن ننصره ، ودينك هو العدل فألهمنا وأمتنا أن نستظل به ، ودينك هو صلاح فى الآخرة ، فاجعل اللهم من أمتنا وأنفسنا أن نجعله كما أردت للناس فى دنياهم وللناس وتقدمهم ، وللناس فضيلة وخيرا ورخاء وبركة .

● ● ●

اللهم هذا حال أمتنا لا يخفى عليك ، فأنت تعرف السر والنجوى ، وأنت الخبير العليم ، نسألك ربنا أن نكون بحسن القصد وطهر الغاية وصالح النوايا لأمتنا وأنفسنا غير ما نحن فيه .

أن نكون على عدونا لا أن نكون له ، أن نكون للحق حشداً ، وللباطل خصما ، وللظالم قهراً ، وللمظلوم نصراً ، وللحياة تقدماً ، وبراية الإسلام انتصاراً .

● ● ●

اللهم أنها أمتك فانصرها بهدايتك ، مادام فيها من يستظل بدينك ، ويلتزم بكتابك ، ويستشرف بنهج رسولك .

● ● ●

اللهم أنها غربة القرون ، وبعد الطريق، وما زاغ معه البصر من وهج للباطل فظنه الحق .

● ● ●

اللهم فلتهد أمتنا إلى جوهر الحق دينك ، وجوهر الهدى شريعتك ، وراية النصر وما النصر إلا من عندك ، وكان وعدك الحق نصر المؤمنين .

● ● ●

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم

من برنامج الولاية الثالثة

تصدير

هذا برنامج الولاية السياسية الجديدة للاتحاد الاشتراكى السودانى ، يطرحه رئيسه المرشح لرئاسة الجمهورية على الشعب ويلتزم به فى ولايته الثالثة باذن الله . وقد عرض مشروعه للدراسة فى الحركة السياسية والشعبية فى كل مستوياتها وأقره المؤتمر القومى الرابع فى دورته خلال الفترة من ٢٦ فبراير — ٤ مارس ١٩٨٣ ،فأصبح بعد اقراره. برنامجا للعمل الوطنى بأكمله ندفع به المسيرة الى الآفاق الرحبة ، وتتجدد به الحياة الوطنية ، وتسد به الثغرات والفجوات ، فهو بذلك دستور العمل السياسى لقوى الشعب المتحالفة بأسرها .

ان هذا البرنامج ليس مجرد تناول طارىء للأمور أو محض تجميع وترتيب لخطط الوزارات ومسالك المصالح وقد نأينا به عن أن يكون تعبيراً عن الرأى الخاص والدوافع الذاتية .

وقد وجهت هذا العمل دراسات اضطلعت بها مجموعات عديدة من القيادة السياسية وتمت صياغته الأخيرة تحت النظر المباشر للرئيس القائد رئيس الاتحاد الاشتراكى السودانى ، فهو لم ينبثق من فراغ وانما جاء مواصلة لوثبة انطلقت فجر يوم الخامس والعشرين من مايو ١٩٦٩ .. وتأصلت هويتها عبر ولايتين للرئيس القائد جعفر محمد نميرى .

وعلى الله قصد السبيل .

رئاسة الاتحاد الاشتراكى السودانى

٢٠ جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ
٥ مارس ١٩٨٣ م .

تمهيد

تقف اليوم بلادنا كما يقف تنظيمنا السياسى الاتحاد الاشتراكى السودانى على أعتاب مرحلة جديدة تفرض علينا أن نطل على مسار تجربتنا بالتقويم الموضوعى والدراسة الفاحصة للأهداف والوسائل ونحدد بالموضوعية الأسبقيات وأطر العمل وبرامجه ليتصل اندفاع الثورة وعطاؤها تقدما بالعمل الوطنى نحو تحقيق الأهداف الأسمى فى الحرية والديمقراطية والاشتراكية وفى صنع الخير والنماء والتقدم .

وهى وقفة تنطوى على دلالة كبرى ، لأنها تأتى ختاما لدورة حافلة بالانجاز فى مواجهة صعاب عاتية نستقبل بعدها دورة زاخرة بالطموحات والتحديات نستشرف فيها ولاية جديدة لرئاسة الجمهورية فى ظل التنظيم السياسى والدستور والسيادة الوطنية .

لقد حققت الثورة خلال الأربعة عشر عاما التى مضت انتصارات كبرى وانجازات باهرة فى كل ساحات البناء الوطنى ونحن نواجه ظروفا صعبة وخيارات قاسية ، لكن ارادة الثورة كانت دائما غلابة وعزيمة الثوار كانت أمضى فى مواجهة الصعاب والاخطار .

واننا لنقف اليوم أمام المسئوليات الملقاة على عواتقنا وفى مواجهة التحديات التى تجابهنا نقف ونحن أشد ايمانا بالوطن والثورة وأقوى ارادة وعزما على اجتياز الصعاب والعقبات وأشد اقتناعا بأنه لا بديل عن الثورة ولا نكوص عن طريق النضال والبناء .

ان قدر الثورات أن تصنع التاريخ وصناعة التاريخ ليست مجرد تبشير بالجديد أو اسراف فى الأمانى فما من ثورة غيرت وجه الحياة فى مسار تحول حضارى عظيم بغير مشاق وتضحيات فالأمم العظيمة تبنيها الثورات الأصيلة بارادة ووحدة بنيها وجهدهم الخالص للوطن والأمة .

لقد جاءت ثورة مايو فى سياق ارث حضارى يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ وحددت لنفسها مبادىء وأهدافا تعبيرا عن ارادة الأمة فى فترة من أدق فترات تاريخها المعاصر .. ولسنا بحاجة للتذكير بهذه المبادىء والأهداف فهى التى أنارت لنا معالم الطريق وأبقت جذوة الثورة متقدة وهاجة رغم كل الشدائد والأهوال بل هى التى حفزت هذا الشعب الأبى الجسور ليلتف حول ثورته منذ تفجيرها وعبر مسيرتها رغم المخاطر والصعاب .

ما ادعينا يوما ولن ندعى أن الذى حققناه خلال ولايتين هو الاعجاز أو خاتمة المطاف فالثوار الحقيقيون لا يزهون ولا يركنون للرضـــاء عن النفس ولا تبطرهم انجازات الوحدة والاستقرار والنماء والتطـور .. لقد أخطأنا مرات واصبنا مرات ، نجحنا هنا واخفقنا هناك فما توارينـــا خلف الأعذار ولا تذرعنا بالدعاوى والأباطيل .. كنا ولا نزال ندرك أن صراعنا مع التخلف الاقتصادي والاجتماعى ومع واقع الفرقة والشـتات هو التحدى الأكبر أمام الثورة ، وان قدر الثورة أن تعمل على تحـرير ارادة الأمة وتوحيدها واعلاء رايات الوطنية والديمقراطية والبنـاء .

ان انتصارات الثورة عبر مسيرتها الظافرة فى ساحات البناء الوطنى الشامل ارساء لركائز الوحدة والاسـتقرار تعـزيزا للنمـاء والتقـدم الاقتصادى والاجتماعى تحقيقا للديمقراطية الشعبية وتطويرا لنظام الحكم ورد السلطة للشعب هى انتصارات حققها الشعب بثورته .. وقد كان هذا وفاء لأهداف آمنا بها وسطرناها فى الدستور وفى ميثاق عملنا الوطنى وحشدنا فى سبيل تحقيقها قوى تحالفنا وقدرات وطاقات ومواهب أمتنا .

ان هذه الانتصارات والانجازات لا يطمس عظمتها ما لحق بها من شوائب وما صحبها من عثرات فهى بكل مقاييس التطور المتعارف عليها طفرة فى البناء الوطنى لا سبيل لانكارها .

ولسنا ننكر ما واجهنا من صعاب وعقبات ومن خطأ وصواب ومن نجاح واخفاق حال دون بلوغ طموحنا وتطلعاتنا فى الانجاز .. وأن المسئولية تلزمنا أن نتناول فى هذه الوقفة بالتقويم النزيه الشجاع مسار تجربتنـا نراجع ولا نتراجع نحدد خطواتنا على طريق الثورة والانجاز عبر الولاية الثالثة ، فذلك منهج حرصنا على الأخذ به فى كل الأوقات ، تأمينا لسلامة المسيرة ، ودفعا بالثورة الى الآفاق الأرحب .

ان المطروح فى هـذه المرحلة لاستشراف الولاية الثالثة لرئاسـة الجمهورية برنامج سـياسى شـامل متكامل فى كل جوانبه تتحـدد فيه استراتيجيات عملنا الوطنى وتتضح خططه وبرامجه .

هو برنامج التنظيم السياسى تم الاعداد له فى رحابه فى التزام كامل بالمبادىء والأهداف ومسئوليات العمل ، ليكون برنامجا معبرا عن ارادة الثورة والأمة ، انتظارا لوحدة الوطن ووثبة بالنماء والانتاج ووفاء بالامانة والالتزام الى جانب الشعب .

هو برنامج ينطلق من قاعدة ما حققنا من انجاز ويستند على تجارب وجهود جبارة بذلت عبر سنى الثورة على كل صعيد ، كشفت لنا معالم الطريق وزودتنا بالثقة واليقين للمضى بالثورة ومواجهة صعاب التغيير والبناء .

هو برنامج وثبة وبرنامج تركيز وندعم به كل ما أرسيناه من قواعد ثابتة للبناء الوطنى وما حققنا من انتصارات كبرى .

هو برنامج لاستكمال مهام الثورة التاريخية فى بناء الأمة السودانية وفى أزدهار النماء والعمران وفى دعم الوثبة الاشتراكية واقتسام السلطة والثروة بين أبناء وأقاليم السودان على أسس المساواة والعدل .

هو برنامج لتطوير وتجديد الحياة الوطنية ولاستكمال النواقص وسد الثغرات ولاستيعاب المتغيرات ومراجعة الاسبقيات ومواجهة المصاعب والأزمات ولتطوير المناهج والمفاهيم .

هو برنامج للتجديد الاشتراكى الديمقراطى بأن يتوافق منهج البناء مع فلسفتنا ومع واقع مجتمعنا فى تطبيق الاشتراكية القائمة على العمل والانتاج الذى تعود فيه الثمرات لجموع الشعب .

هو برنامج لتطـــوير ولترقية العمل فى تنظيمنا السياسى الاتحاد الاشتراكى السودانى الذى تأكدت عبر مسيرته صحة وسلامة خياراتنا للبناء والتطور السياسى .. برنامج يجعل من تنظيمنا السياسى سياجا قويا للوحدة الوطنية ، ممثلا لارادة الأمة مستوعبا لطاقاتها ، معبرا عن تحالف قواها ، موجها للحياة الوطنية وقائدا لمسيرة البناء والتحول الديمقراطى الاشتراكى .

هو برنامج يتسع به نفوذ تنظيمنا السياسى بسلامة سياسته وصحة مناهجه وتجسيده للآمال الوطنية .. وبنزاهة قيادته وعزوفها عن مطامع الذات ، واتسامها بفضائل الأمانة والايثار .

لقد التزمنا فى كل برامج العمل الوطنى منذ تفجير الثورة بمنهج جديد فى الآداء والانجاز منهج يتجـــاوز الصيغ والانماط البالية ، ويستجيب لتحديات البناء وواجبات التغيير ، ويلبى آمال وطموح جماهير شعبنا الصامدة .. كان هدفنا الاقليمى ومازال هو بناء السودان الجديد الموحد بجهد وارادة أبنائه مرتكزين على أصالة شعبنا وتراث وقيم أمتنا وتجارب العـــالم من حولنا .

لقد حددنا فى مواثيقنا وفى برامج العمل الوطنى وعبر الولاية الأولى والثانية ، أن بناء المواطن اجتماعيا ومعنويا هو السبيل الأوحد لبناء الوطن وتحقيق نمائه وتطوره المـــادى الحضارى .. وأن توجه العمل الوطنى فى كل أبعاده السياسية والاقتصادية **والاجتماعية والثقافية يتخذ من النهج الاسلامى سبيلا الى الاصلاح الاجتماعى بتحرير العقول والقلوب وبناء كرامة الانسان على هدى القيم الانسانية التى ارتكز عليها كيان الأمة فى كل ماضيها وتاريخ نضالها الطويل .**

وانا على هذا النهج لسائرون ليرتبط حاضر هذا الشعب بماضيه لبناء مستقبله ، ولتزدهر الشخصية القومية بوصلها بجذور أبعادهـــا الحقيقية ، وتنفجر كل الطـــاقات الكامنة فى ضمير الأمة ويتحول العمـــل الوطنى الى ساحة من ساحات الجهاد يحقق الانسان فيه ذاته بتحقيقه لمهام واجبه الوطنى ، لأن فى تحقيق العمل الوطنى تحقيقا للذات الانسانية .

ان النهج الاسلامى الذى ننشده لايمكن تطبيقه فى مدى زمنى قصير فى عمر ولاية أو ولايتين من عمر الثورة ، اذ هو استراتيجية بعيدة المدى لابد فيه من التأنى والتدرج وتمهيد الأرض على مراحل لبلوغ الغايات المرجوة وتجنب النكسات والهزات .. وقد كانت مرحلة الولايتين الأولى والثانية تمهيدا بالدراسات المتأنية فى مختلف مجالات الحياة وبدء العمل الفعلى لازالة كثير من الشوائب العالقة بوجه المجتمع ولمراجعة القوانين بغية تعديلها لتتلاءم مع احكام الشريعة الاسلامية .

وسيظل رائدنا فى تطبيق نهج الاسلام الاعتصام بالاعتدال والتوسط، مهتدين بقوله تعالى : ((**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**)) .

سبيلنا التدرج والتيسر لقوله تعالى ((**وما جعل عليكم فى الدين من حـــرج**)) .

ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم « يسرواولا تعسروا وسكنوا ولا تنفـــروا » .

فلا حرج ولاتشدد ولا غلظة،وانما هو التسامح ، قمة السمو الروحى الذى أصبحت به الرسالة الخالدة ملاذ الانسانية المعذبة على اختلاف نحلها ومللها ، كيف لا وسبحانه وتعالى يقول فى محكم تنزيله : « لا اكراه فى الدين » .

ويقول جل من قائل : ((**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)) .

وكان الاسلام بذلك الدين الذى اسبغ رعايته على غير المسلمين من أهل الكتاب كما اسبغها على المسلمين وسنأخذ فى أمر نهج الاسلام بالمساواة بين كل المسلمين فى القيام بأمر الدين ، فلا وصاية ولا كهنوت ، ولا مزايدة ولا تشيع ، ولا فرقة باسم الاسلام ، وسيكون ذلك دابنا مهتدين بهدى الاسلام فى استنباط الحلول لمشاكلنا بالمرونة والاجتهاد والتجديد .

أن تطور مجتمعنا وتحوله السريع من مجتمع رعوى زراعى بسيط الى مجتمع صناعى معقد ، وما ينجم عن ذلك من تطور اجتماعى يقلب كثيرا من نظم مجتمعنا وعاداته وتقاليده يفرض علينا مزيدا من الجهد لمحاصرة

سلبيات التقدم .. وذلك لا يتحقق بالاجراءات الجزئية بل لابد من النظرة الاستراتيجية الشمولية . فان الدولة التى تغير بمشروعاتها العمرانية من طبيعة المجتمع لابد أن تواجه باستراتيجية مماثلة ما ينجم عن هذا التغيير من سلبيات .. وذلك يحتاج الى تضافر كل الجهود فى كل مؤسسات وأجهزة الدولة دعما لشخصية المواطن وترشيدا لأدائه وتوجيها لسلوكه لمواجهة سلبيات التطور المادى التى تضعف من مقاومة الانسان وتفتح أمامه سبيل اشباع الشهوات واقتحام أسباب الفساد كما هو الحال فى كل المجتمعات الصناعية المتطورة .

واختيار النهج الاسلامى كاطار فكرى وحضارى لتحقيق أهدافنا القومية فى هذه المرحلة فوق ما فيه من تعبير عن ضمير الأغلبية من شعب السودان كما تنص على ذلك المادة (١٦) أ من الدستور الدائم التى تقول « **فى جمهورية السودان الديمقراطية الدين الاسلام ويهتدى المجتمع بهدى الاسلام دين الغالبية وتسعى الدولة للتعبير عن قيمه** » .

فهو تأكيد للوحدة الوطنية لأن قيم الاسلام قد صاغت حياة هذه الأغلبية ووحدت بينها فى النظرة والمسار ، والارتكاز على النهج الاسلامى هو تأكيد لهذه الصياغة ودعم لها .. ثم ان الاسلام بمنظوره الانسانى الشامل ليس منهجا للمسلمين وحدهم بل هو اطار يجد فيه غير المسلمين كل حقوق المواطنة فوق ما تمنحه اياهم دياناتهم التى يحترمها الاسلام ويحميها ، ويجعل حمايتهم فرضا فى ذمة المسلمين لا يتم اسلامهم الا بأدائه، وليس ذلك تكرما على غير المسلمين بل هو جزء من الدين لا يصح اسلام المسلم الا به .. ومن الواضح أننا فى تنزيل قيم الاسلام على واقع حياة الناس نأخذ فى الاعتبار عادات الناس وحقوق غير المسلمين وموقع السودان الجغرافى وما الى ذلك مما يتيح المساواة بين المواطنين على اختلاف أديانهم وذلك يقتضى تنسيقا أشمل بين أجهزة الدولة ، وصدورها جميعا عن نهج واحد لنتفادى كثيرا من السلبيات التى عاقت قدرا كبيرا من تحركنا فى المرحلة الماضية .. ومن المؤكد أن حجم المشاكل ناجم فى جوهره عن حجم الانجاز فان ما بذلته الثورة فى مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية قد أفرز مجتمعا جديدا وواقعا جديدا لابد من التصدى له بفكر جديد وأساليب جديدة .. والتنمية كما أن لها ايجابياتها لها سلبياتها وهذه السلبيات يتعاظم خطرها فى غيبة النهج الذى يتصدى لها .. ولعل أهم ما يواجهنا فى هذا المجال أن الفرد السودانى الذى حررته الثورة من كثير من معوقات حياته الاجتماعية والسياسية والروحية وفتحت أمامه فرص التطور المادى والمعنوى هو بحاجة أكبر الى ما يوجه هذا التحرر من منحاه الذاتى القائم على الكسب الشخصى على حساب الصالح العام الى تحرر أشمل يضع المصلحة الذاتية فى خدمة المصلحة العامة ، دون أن يجحف بطموح الأفراد وتطلعاتهم المشروعة ، ولن نتمكن من الارتقاء بتوجه الأفراد نحو هذه الغاية السامية بغير تعميق للنهج الاسلامى وما أكدته قيم الديانات الأخرى من قيم الجماعة والتكافل بين

أفرادها مما يمنحنا القدرة على استنفار طاقات المواطنين جميعا وتفجيرها لبناء الوطن .

ولابد لنا أن نبذل كل ما نستطيع حتى لا يؤدى ارتفاع معدلات النمو الاقتصادى وتكثيف التصنيع الى انهيار نموذج الحياة الوطنية وأساليب السلوك التقليدية الحميدة ، وتفكك الأسرة والعائلة وتراجع قيم التماسك والتكافل .

ولابد لنا أن نلجم الطمع ونحارب الفساد ونعالج أسـباب العجـز والقصور ولابد للسلطة وأجهزتها أن تكون المثل والقدوة نزاهة وأمانة وتقشفا وقسطا وأن تدلل بأدائها وانجازاتها على الكفاءة والمقدرة .

ولن تتحول الثورة فى كل ذلك عن منحاها الاشتراكى الديمقـراطى تأمينا لضرورات الحياة الأساسية فى التعليم والصحة والرعاية العـامة لكل المواطنين بحيث يتمكن المواطن مهما قل دخله من الاستفادة من هذه الخدمات العامة .

من البرنامج السياسى الشامل للولاية الثالثة

فى مجال الشئون الدينية والأوقاف

ان النهج الاسلامى الذى صيغ على أساسه هذا البرنامج السياسى الشامل يتطلب من كل أجهزة الدولة وعلى الأخص أجهزة التوجيه والارشاد نهجا جديدا فى تناول قضايا العمل الوطنى يصل قيم الدين بمعـاملات الدنيا بناء للوطن وتطويرا لحياة المواطنين ، ولكنه يلقى على مؤسسات العمل الدينى مسئوليات أخص فيما يتصل ببلورة قضـايا هذا النهج الاسلامى وعرضها عرضا عصريا يخاطب عقول المواطنين ويلمس وجدانهم ويدفعهم الى العمل والبناء ، وذلك يقتضى تطويرا شاملا لأجهزة العمـل الدينى وتجديدا لوسائل أدائها ، مما سنوليه عناية خاصة باذن الله فى الولاية الجديدة .

●●●

بيان إعلان التشريع الإسلامي

في السودان

٤ رمضان ١٤٠٥هـ

٤ يونيو ١٩٨٤م

بســـم الله الرحمن الرحيم

((واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل))
((صدق الله العظيم))

الأخوة المواطنون الثوار الأحرار أهنئكم أيها الأخوة بالشهر الكريم الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

التحية لكم والخلود لثورتكم المظفرة أبدا والمنتصرة باذن الله .

لقد كان العهد عهدكم أيها الأخوة وكان الاختيار لكم يوم قلتم نعم للاستفتاء على رئاسة الجمهورية ذلك الاستفتاء وان طال بشرف الاختيار مرشحا للاتحـــاد الاشــــتراكى الســـودانى . فانه كان الزاما بالبرنامج السياسى الشامل برنامج الاتحاد الاشتراكى السودانى وبرنامج الولاية الجديدة فنعم التشريفلشخصى الذى كانتكليفا من الشعب بالالتزامببرنامج الولاية الجديدة وعلى طريق الالتزام بالعهد صـــدقا ووفاء وقبل هـــذا اهتداء بالاسلام دينا وعقيدة ، وبالرسول سنة ونهجا وبالسلف الصالح مسلكا ودربا والذين ما تحيدوا فى اختيار من يلى أمرهم بقدر اشــــفاقهم من اختيار قاض يتوخى العدل ويتجنب الظلم فيهم .

هذا السلف العظيم والذى اهتدى بالاسلام عدلا وابتغى بالاسلام عدلا فدانت لهم الدنيا وكانت لهم الأخرى ثوابا وأجرا ذلك السلف العظيم الذى كان فيه عمر بن الخطـــاب راية للعـــدل ما انتكست وكان فيـــه عمر بن عبد العزيز منارة للعدل لا تخبو ذلك السلف العظيم أيها الأخوة الذى التزم بالكتاب وما كان الكتاب الا عدلا يدعو اليه وعدلا يحتـــكم الناس بحدوده وعدلا ينام فى رحابه الخائف والمظلوم والمهضوم بل هو الكتاب الذى جعل العدل فى الدنيا مدخلا لعدل الآخرة والظلم فى الدنيـــا ظلم الظـــالم لنفسه يوم لا ينفع مال ولا بنون . ذلك أيها الأخوة هو نهج الاسلام وشريعته وذلك أيها الأخـــوة ما اســـتهدفه البرنامج السياسى الشامل للولاية الثالثة والذى تضمن فصلا كاملا عن العدالة النـــاجزة ما كانت وما ينبغى أن تكون . ان العدل اذا تأخر لهو ظلم ولو تمهـــل ان الحق كالعمر تهدمه السنون .

ان العدالة الناجزة لهى العدالة الحاسمة تلك التى لا يطاولهـــا الظلم . بالتطول فى اجراءاتها ولا ينال اليأس من المتطلعين اليها بقـــدر ما تستنزف من أوقاتهم وأموالهم وهى نفسها عدالة العدل اذا ما فات

عن الشبهات والريب شبهات ينال فى ظلها من لا يستحق ما لا يستحق وشبهات تحرم فيها من يستحق مما يستحق عدالة هى العدل طهارته .. حيث لا ظنون ولا شكوك ولا أهواء ولا اغراء عدالة هى العدل تجـرده وهى العدل أمانة والأهم هى العدل بعدا عن مواطن الشبهات عـدالة تطوع القانون للحق وحده فاذا ما استعصى فالقياس واذا ما استعصى فالاجتهاد حيث المرجع فى كل الحالات يقظة الضمير عدالة هى عدالة الجوهر لا عدالة الشكل عدالة هى الحق ننشره وليس الاجراءات مدخلا للتلاعب بحقوق المتقاضين عدالة لا يجسدها الالتزام بالنص القـانونى وحده وانما هى عدالة تتمثل فى الاطمئنان لمن يقوم عليها جوهره ومظهره مسلكه وهيبته بعده على ما يغرى غيره من الناس بما يضعف النـاس أغواء واغراء عدالة تتجسد فيمن يقوم عليها أن يرعى الله فيمن اختص به فى القضاء فى أمور الناس فلا يكون بينهم الا بمكانته فيهم بعـدا عن مظان المجاملة حيادا بين أطراف الخصومة تعاليا عن علاقة مهما كانت مبررة بأصحاب مصلحة ينظر فيها ، مهما كان موقعه منها أطراف مباشرة أو أطراف مساعدة واننى أعنى هنا ما أقول .

ان العدالة أيها الأخوة وتحقيقها يظـل مبدأ من مبادىء عقيدتنـا وثورتنا ، لا نتنازل عنها ولا نتهاون فيها واليوم فاننى أطرح على المواطنين هذه الاستراتيجية التى سأعمل على تنفيذها تحقيقا للعدالة النـاجزة بعد أن عان المواطنون أقسى أنواع المعاناة وهم يرون حقوقهم تهـدر وأملهم فى العدالة يتبدد . أن ثقة المواطن قد تهتز فى شخص أو فى مؤسسة من المؤسسات وقد يحتمل ذلك ، ولكن الذى لا يحتمل ولا يغفر هو أن تهتز ثقة المواطن فى القضاء ويوم يحدث ذلك فان ثقة المواطن قد تكون انهارت فى أقدس وأعز مؤسساته .

ومن هنا كان حرصى على متابعة شكاوى المواطنين وظلاماتهم التى ظلت تملأ مكتبى ووقتى وجوهر تلك الشكاوى والظلامات هو ما ظـل يردده المواطنون فى مجالسهم ومنتدياتهم عن فساد هنا ورشوة هنـاك وسلوك مشين لا يليق بمن أئتمنهم الوطن على حقوقه ومقدساته ولقـد اقتضى الواجب أن أتتبع تلك الشكاوى من المواطنين وأن أصدر قرارى العادل باحالة بعض القضاة الى التقاعد ايمانا منى بتوفر الأسباب التى تبرر ذلك القرار وبأن ثقة المواطنين فى القضاء لم تتحقق الا بأبعاد العناصر التى أساءت بسلوكها وتصرفاتها الى القضاة والقضاء . ولقد قابل المواطنون الحادبون على القضاء ومستقبله ذلك القرار بالارتياح والرضاء ولـكن فئة من القضـاء مدعومة بقلة من المحـامين الفاسدين بكل أسـف قد اندفعت وراء عواطفها وراحت تدعو زملاءها الى التوقف عن العمل ، وكانت أجهزة الدولة تتابع تلك التحركات وترصدها ولكنى وجهت بعدم اتخاذ أى اجراء أملا أن تثوب هذه العناصر الى رشدها وتعى خطـأ وخطورة عملها لكن هذا التسامح قد أغرى تلك الفئة بكل أسف لتتمادى فى ضلالها وغيها وأرسلوا وفودهم الى الأقاليم لتحريض القضاء بالتوقف

عن العمل بل راحوا يحرضون قانونيين بمؤسسات أخرى ليتضامنوا معهم وليقفوا بجانبهم ثم أخذت بعض العناصر المغرضة تتحرك وقد تهيأ لهــا المناخ لتستغل هذا الموقف الخاطىء الذى تورط فيه بعض القضاة بعــد أن دخلوا فى اضراب عن العمل لليوم الرابع .

ازاء هذا الموقف أيها الأخوة الذى لا يبرره القانون ولا يســنده المنطق ولا تقره مصلحة الوطن والمواطنين فان مسئوليتى الدســتورية والوطنية تحتم على أن أعلن المواطنين بأننى لن أتسامح فى أمن الوطن واستقراره ولن أجامل فى حكم القانون وسيادته لن أسمح لدعاة التخريب والفوضى أن يعبثوا باستقرار الوطن وسلامته ، وعليه فاننى أطلب من كل القضاة الذين توقفوا عن العمل أن يعودوا فورا الى استئناف عملهم ابتداء من صباح الأربعاء ١٥ يونيو ١٩٨٣ الموافق ٥ رمضان ولســوف تتخذ الاجراءات القانونية ضد كل من يتخلف عن أداء واجبه وفى نفس الوقت أوجه كل أجهزة العدالة الأخرى الحادية على اســتقرار وأمن السودان أن تقوم بواجبها نحو أى تحرك من هؤلاء الفاسدين المرتشــين وتتخذ اجراءاتها التى تحفظ الأمن والاستقرار لهذا البلد .

الاخوة الثوار الأحرار

ان سودان اليوم ليس سودان الأمس بأى حال من الأحوال لقد تغيرت أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية وتعقدت العلاقات بين الأفراد ولم تعد تجمعاتنا البشرية تعيش ببساطة أجيال سبقت ان النمو الاقتصــادى والاجتماعى قد أفرز الكثير من الظواهر والمظاهر وهى ظواهر بعضــها يتطلب الردع حماية للمجتمع كما فى حالة الجريمة وبعضها يتطلب الحسم نظرا لتعقد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين المواطنين ولهذا فاننــا بعد مرحلة لاحظنا فيها تلك المتغيرات بجهد واجتهاد فى مجال التقنين أو التشريع كان علينا أن نتوقف أمام النظام القضائى والقائمين عليه ذلك ان هؤلاء وان كانت مهمتهم ترشيد المجتمع وضبط علاقات أفراده وكفالة الطمأنينة والأمن لهم الا أنهم جزء من المجتمع يتأثرون بما يتأثر به من ايجابيات وسلبيات تطوره وانني وان كنت أحمد الله وأشكره على أن معدلات التغيير والتأثير الاقتصادى والاجتماعى فى جانبها السلبى لم تنل من هؤلاء الا قلة القلة فان هناك واجب حماية الأغلبية الغالبة من مجرد الظنــون والشكوك والريب ، وهى حماية تتعداهم الى من يقعون فى رحابهم طلبا للمساعدة والوصول اليهم ولهذا فاننى وفى اطار التزامنا بالنهج الاسلامى أولا وهو العدل كما أراده الله وكما أمر وفى اطار البرنامج الســياسى الشامل بما قرر فصله الخاص عن العدالة الناجزة أطرح استراتيجية العدالة الناجزة على النحو التالى :

١ ـــ ان هناك ما يمكن أن يقال حول التناسب بين الكفاءة والقدرة وهى فى ساحات العدالة ليست مطلوبة فحسب بل أنها ضرورية أيضــا

ذلك أنها تتعلق بمصائر ومصالح وأقدار ولذلك فان الكفاءة المقترنة بالأمانة ستكون هى معيار الاختيار لقضاة محاكم الاستئناف والمحاكم العليا وذلك فى اطار ضوابط ومعايير يمكن الاطمئنان معها الى أن الاختيار قد استوعب العلم والكفاءة الأمانة والاستقامة والطهر والقدوة والهيبة التى تتناسب مع رفعـــة المكانة .

٢ — ان الكفاءة والأمانة وان كانت معيار الترفيع بالنسبة للقاضى الا أن القاضى بموقعه بين الناس مؤتمنا على حقوقهم انما هو موضــــع التشريف والتكريم أيا كان موقعه وأيا كان درجة التقاضى ونوع المحاكم التى يقضى بالحق والعدل فى رحابها .

٣ — ان التراث الاسلامى العظيم بما أغنى الحياة الاســـلامية فى مختلف مجالاتها ومنها القضاء انما عرف التخصص النوعى بما يتناسب واحتياجات الناس للتقاضى فقد عرف القضاء الاسلامى قضاء الحســـبة وقضاء العسكر وقضاء الشرطة وقضاء المظالم الى آخره واذا كان لنـــا من التراث الاسلامى ما يستجيب لاحتياجاتنا فان واقعنا الراهن بضغوطه واحتياجاته يفرض علينا الاجتهاد فى هذا المجال ولذلك فاننى قد وجهت بدراسة قيام نظام فرعى متكامل من القضاء الادارى يتولى الفصـــل فيه قضاة من ذوى الخلق والخبرة وان لم تتوفر لهم الدراية المتعمقـــة بالقانون ذلك أن قدرا من الالمـــام المعقول بالقوانين التى تتعلق بمـــا يختصون به من قضايا قد يكون فيه من الكفاية التى تستزيد من الخبرة ولا تستعصى على التوجيه والترشيد وذلك فى مجالات تتطلب اختزالا من الاجراءات وسرعة الحسم بما يضمن النفاذ للضوابط والتنظيمـــات الادارية فى مجالات التسعير والتموين والاسكان والحركة والصحة والنظام العام الى آخره .

٤ — أنه وفى هذا الاطار نفسه قد وجهت بقيام فرع للقضاء الادارى يكون فى كنف الهيئة القضائية ويشرف على المحاكم الخاصة بوجه عام .

٥ — اننى أعرف كما تعرفون أن للعرف دورا كبيرا ومكانه عظيم بين الناس وان كان العرف ليس مدونا كالقانون الا أنه نفسه هو القانون السائد بين المتخاصمين اذا ما اجتمع الناس حـــوله وارتضى أطـــراف الخصومة الاحتكام اليه خاصة بالنسبة للخصومات التى لا تمثل اعتداء على الحق العام والذى ينحصر موضوع الخصومة فيها ما يمس أطرافها المباشرين ومن هنا فان تقنينا ولا أقول تحديثا لهذا المفهوم قد يكون مدخلا لسرعة الحسم فى خصومات يستهلك القضاء العادى فيها وقتا وجهـــدا ومالا بأكثر من حجمها بل قد يطول طول اجراءاتها والزمن الذى تستغرقه للفصل فيها أعمار أجيال بأكملها بالاضافة الى أنها أعباء تتراكم امام القضاء بحيث تزاحم الأصيل من مهامها ولهذا فقد وجهت بدراسة انشاء محاكم خاصة للتراضى تكون فى تشكيلها أقرب الى المجالس العرفية ويتم

تشكيلها من أصحاب الخلق والفضل والعلم والمكانة الأدبية بالاضافة الى كفاءة قانونية ولا تختص تلك المحاكم أو المجالس بالفصل فى الخصومة وانما تكون محكمة أو مجلسا للتوفيق والتصالح بين أطراف الخصومة تحاول التوفيق بينهم بالتراضى بما يتناسب مع العدل فاذا نجحت فى تحقيق الوفاق قننته بتسجيل الاتفاق وتوقيعه بما يلزم أطرافه ، واذا لم تنجح كان لأطراف الخصومة أن يتوجهوا للقضاء العالى بمختلف درجاته ويحدد القانون صلاحيات هذه المحاكم أو المجالس واختصاصاته ، كما يحدد القانون الرسوم التى تتقاضاه على أن تكون فى كل الأحوال أدنى من رسوم القضايا التى ينتظرها القضاء العادى مما كان التوفيق أمام مثل هذه المحاكم أو المجالس تتم بالتراضى بين أطراف الخصومة فلا مجال لاستئناف ما توصلت اليه بعد ذلك .

٦ ــ ان الأصل فى القاعدة القانونية والشرعية هى أن البينة على من ادعى ولذلك فان المماطلة فى تقديم أدلتها وأساليبها انما هى أدلة على المدعى . أما لعدم جديته فيما ادعى وأما لضعف أدلته كما يراها أو لأنه أراد بالدعوة الحاق الضرر لمدع تبديدا لوقته وجهده ومساسا بسمعته ولذلك فان جدية الادعاء ينبغى أن تتأكد بجدية البيانات وفى المراحل الأولى للدعوى والذى على أساسها يكون الحكم فى الاستمرار فى نظرها أو شطبها .

٧ ــ أن شريعة العدل كما يمارسها القاضى انما هى التطبيق الواعى للقانون بما لا يخالف نصه وروحه والقياس على القانون والسوابق بما لا يخرج على القانون أو يخالفه وذلك كله يتطلب كفاءة تدعمها الخبرة وهى خبرة مدعومة بالممارسة ثم هى قبل ذلك كله بالخلق القويم والعلم المتين ولذلك فان التدرج فى سلك القضاء لا ينبغى أن يخضع لما يمكن أن تخضع له المهن الأخرى حيث الأقدمية المطلقة مدخلا للتدرج وانما يكون الباب مفتوحا بغير ضوابط الا تلك التى تتعلق بالكفاءة والقدوة الحسنة والخلق المتين والانجاز بالاضافة الى الاسهام العلمى لما يقدمه فى أبحاثه ودراساته من خلال أحكامه .

٨ ــ اننى لا أقرر حقيقة بقدر ما أنقل شكاوى آلاف المواطنين بالاضافة الى مئات ومئات المنتظرين فى السجون والحراسات حيث طال الزمن بهؤلاء ينتظرون فصلا فى قضاياهم وتقريرا لمصيرهم والحق ان ذلك يرجع فى جانب منه الى عدم تكافؤ عدد القضايا المنظورة والبلاغات المفتوحة أمام المحاكم وطاقة هذه المحاكم وقدرتها الأمر الذى يؤدى للتراكم ووقتها يتساوى ظلم يحيق ببرىء ينتظر براءته وصاحب حق يتطلع الى استرداد حقه .

والقاضى المطلوب منه أن ينجز ما لا يمكن انجازه الا اذا تضاعفت ساعات يومه أضعافا مضاعفة . ويرجع هذا التراكم فى جانب كبير منه

الى بلاغات كيدية لا يستهدف مقدمها سوى الحاق الضرر بخصم يريد أن ينال من وقته أو حريته أو حتى مجرد ازعاجه لبعض الوقت ولهذا فانه من الضرورى أن تطبق بصورة حاسمة القوانين التى تعاقب على البلاغ الكاذب وحتى على عدم جدية البلاغ واذا كانت القوانين النافذة لا توفر الردع المطلوب فان قوانين جديدة ينبغى أن تتضمن ليس عقابا على المدعى كذبا فحسب بل ينبغى أن يلزم بدفع تعويض للمدعى عليه بما يتناسب مع ما أصابه فى حريته أو وقته أو ماسا بكرامته .

٩ — أن درجات التقاضى وان كانت ضمانات للعدل فانها ينبغى أن تكون هى العدل بكل ضماناته فى كل درجاته وذلك بما يتوفر فيها من التزام بالقانون نصه وروحه وبالاجراءات سلامتها ودقتها بالدراسة الواعية للقضية بمختلف جوانبها وذلك حتى تكون الأحكام فى كل درجة لها من صلابة أركانها ما يصونها ويحميها من الطعون . ذلك يكون فى جانب منه اقتناع للمظلوم بأنه أخذ حقه واقتناع للظالم أنه نال جزاءه وذلك بدلا من أن يكون الحكم فى أحد درجات التقاضى مجرد مرحلة لا يستقر الحق فيها لصاحبه جانيا أو مجنيا عليه ذلك أقرب الى ثبات هيبة القضاء وذلك تيسيرا للقضاء لتحمل مسئولياته بالاضافة الى أن ذلك سوف يكون معيارا لكفاءة القاضى وحكما على انجازه ومقدرته .

١٠ — انكم تعرفون كما أعرف أن اجراءات التقاضى بما فى ذلك اعلان أطراف الخصومة واستدعاء الشهود قد تكون مداخل للتلاعب أو التهاون غير المقصود وفى كلتا الحالتين فان النتيجة حقوق تهدر ومصالح تضيع وأن العدل اذا تأخر هو ظلم صريح ولذلك فانه لابد من اعادة النظر فى اجراءات التقاضى بما يبسطها ويبتعد بها عن التعقيد بما يسد ثغرات ينفذ التلاعب منها على حساب الحق والعدل .

١١ — اننى هنا أخصص ولا أعمم وأتحدث عن شبهات ومظان بأكثر منها حقائق ووقائع وأكرر ايمانى بقول الحق أن بعض الظن اثم وأقول وأنا أنشد العدل لأهلى أنه لا يمكن أخذ الناس بالشبهات ومع ذلك فاننى أقول أن الاقتراب من مواضع الشبهات شبهة ولذلك فان القضاة وهم فى هذا الوطن قدوة انما ينبغى أن يكون لهم بالاضافة الى حسن ظواهرهم ما يحميهم من أقاويل باطلة تتحدث عن أجاويد ووساطات تتحدث عن مصالح وصفقات وتلك أقاويل فى مجملها أو على الأقل فى غالبيتها شائعات مضللة الا أن القاضى فى نهاية الأمر سمعته ولذلك فان مفهوم الرجل العام ملك عام انما هو أكثر من حقيقة بالنسبة لقاضى تلزمه أن تكون فى حياته الخاصة بعيدا عن كل شبهة شبهة تأثير فى قراره سواء فيما يخالط ومن يخالط وان كان واجب القاضى التنحى عن نظر قضية بمحض ارادته اذا ما رأى أن علاقة له ولو عابرة بأحد أطرافها قد تؤثر فى قراره فأولى به ثم أولى أن يبتعد بنفسه عما يمكن أن يلزم به نفسه بمثل هذا القرار .

١٢ — واذا كان ذلك مطلوبا من القاضى بما يمليه عليه ضميره فانه واجب على الدولة أن تساعده فى تحقيقه قدر طاقاتها وامكانياتها فيما يتعلق بتوفير السكن الملائم فى الوسط الاجتماعى الملائم . فيما يتعلق بالترحيل من عمله واليه بما توفره له من شروط خدمة تحميه وتكفيه وقد حققت الدولة هذا القدر من توفير الراحة والاستقرار للقضاة وما زالت تواصل جهدها لتحقيق المزيد لهم .

١٣ — ان القضاء فى البداية والنهاية هيبة وهى هيبة لا تفرضها قداسة المهنة وحدها وانما المظهر وأسلوب التعامل واحترام ساحة التقاضى أيضا . لذلك فان التبسط من المتعاملين فى القضاء لا يكون تواضعا يحسب للعدل وانما يحسب عليه بالاضافة الى أن ساحة التقاضى حرمة ينبغى أن يمتنع فيها أى نشاط يمس قداستها كالتدخين داخلها ممارسة أو السماح به أو الونسة وذلك كله على سبيل المثال .

١٤ — ان الضمانات التى كفلها الدستور والقانون للقضاة انما هى ضمانات للقاضى ممارسا لوظيفته وليست ضمانات للقاضى خارج اختصاص وظيفته أو خروجا عليها . من هنا فان معايير المحاسبة ينبغى أن تتكافأ مع مكانة القاضى بما يحميها كما أن جهة المحاسبة ينبغى أن يتوفر لها ما يحميها من مثالب المجاملة والأجاويد والتضامن المهنى (وأشرح هنا زيادة بمعنى أن هناك بعض القضاة يستغلون هذه الحصانة مثلا قاضى يركب عربة ويحمل فى هذه العربة عاهرات وعندما يغلط فى الحركة ويقبضه البوليس يستعمل سلطته كقاضى ويتعامل مع البوليس بالحصانة التى يملكها فالبوليس لا يستطيع أن يقبضه فى حين أن هذا القاضى فى هذا الوقت بالذات لا حصانة له لأنه لا يعمل كقاضى . بل يعمل مستهترا .

١٥ — ان القضاة فى نهاية الأمر بشر ولذلك فان مراجعة أعمالهم لا يعنى بحال من الأحوال التدخل فى أحكامهم كما أن التفتيش على محاكمهم لا يمكن أن يكون ولو بالشبهة محاولة للتأثير فيهم . هو تفتيش لمراجعة السجلات وللاطمئنان على سلامة الاجراءات . ثم هو تفتيش يستهدف التيسير عليهم وازالة المعوقات التى تعترض أعمالهم وتأكيد أمن مكاتباتهم ووثائقهم .

١٦ — أن التدرج فى العمل القضائى انما يعنى تدرجا فى المسئولية بالنسبة لمصائر الناس وحرياتهم وأموالهم وفى بعض الأحيان أرواحهم ..

ولذلك فان التدرج ينبغى أن يقوم على تقارير وافية مدعومة بانجاز تحقيق وليس لمجرد انطباع عادى .

١٧ — ان استقلال القضاء بمعناه المطلوب للعدل والعدل وحده انما هو استقلال قاض فيما يقرره احتكاما للقانون والضمير وهو استقلال يحميه من شبهة التأثير فى أحكامه ترهيبا أو ترغيبا وهو استقلال يكفل له الاشراف والهيمنة على الهيئة الادارية المساعدة لأعمالها .

١٨ — ان هناك فارقا يجب أن يوضح بين مسئوليات الهيئة القضائية بمهامها المتعلقة بترقيـة المهنة وتطـوير وكفالة الضـمانات القانونيـة والدستورية التى تحميها من التدخل والتأثير من خارجها وبين مسـئوليات الدولة فيما يتعلق بالمهام التنفيذية كتوفير المحاكم وصيانتها وتوفير مقوماتها المـادية والبشرية . الى جانب واجب الدولة فى اقتراح القوانين ووضع السياسات تلك المهام التى تتولاها الدولة ويتولاها عنها ديوان النـائب العام والمسئول عنها فى أداء واجبها أمام المؤسسات الدستورية .

١٩ — لقد حان الوقت لتحرر القضاء من أعباء اضافية وغير أصيلة من مهامها تستهلك وقتا وجهدا أولى به أن يوفر لمهامه الأصيلة وأعنى بذلك تسويات الأراضى وتسجيلاتها ولذلك فاننى بصدد دراسة لانشـاء جهاز للاشهار والتسجيل العقارى يختص بهذه المهمة بما يعفى القضـاء من مسئولية هامشية لا تدخل فى صميم اختصاصه كما تكفل صيانة حقوق المواطنين . وفى هذا الأثناء سأعمل على نقل أو الحاق التسجيلات من جهة أخرى تستطيع أن تساهم فى تنظيمها مرة أخرى .

٢٠ — ان المحاماة هى القضاء الواقف وهى طرف مساعد للوصول الى الحق والعدالة وهى مهنة لها قداستها من حيث هى لسان المظلوم بما لا يستطيع أن يعبر وعون العاجز عن اثبات براءته رغم براءته وهى فى كل الأحوال رافد من روافد القانون وأحد أضلاعه المثلثة الذى يمثـل القضاء جانبا منه ولهذا فان حماية المحاماة كمهنة من الدخلاء عليهـا لهو واجب مشترك من جانب الدولة ومن جانب المحامين أنفسهم وذلك بالارتقاء بالمهنة وحمايتها من الشبهات والريب والنأى بها عن مظـان ووساطة . هذا هدف مطلوب لشرف المهنة . كذلك فان المحاماة كقضاء واقف انما هى رصيد للقضاء الجالس يثريه بكفاءة عطائه ويوسـع من قاعدته . ومن هنا فانه لا تناقض بين القضاء والمحاماة ومن هنا أيضـا فان الحرص على استقلال القاضى فى حكمه لا يوازيه الا الحرص على استقلالية المحامى فى أداء واجبه بعيدا عن أى اغراء أو ارهاب .

٢١ — ان أخلاقيات أى مهنة انما هى مسئولية أبنائها ذلك أنه الأحرص على سـمعتهم وهم الأقدر على تطهير صـفوفهم وهم الأشـجع فى بتر المنحرف من سجلات مهنتهم واذا كان لكل مهنة مجلس متخصص يجيز العمل فيها فان مجلسا مشتركا بين نقابة المحامين والهيئة القضـائية والنائب العام ينبغى أن يقوم بهذه المهمة كما يجب أن يختص أيضـا باجراءات المحاسبة والتأديب للخارجين على أصول المهنة وغيرهم .

٢٢ ــ ان التطور القانونى السريع الذى شهدته وتشهده البلاد نتيجة للتطور الاقتصادى والاجتماعى الواسع لا يتيح للمواطن العادى فرصة المتابعة فضلا عن استيعاب اجراءات التقاضى ولذلك فاننى وجهت بالتوسع فى مكاتب الخدمات القانونية التى تتولاها النيابة العامة فى العاصمة والأقاليم والتى تقدم مشورتها القانونية المجانية لمن يطلبها من المواطنين على أن يجرى تحويل هذه المكاتب بالعون الذاتى ما أمكن ذلك.

٢٣ ــ ان لا مركزية الحكم والتى تجسدت فى قيام الأقاليم بمؤسساتها السياسية والتشريعية والتنفيذية لابد أن يواكبها لا مركزية بالنسبة لديوان النائب العام لما يحققه ذلك من معالجات للقضايا والخصومات فى مراحلها الأولى الى جانب مهامه الأساسية الأخرى الا أن ذلك يتطلب من الحكومات الأقليمية توفير امكانيات العمل والسكن والترحيل للعاملين فى هذا الجهاز .

٢٤ ــ ان هناك الكثير من الجهد المطلوب بمزيد من التطوير لقوانين الاجراءات المدنية والجنائية بحيث تحقق العدل ناجزا والردع عاجلا واعادة الحق لصاحب الحق غير مهدور لزمن يطول ويطول . ولقد وجهت بتشكيل لجنة متفرغة لمراجعة القوانين المشار اليها تحقيقا للأهداف المشار اليها .

٢٥ ــ أعود مرة أخرى الى المحاماة وهى القضاء واقفا وهى العدالة تستهدفها وتنشدها وتساعد على الوصول اليها . فأقول انه حان الوقت لاعادة النظر فى الروابط الخاصة بالمهنة من حيث التأهيل والتدريب من حيث المواصفات والأخلاقيات والمظهر والسلوك . من حيث آداب المهنة وقيمها والتمسك بأخلاقياتها من حيث المحاسبة على الخروج عليها وذلك كله يقتضى اعادة النظر فى لوائح تنظيم المهنة بما يقتضى اعادة النظر فى استراتيجية التعليم العالى فيما يتعلق بدراسة القانون بحيث لا يزحم الوافد الأصيل وحيث لا يزيد العرض على الطلب وحيث يتحقق التوازن المطلوب بين ما هومطلوب بكفاءته وما هو غير مطلوب بعدم الحاجة اليه . ويؤسفنى أن أقول لكم اننى قد سمعت أن هناك بعض المحامين الذين أعطوا أختامهم للكتبة الذين يجلسون تحت الشجر يوثقون بها نيابة عنهم بأى ثمن يصلون اليه ويتقاسمون هذا الثمن. هذا شىء من الفساد الذى يقوم به بعض المحامين وأعتقد ذلك حصل لأن العدل صار أكثر من المطلوب .

٢٦ ــ ان العدالة الناجزة بل أن العدالة عادلة كما ننشدها وتطلبها انما تتطلب الى جانب كفاءة القاضى ونزاهته عونا كفئا من الكوادر المساعدة وهى وان كانت فى اغلبها كوادر ادارية الا انها بصلتها الوثيقة بالقانون أصبحت رموزا للقانون ، من هؤلاء كتبة المحاكم والمعلنون بل وحتى حاجب المحكمة ، هؤلاء رغم دورهم الهامشى ظاهريا فى عملية

التقاضى الا أن تأثيرهم السلبى على مجرى العدالة قد يكون خطيرا رغم كفاءة القاضى ونزاهته فهم قادرون على التــلاعب فى الاجراءات وهم قادرون على العبث بالمستندات وهم القادرون بتجاهل اعلان المعلن والعبث بمصالح المتقاضين . واذا كنا ننشد الكفاءة والنزاهة ، والقدوة من هؤلاء فعلينا ان نوفر لهم ما يكفيهم ويغنيهم عما يمكن ان يفسد ضمائرهم وذلك تدقيقا فى اختيار المناسبين لهذا العمل خلقا وقدرة ولابد من تدريبهم وتأهيلهم ولابد من توفير الحياة الكريمة المناسبة لهم وسنعمل ان شاء الله على ذلك .

٢٧ ـــ واذا كانت العدالة ناجزة تتطلب ماأشرت اليه بالنسبة لأركانها الفاعلة فان العدالة نفسها تتطلب جدية المتقاضين فلا بد من التأكد من البلاغ قبل فتحه ولابد من محاسبة مقدم البلاغ اذا ثبت عدم جديته ولابد من ملاحقة فاتح البلاغ اذا أهمل متابعته ولابد من القصاص ممن يثبت كذب ادعائه اذا ثبت أن غرضه الحاق الاذى بغيره أو كان محاولة اغتصاب ما لا حق له فيه .

٢٨ ـــ ان هناك من ضحايا التقاضى من هم ليسوا أطرافا فى التقاضى وهؤلاء هم الشهود . وهم ضحايا اذا تكرر استدعاؤهم دون السماع لشهادتهم . هم ضحايا اذا ما تأثرت مصالحهم نتيجة لشهادتهم . وهم ضحايا وان كانوا جناة اذا تعمدوا زيف الشهادة دون أن ينالوا العقاب الرادع الذى اقره القانون .

٢٩ ـــ ان العدل ناجزا هو هدف من أهداف هذه الولاية الى جانب أنه التزام سأبذل أقصى الجهد للوفاء به كما جاء فى البرنامج السياسى الشامل الذى أقره المؤتمر القومى الرابع للاتحاد الاشتراكى السودانى . والأهم من ذلك ان العدل ناجز هو الاسلام ما أمر والكتاب مانص والمولى سبحانه وتعالى كما أمر عباده ان يحكموا بالعدل ويستهدفوا العدل ويسعوا اليـــه .

الأخوة المواطنون الثوار الأحرار :

تلك غاية أسأل الله فيها عونه وذلك هدف أسعى الى تحقيقه بتوفيق من الله وعونكم ذلك ان العدل موصولا للناس هو الظلم مرفوعا عن الناس وما أولى الناس كل الناس ان يسعوا لعدل فى الأرض حتى ينالوا عدل السماء . الله أسأله التوفيق والسداد وعليه توكلت والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

● ● ●

ماجاء فى تقرير الرئيس نميرى
حول التشريع الإسلامى

أمام الاجتماع الرابع فى الجلسة الرابعة للقيادة المركزية للاتحاد الاشتراكى

١٦ اكتوبر ١٩٨٣

خطوات التنفيذ للنهج الإسلامى

١ ـــ استكمالا للثورة القضائية لاستراتيجية العدالة الناجزة التى أعلنتها خلال خطابى للأمة فى ١٤/٦/١٩٨٣ فقد قطعت شوطا آخر على طريق اكمال ما بدأته فكان ان أعلنت للأمة الأمر المؤقت بقانون الهيئـــة القضائية لسنة ١٩٨٣ والذى الغى بموجبه قانون الهيئة القضائية لسنة ١٩٨٢ .

وقانون عدد القضاة ومرتبات الهيئة لسنة ١٩٧٦ وقانون المحاكم الشعبية المحلية لسنة ١٩٧٧ وبمقتضى القانون الجديد الغيـــت الرقابة القضائية ومناصب قاضى القضاة ونواب رئيس القضاة .

لقد جاءت أهم سمات القانون الجديد كما يلى :

ترفيع مجالس القضاة فى اطار ترقية الهيئة القضائية وذلك بجعلها أقرب الى المحاكم الجزئية ذات التأهيل القانونى حيث اشترط فى رئيسها أن يكون قانونيا بخبرة لا تقل عن ثلاث سنوات ويعتبر قاضيا من كافة النواحى المـــالية والتعيين والفصل غير أنه لا يمارس اختصاصا منفصلا .

١ ـــ ان مجلس القضاء بتكوينه الجديد يمثل جزءا هاما وأصيلا فى الهيكل القضائى لأنه يباشر اختصاص قاضى الدرجة الأولى .

٢ ـــ أصدرت قرارا جمهوريا رقم (٥٤٦) لسنة ١٩٨٣ بتكوين لجنة لحصر الكوادر القانونية المؤهلة لملء وظائف قضائية على ضـــوء أحكام القانون الجديد .

٣ ـــ لقد كان لزاما أن يعاد النظر فى قانونى الاجراءات الجنائية والمدنية فكان أن أصدرت أمرا مؤقتا بقانون الاجراءات الجنائية لســـنة ١٩٨٣ الغى بموجبه مرحلة التحقيق القضائى والمحكمة الكبرى ، كمـــا منح المحكمة الجنائية صلاحيات مدنية وأعطى الكفالة وضعا أفضل وعدل العقوبات بصورة جذرية .

٤ — أصدرت أمرا مؤقتا بقانون الاجراءات المدنية لسنة ١٩٨٣ ليحقق تماشي مواده مع مبادىء الشريعة الاسلامية ويبسط المواد المتعلقة برفع الدعاوى والتصريح بها وتركها والتخلى عنها ووضع ضوابط حازمة ضد أساليب تعطيل القضايا .

٥ — وعلى درب العدالة واستكمالا للثورة القضائية الشــاملة وجهت بيانا أعلنت فيه عن صدور أوامر مؤقتة بقانون الحــركة وقانون المحاماة الجديدين كصرحين جديدين فى بناء شامخ أساسه العدل وحراسة طلاب العدالة .

وقد جاءت أهم سمات قانون الحركة فى :

(أ) جعل محكمة الحركة محكمة جزئية تحكم فى بلاغات الحــركة حكما متكاملا مدنيا وجنائيا .

(ب) جعل محكمة الحركة تعمل على مدار الساعة .

(ج) منح وكلاء النيابات سلطات ضبط المخالفات الى جانب رجال الشرطة .

(د) التعديل الفورى فى عقوبات الحركة لتتمشى مع عظم الجريمة طــردا .

وجاءت سمات قانون المحاماة محققة لمــا يلى :

(أ) العناية بالمحامين تحت التمرين .

(ب) دمج جدول المحامين أمام المحاكم المدنية والشرعية اســوة بالقضــاة .

(ج) العنــاية بالسلوك المهنى .

(د) تكوين مجلس دائم لمراجعة التوثيقات للتأكد من توافقهــا مع الأصول الشرعية ، ورفع السنين التى بموجبها يمنح المحامى ســلطة التوثيق الى ٧ سنوات .

٦ — وجهت بيانا للأمة أعلنت فيه عددا آخر من القوانين الجديدة على الوجه التالى :

(ا) قانون العقوبات لسنة ١٩٨٣ وقد جاءت أهم سماته فيما يلى :

١ — تضمين عقوبات حدية .

٢ ــ احتوائه على مواد وقواعد قانونية تضمن سلامة التنفيذ .

٣ ــ منع توقيع عقوبات اسمية .

٤ ــ جعل العقوبات ذات طابع فورى وشخصى .

٥ ــ تنفيذ العقوبة يتم فى مكان عام مفتوح للجمهور .

٦ ــ ابدع القانون مواد احتياطية يمكن اللجــوء اليها اذا تعذر تكييف الفعل الاجرامى بناء على أى مادة من مواد هذا القانون .

(ب) قانون النائب العام لسنة ١٩٨٣ وقد جاءت أهم سـماته فى الآتى :

ترفيع الأداء بديوان النائب العام اذ تم فيه اشتراط مدد للخــدمة تقارب مدد خدمة القضاة ــ كما تم وضع شروط أخلاقية وســيكون من شأنها أن تسمو بالخدمة فى ديوان النائب العام .

(جـ) قانون أصول الأحكام القضائية لسنة ١٩٨٣ وذلك لتفســير النصوص التشريعية وملاقاة الحالات التى يغيب فيها النص الذى يحكم الواقعــة .

٧ ــ وبعد أن جعلت المناخ مهيئا لممارسة قضائية عادلة أصبح لزاما علينا أن نعيد النظر فى تعيين قضاة الهيئة القضائية وقضاة المحكمــة العليا رؤساء وقضاة الأجهزة القضائية بالأقاليم والعاصمة القومية حيث أصدرت القرارين ٦١٤ و ٦١٥ لتحقيق ذلك الغرض .

٨ ــ أصدرت قرارا بالعفو عن كل نزلاء السجون الذين تمت محاكمتهم وفقا لأحكام القوانين القديمة .

٩ ــ كما أصدرت قرارا آخر بتحويل الاصــلاحيات الى مدارس نموذجية تحت اشراف مصلحة الرعاية الاجتماعية .

١٠ ــ وجهت وزير الشئون الداخلية بالعمل على اعداد مشروع لاستقطاب نزلاء السجون فى مشروعات جماعية .

١١ ــ وجهت أيضا بالفراغ من البت فى القضايا المتعلقة والاسراع فى انهاء مجالس القضاء بمقتضى القانون الجديد .

• • •

خطاب الرئيس القائد

جعفر محمد نميري

فى الذكرى الثانية والعشرين
لعيد الاستقلال المجيد

٢٧ ربيع أول ١٤٠٤هـ

٣١ ديسمبر ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى فى كتابه الكريم :

« واذ قال ابراهيم رب اجعـــل هذا بلدا آمنا وارزق أهـــله من الثمـــرات » .

صدق الله العظيم

الاخوة المواطنون الثوار الأحرار ..

التحية لكم والمجد لثورتكم . ثورة مايو الخالدة والمنتصرة أبدا باذن الله ..

التحية لكم فى يوم يشمخ فيه المجد انتصارا لارادة أمة واجـــلالا لاصرار شعب . توالت أجياله حاملة ذات الراية متجهة لنفس الهـــدف حتى فرضت الاستقلال وحررت الارادة ..

هو يوم للمجد لا يحتفل فيه شعب السودان وحده بذكر مجـــد تحقق . وانما تحتفل به أفريقيا والعالم الثالث كله . ذلك ان نضال شعب السودان كان ملهما للنضال الأفريقى والعربى والعالم كله . وكان استقلال السودان بداية النهاية لانحسار الوجود الاستعمارى من أفريقيا والعـــالم العـــربى .

كان السودان الأسبق بالجهاد من أجل الاســـتقلال وهو الأسبق بحصاد ثماره . كان السودان الأقدم فى ساحات التضحيات بدماء وأرواح شهدائه ، فما منح الاستقلال وانما انتزع الاستقلال . وما وهب حريته وانما رعاها ورواها بدماء الابطال من شهدائه .

التحية والاجلال أيها الأخوة فى يوم المجد للسودان وطنا ، وللسودان شعبا وللسودان ارادة .

التحية والاجلال أيها الاخوة فى يوم الاستقلال لرواد الاستقلال وحملة مشـــاعله على درب النضال الطويل .

التحية لمحمد احمد المهدى وثورته الاستقلالية القومية العظيمة ، التحية لانتفاضة السحينى فى دارفور ولانتفاضة الاخوة فى جبال النوبة

ولانتفاضة النوير ، ولانتفاضة ودحبوبة فى الجزيرة وعلى عبد اللطيف والماظ فى الخرطوم .

أيهـــا الاخـــوة :

ان النهج الاسلامى فى السودان ، ليس مجرد تعبير عن حرية ارادة، وانما هو تأكيد لحرية ارادة ، ارادة استلهمت منابعها وجذورها وتراثها وأصالتها ، ارادة استوحت فطرتها وقيمها ومبادئهـــا ، ارادة أدركت أن القيد قد يكون من خارجها وقد يكون من داخلها ، فتحررت بالاستقلال من قيود الأجنبى ، وتحررت بالارادة من قوانينه ونظمه .

ان النهج الاسلامى فى السودان سوف يظل فريدا فى طرحه ، فريدا فى مساره، فريدا فى توجهه. فما كان عطاء فئة مهما زايدت بالقول وبالغت فى الادعاء وحاولت بالاحتواء أن تدعيه لنفسها وما كان النهج الاسلامى فى السودان تقليدا لصيحة واقتداء بحركة أدعت أنها صحوة الاسلام ، فاذا بها الفتنة والاقتتال وقتل النفس التى حرم الله قتلها .

وما كان النهج الاسلامى فى السودان مدخلا لفتنة ولن يكون مدخلا لفتنة فما كان الاسلام الا دين التعايش بين مختلف العقائد ودين المودة بين الذين آمنوا والذين هادوا والذين قالوا انا نصارى .

وما كان النهج الاسلامى فى السودان ولن يكون النهج الاسلامى فى السودان الا وسيلة توحيد وتآلف ومحبة بين كل أبنائه ، من يدينون به ومن يعتنقون غيره من ديانات السماء وكريم المعتقدات فالكل واحد فى الوطن الواحد ، تتساوى فيه حقوق الجميع وواجباتهم .

وما كان النهج الاسلامى فى السودان الا ســـماحة ورحمة ومحبـــة وتسامحا وعفوا ومخرجا للناس من أبواب العفو والمغفرة والقول بالمعروف والموعظة الحسنة .

وما كان النهج الاسلامى فى السودان الا بالاسلام نفسه ، سماحة ولا تشدد توسط ولا تسلط انكار للشبهات وادانة للظن فبعض الظـــن فى الاســـلام اثم .

النهج الاسلامى فى السودان هو التآخى بين الناس والتوحـــد فى الوطن فلا اكراه فى الدين ولا اكراه بالدين ولا تفرقه فى الدين ، ولا تفرق بالدين أبـــدا .

النهج الاسلامى فى السودان لانه ارادة شعب اختاره فهو سماحة شعب ارتضاه ويكفى أن أشير وأعلن ان أكثر من ستين جريمـــة قتل أدين

مرتكبوها بجرمهم قد روجع أصحاب الحق فيهم فعفوا وصفحوا ووهبوا الحياة لمن اعتدوا على حياة أعزائهم تكريما للحياة وامتثالا للنهج الاسلامى الذى يدعو للعفو والصفح ويفتح الباب بلا حدود للمغفرة .

النهج الاسلامى فى السودان يستوحى الاسلام كتابه والاسلام سنة رسوله ، والاسلام سيرة الصالحين من السلف الكريم ، والذين جعلوا من الاجتهاد جهادا حتى لا تتجمد الحيـــاة ويرتهن الحـــاضر للماضى رغم أمجاده .

النهج الاسلامى فى السودان جهاداواجتهادا وسوف يبقى ، نحتكم فى ظله للشرع ورحمته للدين وجوهره للاســـلام ودوره رحمة وهـــدى للعـــالمين .

النهج الاسلامى فى الســـودان سيكون للحياة لا ضدهـــا للتقـــدم لا للتراجع للتحديث والتطوير تلك سنة الله فى خلقه ، وتلك ارادة الله فى كونه أن يدفعه تطورا خدمة للناس فى آخرتهم ودنياهم .

النهج الاسلامى فى السودان هو فطرة الناس بقدر ما هو اختيارهم لا وصاية عليهم الا ضمائرهم ولا تسلط عليهم بادعاء فضل ولا تجسس ولا تحسس ولا تزمت ولا أخذا لناس بالشبهات .

النهج الاسلامى فى السودان لن يكون حدودا فحسب بل سيكون كما أراد رسول الله درءا للحدود بالشبهات وكما دعا كتاب الله لمن عفـــا وأصلح .

النهج الاسلامى فى السودان سيكون بالاسلام بسماحته لا يتفرق الناس فيه ، وانما يتجمع الناس حوله ، من آمن به ، ومن آمن بغيره من رسالات السماء وكريم المعتقدات لن يكون السودان كغيره بل ولن نسمح أن يكون السودان كغيره حيث الدين عندهم عنف وكراهية واكراه وتسلط واحتوان وخروج على ما أمر الله أن يكون . مابين الناس هو المودة والرحمة وهو الشفقة .

النهج الاسلامى فى السودان عطاء شعب وثورة تدرج وتمهل بشر وسط هدى واهتداء دعا بالمعروف والموعظة الحسنة ، آخذ من الزمان مايقرب عقـــدا من الزمان بداية بقدوة تمثلت فى قيادته وقوانين عدل مســـاراتها ومؤسسات شاد بنيانها ودستور أقر نصوصه وتنظيم سياسى يقـــود مسيرته ووحدة وطنية مهدت له الطريق والسبيل .

النهج الاسلامى فى السودان عطاء من أعطى ولم يعط غير الشعب وحده ولم يلهم غير الشعب دون سواه ولم تقرر سوى مؤسساته ولـــم

يسعف ويدعم غير دستوره ولم يرفع اللواء الا جهد السنين فى احياء راية الدين فى كل المجالات .

ان النهج الاسلامى فى السودان ليس خصما للوطنية الســودانية ولن يكون وليس خصما للوحدة الوطنية ولن يكون وليس تسلطا من الأغلبية على الأقلية ، ولن يكون ، وليس تعارضا مع الدستور والتنظيم السياسى والمؤسسات القومية والاقليمية ولن يكون ، ذلك أنه فى ظلها ارتفعت رايته وفى كنفها علت كلمته وفى رحابها تجسد وتحقق وأصبح نورا ونموذجا يهدى بــه العــالمين .

النهج الاسلامى فى السودان لن يكون على حساب ثورة مايو وانما بها ، فما تحقق الا فى ظلها ، وما قام الا فى عهدها وسوف يزدهر وينتشر وينتصر باذن الله فى ظل تقدمها .

النهج الاسلامى فى السودان لن يكون على حساب الدستور روحه ونصوصه فما تعارض الدستور معه ، وانما أعان الدستور تقدمه ، منذ كان فكرة تبشر بها الثورة ، الى فكر جسدته الثورة ، الى تطبيق حققته ثورة مايو الخالدة والمنتصرة باذن الله .

ان النهج الاسلامى فى السودان أيها الاخوة لن يكون على حساب التنظيم السياسى الواحد، الاتحاد الاشتراكى السودانى العظيم ، بمواثيقه ورموزه بوحداته وفروعــه بمؤتمراته ومنظماته وتنظيماته ، والتى كانت للنهج الاسلامى مبشرة به ، للنهج الاسلامى مجسدة له .

ان النهج الاسلامى فى السودان ، لن يكون على حساب النظــام الرئاسى شكله أو اسمه أو سلطاته فلقد كان النهج الاســلامى تبشيرا بالفكر من المؤسسة الرئاسية ، والتزاما بالعهد فى برامج الولاية الثانية والثالثة ، وتحقيقا بالفعل تقنينا شاركت فيه ما اســتطاعت حيث كان عونها الشعب فيما يريد .

ان النهج الاسلامى فى السودان ، لن يكون على حساب الحــكم الاقليمى ، فلقد كان الحكم الاقليمى والحكم الشعبى المحــلى ســباقا فى التمهيد والتطبيق للنهج الاسلامى ، تلاحقت قرارات للقاعدة فلحقت بها القيــادة ، بل قررت القواعــد فاســتجاب المركز وما كان عليه الا أن يســتجيب .

ان النهج الاسلامى فى السودان لن يكون على حســاب الوحــدة الوطنية وانما هو للوحدة الوطنية . لن نسمح بالتفرقة باسم الدين ولن نسمح بالتسلط باسم الدين ولن نسمح بعودة التشتت القديم والتجزئة القديمة مزايدة باسم الدين فالوطن للجميع .

ان النهج الاسلامى فى السودان لن يسمح بازدواج فى العمل السياسى مهما كانت مبرراته وشعاراته وأسانيده ، فلا ازدواج ولا توازى فى المنظمات الفئوية والتنظيمات الجماهيرية ، ولا تكتل داخلها ولا خارجها ولا خروج على نصوص الدستور التىتحظر الردة للحزبية وواجباتها وأدواتها مهما كان اسمها أو زيها ومهما تسترت باسم الدين أو الديمقراطية أو العمل الخيرى .

لن يكون النهج الاسلامى فى السودان على حساب الانتماء الوطنى والولاء للسودان أولا وأخيرا فما كانت غاية الاسلام بل وما كانت غاية الدين كل دين ، الا خدمة الناس وأوطانهم رعاية الناس فى أوطانهم حماية الناس وأوطانهم والتى هى قداسة أعراضهم .

لن يكون النهج الاسلامىفى السودانمدخلا للبعض بالتمايز باسمالدين ولا مدخلا لبعض للوصاية باسم الدين ، ولا مدخلا للاحتواء من جانب البعض باسم الدين ، فالعمل العام فى اطار النهج الاسلامى فى السودان لايمكن أن يكون خروجا على القانون والدستور والنظام العام فى السودان حيث للعمل السياسى تنظيمه الشرعى وقنواته الشرعية ، حيث الحوار فى داخلها ، وحيث الاقتناع والاقناع والاحتكام لرأى الأغلبية هو جوهر ديمقراطيتنا الذى ارتضيناه ولن نقبل له بديلا .

ان النهج الاسلامى فى السودان انما هو الأمر بالمعروف بالقدوة والنهى عن المنكر بالقدوة وحيث القانون والقانون وحده بأجهزتهومؤسساته هو الحكم والحكم والفيصل ، فلا سيادة فوق سيادة القانون ولا سلطان فوق سلطانه ولا ارتباك فى الاختصاص والسلطة .

ان ثورة مايو العملاقة والتى تمردت على الوصاية والاحتواء والتى رفضت الانقسام والتجزئة والتشتت والتى رفضت الولاية على الناس بالحق الموروث انما ستظل كما كانت مدركة أن الاسلام لا يعترف بمنيدعى على الناس وصاية بدينة أو يدعى على الناس ولاية لحسبه وعرقه وتحزبه وتعصبه .

ان النهج الاسلامى فى السودان لا يعنى ولن يعنى على الاطلاق أن تتمرد ثورة الخامس والعشرين من مايو على مبادئها من حيث الاعتراف بالخصائص المميزة لمختلف أقاليمه بالدور الفعال للعرف السائد والظروف الخاصة لكلمنها ، بمعتقدات الأغلبية من سكانها ، لقد كانت تلك المبادىء هى الأصل فى التجزئة الرائدة للحكم الاقليمى فى السودان .

ان الاجتهاد فى الدين مشروع وهو اجتهاد يراعى الظروف ولا يجافيها ، يأخذ الناس بقدرتهم ولا يأخذ الناس بسطوته والاسلام دين

التوسط والتدرج ، هو ذاته دين النهج والمسار بما لا يخالف النص وانما يتبعـــه .

ان ثورة الخامس والعشرين من مايو ، كانت أول من نبه العـــالم كله ، الى مخاطر الانشطارات الطائفية والدينية فى العالم العربى والقارة الافريقية . كنا أول من نبه وحذر عام ١٩٧٣ الى المخطط الموضوع لتقسيم المنطقة الى كيانات تقوم على فرقة الدين والعنصر والعرق والثقافة ، حتى تتوازى تلك الكيانات المنبوذة والمشبوهة مع اسرائيل بطابعها وطبيعتها ، وبحيث يستحيل عداء الكل لها الى تحالف البعض ، ولقد أثبتت الأيام لسوء الحظ مقولتنا فاذا التقاتل العربى حول اسرائيل وليس ضدها واذا التشرذم العربى بعضه يحالف اسرائيل وبعضه ينشد حمايتها كما نرى فى لبنـــان .

اننا وقد حذرنا ونبهنا ، لن نسمح لأنفسنا ولن نسمح لأحد مهما كان أن يدفعنا الى ذات الطريق ، طريق التنازع باسم الدين ، والتصارع باسم الدين ، والانقسام باسم الدين ، سيظل السودان فى ظل النهج الاسلامى وبفضله النموذج العظيم للتعايش العظيم بين مختلف الثقافات والأديان والعقائد سيظل السودان باذن الله أبدا نموذجا لصحوة اسلامية حقيقية تعطى للاسلام وتنهض بالاسلام وتتجدد بالاسلام ، لن نكون بذرة فتنة دينية ولن تكون تصديرا لفتن دينية ، ولن تكون الا مانحن عليهنموذجا يتطلع اليه الجميع ، ويهتدى به الجميع نموذجا للوحدة الوطنية الشاملة الكاملة باذن الله .

الاخوة المواطنون الثوار الأحرار ..

اننا وفى ظل ثورة مايو نمهد بالفكر للعمل ، هكذا سبق تطبيق النهج الاسلامى تبشير بالنهج الاسلامى طرحناه فكرا قبل أن نجسده عملا ، فكان كتاب النهج الاسلامى لماذا ؟ .. واليوم فاننى أستأذنكم فى قراءة جانب من أحد فصول الكتاب الجديد النهج الاسلامى كيف ؟ .. والذى سوف يصدر خلال أسابيع باذن الله .

أستأذنكم فى ذلك ، لست قاصدا أن أصـــادر أفكارا تراود البعض واجتهادات بل وشائعات يروجها البعض ، وانما لأؤكد أن النهج الاسلامى فى السودان يقوم على أساس الروية لا طفرة ، على دراسة تســـتوعب ظروفنا وطموحنا فى وقت واحد .

أقول فى جزء من الكتاب :

(دستورنا كان مدخلنا للنهج الاسلامى لم يسبقنا اليه حتى الأوائل فليس قبل السودان من سابقة تكون فيه للسلطة مدخلا للدين ، وليس

الدين مدخلا وقاعدة للسلطة ، هى المرة الأولى التى لا يتعارض فيها ما هو وضعى مع ما هو منزل ، بل يكون التطويع للوضعى ليمكن للمنزل ، هى المرة الأولى التى لا يكون فيها الدين مشروعية السلطة ، بل أن تكون السلطة موظفة للدين ترفع لواءه ، وتبنى أحكامه وترفع راياته ، وتحتكم الى كتاب الله وسنة رسوله .

هى المرة الأولى التى لا يغترب فيها الدين عن العصر ، بل يلائم فيها الاجتهاد العصر بالدين ، فلا عودة للقوالب القديمة والأشكال القديمة والمسميات القديمة ، فلا يكون الارتجاع وكأنه مدخل للهدى ولا يكون الالتفات للماضى وكأنه رجعة للايمان .

الدين جديد متجدد ، لا يحده مكان ولا يحاصره زمان وانما هو لكل زمان ومكان بوسائله وأدواته .

وان كان للسودان فى الأمر شىء فهو أمر التجديد بالدين لا التغريب باسم الدين .

كان الدستور بنصوصه عونا على التشريع الاسلامى وسندا،تقول المادة ١٦ من الدستور :

(فى جمهورية السودان الديمقراطية الدين الاسلامى ويهتدى المجتمع بهدى الاسلام دين الأغلبية وتسعى الدولة للتعبير عن قيمه) .

كان النظام الرئاسى الجمهورى مدخلا للتشريع الاسلامى والذىتدرج بتدرج ولاته .. فمن ولاية أرست الدستور قاعدة الى ولاية طرحت النهج الاسلامى فكرا الى ولاية خرجت بالفكر الى التجسيد ومن التمهيد الى التقنين .

كل ذلك والناس صادقة على ما وعدت وفية لما عاهدت ، وملتزمة بما ارتضت واختارت .

كان التنظيم السياسى ، اطار الشمول لمجمل الأمة بالغالبية المسلمة منها ، تكافلا وتعاونا وتكاملا وتجمعا لقوى العمل والانتاج ، تعاونا على البر والتقوى ، وللبر والتقوى .

كان الجهاز التنفيذى سباقا بالفعل والقدوة والالتزام بالاسلام نهجه وقيمه ومبادئه وأخلاقياته ، كان الحكم الاقليمى تعبيرا عن الفطرة حيث القواعد الأعظم والتى سبقت واستجابت ، بل بادرت وأجابت بالعمل لا بالقول على السؤال العظيم النهج الاسلامى كيف ؟

اجابتها : تحريم للخمر بمبادرات من قواعدها .

أجابتها : احياء للتراث الدينى فى قراها ومدنها وعواصمها .

اجابتها : بأنها نفسها كانت أمر الناس للناس حيث الشورى مشاركة بالرأى والسلطة .

اجابتها : انها قادت الصحوة الاسلامية من القاعدة الى القمة فكانت الأساس الأقوى والقاعدة الأمثل للنهج الاسلامى العظيم .

هل يتطلب الأمر بعد ذلك اضافة .. ؟

تلك مسئولية أجيال تحمل الراية عن جيل كان له السبق فى التاريخ الاسلامى كله ، بل فى التاريخ البشرى جميعا حينما جعل السلطة مدخلا للدين ولم يجعل من الدين مدخلا للسلطة .

حين أسقط حاجز الوهم بين حكومة الناس وحكومة الله فالأمر لله كله .. حين جعل أمر الناس لهم ، لهم هداهم اذا شاؤوا ولهم غيره اذا أرادوا ، والحكم عندئذ لله .. حين استظلوا بالاسلام منهجا وقيما ، ولم يكتفوا من الاسلام واجهات ومسميات ورجعة لما لا يمكن الرجوع اليه ذلك من زمان ولكل مكان خصائص .

حين أثبتوا أنهم فى الأرض ليس دعاة وانما نموذج ، لا يدعون لأنفسهم الا أنفسهم ليكون مسارهم هدى وهداية ، وهى ذاتها مساراتهم فى حياتهم تنظيما وتحديثا .

ما صاغوا وحدتهم الوطنية بالصراع وانما بالحوار فكانوا نموذجا ومثلا .

ما أخذوا الدين وسيلة لغاية هى الحكم والسلطة لتكون غايتها الدين وقيمه ما استعاضوا عن الانتماء للدين بشموله عن الوطن بقداسته وانما رأوا فى الجهاد حفاظا على الأرض والعرض من كل عدوان . انتصار لقيم الدين وتعاليمه . وما الجهاد فى سبيل الله والشهادة الا حفظ الحق وصون الأرض .

ما تفرقوا فى الدين وانما تجمعوا فى رحابه ما اكتمل ايمانهم بدينهم الا بايمانهم بما سبق من رسالات النبيين والرسل أجمعين ، لا يتفرقون فيها فالدين واحد ولا اكراه فى الدين .

ما اشترطوا فى ولى الأمر فيهم الا أن يكون منهم ، ليس أكثرهم مالا ،

ولا أعزهم حسبا ولا أعرقهم نسبا ، ولا أفقهم دينا ، وانما هم على نهج عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. والذى استخلف فى الناس ستة يختارون منهم وليا للأمر ، ونصب فى الناس أماما واحدا هو صهيب الفارسى المسلم المؤمن العارف بربه .

ما ارتضوا فى ولى الأمر فيهم أن يتميز عنهم بل أن يكون كغالبيتهم لا يتمايز فيتعالى ولا يتدانى فلا يقوى بين الناس الا على القعود .

ما اختاروا له لقبا الا ذلك الذى تواضع عليه زمانهم ، لقبا يضعه حيث موضعه من الناس فى وطنه ، للمسلمين وغير المسلمين ، للمؤمنين وغير المؤمنين ، له من الجميع ظواهرهم أما بواطنهم فعند علام الغيوب .

هو للجميع بموقعه ، هو عند ربه ببطانه يحكم عليه بعمله لا بلقبه ، ثم ليحكم عليه الناس بالعمل ولا يهابه الناس باللقب يتخذ منه حصانة تقيه من عتاب عاتب ، وحساب محاسب ، وقوله حق يجاهره بها من لا يخاف الا الله .

هو فيهم بصفاته لا بمواصفاته ، وهو لهم بأعماله لا بمهابته ، نم يرث أمرا ولن يورث أمرهم فالأمر لهم من قبل ومن بعد .

هو فيهم ما ائتمر بهم ، وهو حاديهم ما استقامت خطاه فلا حاد من الهدى ولا ضل عن الرشاد .

هو معهم يرفع أعلامهم ، ويردد نشيدهم ويحفظ للتاريخ أسما لوطن ، وشكلا لحكم سبق وما لحق من سبقوه فحقق للاسلام مجدا بغير سوابق أن تكون السلطة للدين وليس الدين للسلطة .

أن يعيش عمره والى أن يصل أجله ، وغايته أن يؤكد وحدة أمة توحدت ، وعقيدة استقامت ودينا تجدد ونموذجا تحقق ، أن يكون السلطان للايمان وليس السلطان بالايمان ، ادعاء أو دعوة ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وانه وحده لشهيد .

أيها الاخوة المواطنون الثوار الأحرار ..

ان هناك خلطا مقصودا بين أحداث محدودة يشهدها جزء صغير من جنوب الوطن ، وبين النهج الاسلامى واعلانه وتطبيقه فى السودان ، وهو خلط نعرف أبعاده ونعرف أهدافه ونقدر فى نفس الوقت مبررات بعض من يقعون بحسن النية ضحايا له .

ان مايشهده جزء من أجزاء جنوب السودان لا يرجع الى النهج الاسلامى واعلانه وتطبيقه ، ذلك أنه سابق عليه بمقدماته متقدم عنه

بارهاصاته ، وانما يجرى استغلاله فى حدود التآمر الواسع الذى يتعرض له السودان وغير السودان من دول القارة الأفريقية والمنطقة العربية .

لقد فشل الضغط على السودان من حدوده الغربية مع تشاد وليبيا ، فشل الغزو الليبى للسودان سنة ١٩٧٦ ، وفشل الغزو الليبى لتشاد أكثر من مرة فلماذا لا يجربون جنوب السودان .. ؟

ان قوات شعبنا المسلحة قادرة على القيام بواجبها ، ان أبناء هذا الوطن الحبيب الواحد الموحد فى الجنوب قبل الشمال يتصدون للدفاع عن وحدتهم وعن حريتهم ، ان حركة التقدم والتعمير والبناء والتنمية فى الجنوب والشمال لن يوقفها حتى الدم بل سوف نرويها رغم الدم لتزدهر وتعطى وتفيض خيرا وبركة بأذن الله .

الاخوة المواطنون الثوار الأحرار ..

كانت رحلة العمل الى ايطاليا وفرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا ومصر وكينيا ، بحجم السودان دوره ومكانته ، ولقد علمتم من نتائجها ما أعلن وأذيع وسوف تلمسون من نتائجها ما هو خير فى القريب العاجل باذن الله .

اننا أيها الأخوة على العهد الصادق دائما والوعد الوفى أبدا ،للنهج الاسلامى نرفع لواءه ونحميه من مزالق التشدد والتسلط والوصاية والاحتواء وليكون فى السودان وبالسودان نموذج حقيقى للصحوةالاسلامية ولسماحة الدين وحمايته .

اننى على العهد أيها الاخوة وفاء لأشقائنا مع مصر تكاملا معها ، مع مصر لتعيدها أمتها العربية وعالمها الاسلامى ، اننا مع الأشقاء العرب فى معركة المصير تحريرا للأرض وانتصارا للحق ، اننا مع الثورة الفسلطينية وقيادتها التاريخية ووحدتها ولقد كنا أول من نبه وحذر واتصل بالمناضل ياسر عرفات قبل شهور ، أخلصنا النصح ولكن ارادة الله غالبة .

اننا مع العالم نسعى لعدل السلام فبغير السلام وفى غياب العدل لن يتحقق الاستقرار أو الاستقلال أو التقدم لشعوب الأرض جميعا .

فى مستهل العام الميلادى الجديد أتوجه بالتهنئة للاخوة المسيحيين فى بلادنا وفى جميع أنحاء العالم مبتهلا الى الله عونه أن يهب عالمنا السلام وأن تسود المحبة أرضه وأن يعم الخير عباده وأن يكون التقدم والازدهار لسوداننا العظيم حيث الانتماء له وحيث الولاء له ، وحيث الفداء لوحدة السودان وتقدم السودان ورفعة السودان .

بسم الله أحصنت وبالله تحصنت وعلى الحى الذى لا يموت توكلت.
(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحـــون) .

صدق الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

● ● ●

تقديم الأمين العام للقيادة المركزية
للاتحاد الاشتراكي السوداني
للرئيس نميري في الاحتفال بذكرى الاستقلال

تقديم الأمين الأول للقيادة المركزية للاتحاد الاشتراكى السودانى

بسم الله الرحمن الرحيم

قولوا آمنا بالله وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

صدق الله العظيم

الأخوة الأعزاء والضيوف الأجلاء

السيدة الفضلى قرينة الرئيس

الرئيس القائد جعفر محمد نميرى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فى يوم عيدنا الوطنى نسترجع شريط ذكريات حافلة بآلام المخاض الطويل وبهجة البعث واشراق المولد لوطن مستقل جديد .. نسترجع ذكريات الجهاد المستميت لضم الصفوف وصون الكيان واستعادة الذات .. نسترجع ذكريات النضال للتحرر من ربقة الركود والبلى وللطفرة الى اشراق التجدد والطلاقة .

فى الذكرى الجديدة لعيد الاستقلال يترقب الشعب الصوت الداوى للرائد الذى لا يكذب أهله .. يترقب الشعب صوت اعلاء الوطن ورموز الوطن ووحدة الوطن .. والولاء للوطن .. يترقب الشعب صوت مايو الذى لا يتلجلج ولا يخمد ولا يهن ولا يهمد .. مايو التى فكت من الأعناق رهن الولاءات المتصارعة والانتماءات المتحاربة .. مايو التى استعادت للوطن حرية الارادة واستقلال وفكت عنه دائما حصار الوصاية والتطويق وصلف الاستعلاء والاكراه .

يترقب الشعب صوت مايو ، مايو التى حملت الاستقلال معانى الثورة الاجتماعية والطفرة العمرانية والازدهار الثقافى ..مايو الوحدة للسودان، ومايو الوحدة لوادى النيل .

مايو التى حمت الاستقلال بالوحدة الوطنية وجعلت من التباين والتنوع أساسا للوحدة ومصدرا للقوة للكيان الوطنى الواحد .. مايو التى نزعت عن الاستقلال شوائب الانفصال وشبهات التبعية وبنت سودان الوحدة والتكامل فى وادى النيـــل على أســـاس المســـاواة فى السياسة وقسمة المسير والمصير المشترك لشعبى وادى النيـــل .

أسمعنا يا سيادة الرئيس صوت مايو صوت قوات شعبنا المسلحة .. صوت حماة الاستقلال والوحدة صوت حماة الشرف وكرامة الوطن . اسمع الشعب صوته الابى الذى لا يسكت على ضيم ولا يركع للهـــوان والطغيـــان .

اسمعنا صوت تحالف الشعب ومؤسساته ومنظماته صوت دستوره ونهجه ، وصوت سيادته وارادته وسلطانه .

فتفضل سيدى الرئيس وتقدم ..

• • •

خطاب الرئيس القائد

جعفر محمد نميري

في

عيد الوحدة الوطنية

٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ

٣ مارس ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوة الأحرار :

أحييكم تحية ثورة مايو الظافرة وباسمكم أحيى الذكرى الخالدة ليوم من أيام السودان الخالدة : يوم الوحدة الوطنية ويوم السودان الموحد هذا اليوم أيها الاخوة من أغلى أيام مايو وأعز انتصارات مايو : أرسينا فيه الأسس المتينة للوحدة الوطنية وترجمنا فيه شعار مايو الخالد : (الوطن أولا والوطن ثانيا والوطن أخيرا) الى سياسات وخطط واجراءات عملية .

وصاغت مايو ، لأول مرة فى تاريخ السودان نموذجا جديدا للسلطة الديمقراطية الشعبية يرتكز على الحكم الذاتى تحويل السلطة ولا مركزية الحكم .

وكان ذلك أمرا جديدا على السودان وفى العالم الثالث أجمع فلقد ورث السودان حكما يقوم على مركزية صارمة تفضلت بتفويض أدنى المهام وللمسئوليات لادارات أهلية تقليدية عاجزة عن الاطلاع بمسئوليات الحكم الحديث .

وكان بنيان السلطة بأكملها واجهة للاستبداد الطائفى والنفوذ القبلى والعصبية والجاه الموروث .

وكان يوم الوحدة يوما لأفريقيا .. قدم فيه السودان نموذجا جديدا لحل المشاكل الأفريقية والتاريخية المزمنة والتى تنفجر يوما بعد آخر بالعنف والتمزق والحروب الأهلية فى أرجاء القارة وتتسبب فى أكثر بؤر التوتر والشقاق والمصادمة ليس فقط فى النطاق الداخلى للأقطار الأفريقية فحسب بل وبين دول القارة أيضا .

قدم السودان نموذجا جديدا لحل مشاكل الأقليات وقضايا التعدد العرقى والثقافى وتنوع السلالات والحضارات والقوميات فى معظم أقطار أفريقيا .

وورثت ثورة مايو الخراب والعدم والتخلف والبدائية . وورثت ثورة مايو تركة الدم والاشلاء والشقاق والحرب وتخطت الثورة تركة الانقسام والتجزئة وتعدد الولاءات والانتماءات .. واستطاعت بوفائها

وولائها للوطن قيمه ووحدته ورموزه أن تقدم الحل الأفريقى الكامل للأزمة الطاحنة التى استعصت على الحل سبعة عشر عاما .

وشرعنا بالوفاء والاخــلاص والعمل والتضــحيات شرعنا نبنى سودان الوحـــدة الجديد : الوحدة القائمة على تعدد الأصول والمنابت والتنوع الحضارى والثقافى وتباين البيئات والمواطن .

سودان الوحـــدة باتساعه القارى وغـــزارة اخلاطه الجغرافية والبشرية .. الوحدة القائمة على المشاركة فى الســـلطة والمشاركة فى المسئولية والحكم الذاتى الاقليمى ولا مركزية السلطة ، والطبيعة الشعبية لمؤسسات الحكم وتقاليده ، والتوزيع العادل للثروة والموارد وانهـــاء الاستبداد الطائفى واحتكار السلطة والثروة .. أى الوحدة القائمة على الاقتسام العادل للسلطة والثروة ..
المساواة الكاملة بين أبناء الوطن أجمعين بغير تمييز بسبب الأصـــل أو العقيدة أو الجنس أو الموطن لا مواطنين من الدرجة الأولى ولا آخرين من الدرجة الثانية ، سواسية فى الحقوق والواجبات والمسئولية الوطنية .

وبدأنا مسيرة طويلة قاسية مرة عانينا فيها من حداثة الخبرة ومن ضيق الامكانيات وتلمسنا طريقنا بالمحاولة والتجربة والخطأ ولكننا عانينا أيضا من أنانية المتزعمين ومن صراع الأهـــواء ومن رواسب التجزئة والخلاف والشقاق .

وعانينا أكثر من الأعداء المتربصين .. ما تلمسوا فتقا الا وسعوه ولا طـــرأت علينا شرارة الا أضرموها نارا وســـعيرا وما لاح خطا الا جسموه وهولوه بالبهتان والجهالة وسوء القصـــد .. وعانينا أكثر من خصوم السودان وخصوم استقلال السودان .

عانينا أكثر من أعدائنا الذين لا يرضيهم أن يروا السودان يتمرد على الوصاية والتبعية والاملاء ويتمسك بسيادته وكرامته الوطنية وذاتيته الخاصة ويسيطر على مسيرة ومصـــيره ويشق طريقه بارادة مســـتقلة وسيادة كاملة لاتتجزأ .

وتعددت محاولاتهم اليائسة للنيل من المســـيرة المظفرة واجهونا أحيانا بالحصـــار والتطويق وحينا بالهجوم والانقضاض وجربوا التآمر والتسلل والتخريب وجهروا بالانقلاب ، والتمرد والغزو .

وكان هدم الصفوف وتفتيت الوحدة هدفهم الأول والأمثل .
وبكل أسف تلاقت الحزازات والأحقاد والعداء فى الداخل مع أطماع النفوذ الأجنبى فى الخارج فى هجمة جديدة على وحدة الســـودان وعلى تماسك السودان وعلى استقلال وكرامة السودان .

هجمة تلوح فى سحنتها البغيضة ملامح من يوليو الأسود وشعبان الكريه وغزو المرتزقة العملاء فى يونيو وتمرد أكوبو وتعصب الانفصاليين البغيض .

والشعب الذى هزم هذه الأيام البغيضة السوداء قادر على دحر التآمر الجديد والتمرد الجديد والهجمة الجديدة التى زعموا أنها باسم جيش تحرير السودان المزعوم الذى أعلن هدفه واضحا بعد أن باع قادته أنفسهم للمستعمرين الجدد بأنهم ماركسيون لينينيون ضد كل دين وضد كل تقدم وتطور أعداؤهم كل قادة السودان وكل جماهير تحالف قوى الشعب العاملة فى الاتحاد الاشتراكى السودانى وكل مواطنى السودان ، وكل خائن كما يزعمون درب على الخيانة لوطنه ولم يقم بدوره وأسلوبهم أن يخربوا كل مشاريع الخدمات الصحية والتعليمية ويقتلوا النساء والأطفال ويحرقوا الزرع وكل مواد التموين ويقفلوا طرق المواصلات لينعزل المواطنون ويشعروا بالجوع والعطش فتخلق فى نفوسهم الحقد والبغضاء لدولتهم الفتية التى بهرت النفوس بنظامها وسياستها وكلمتها وديمقراطيتها وليس هذا بعجيب فهذا أسلوب قد تعلمناه فى الشيوعية والماركسية اللينينية .

أيها الاخوة :

ان الشيوعية الماركسية اللينينية قد عودتنا دائما أن تخطط لخلق المناخ الملائم الذى تستطيع أن تعمل فيه فهاهو تخطيطهم يقتلوا ، يشردوا يخربوا حتى تظهر المناطق التى يعملوا فيها بانها مناطق تحتاج الى المساعدة ومناطق ليست فيها أى خدمات تقدم لأنهم أنهو الخدمات ثم بعد ذلك يكتبوا فىمناشيرهم ويقولوا لأعوانهم وللعالم أجمع أن الثورة بدأت فى تلك المنطقة لأن الجماهير بدأت تشعر بأنها جماهير جعانة تحتاج الى الخدمات .

وهذه العملية لم تكن جديدة علينا فى السودان وقبل ذلك حاولوا أن يخلقوا فى السودان هنا طبقة من العمال تنعزل عن بقية المواطنين ليقولوا انها هذه طبقة العمال وينادوا ويشهروا بأن للعمال قضية وقضية سياسية يجب أن يحكموهم حتى يستطيعوا أن يحلوا مشاكلهم ولكننا لا نعطيهم هذه الفرصة أيها الاخوة .

ومهما كانت مشاكل السودان ومهما كانت أزماته ومهما كانت مصاعبه فلن يحل مشاكل السودان الا السودانيون الوطنيون الحقيقيون فى ظل مايو الذين يكرهون الشيوعية والذين يحاربون الشيوعية والذين يقفون ضدها ونحن ان شاء الله لفاعلون .

ولا عذر أيها الاخوة ولا تسامح مع من باعوا أنفسهم للقوى الأجنبية وجعلوامن أنفسهم أدوات للنفوذ الأجنبى والسيطرة الخارجية ضـــد وطنهم وضد شعبهم .

ولا عذر ولا تسامح مع العملاء الذين يتلقون الدعم والمساندة من القوى الأجنبية وتحركهم أصابع النفوذ والسيطرة الأجنبية ولن نسمع منهم تشدقهم الكاذب بأنهم يتحدثون باسم السودان فالسودان بـــراء منهم فلا صوت لهم غير صوت سادتهم ولا هدف لهم شاءوا أم أبوا غير الطعن فى كرامة السودان وأبناء السودان ووحدة السودان .

ويا للعجب ممن يزعمون النضال من أجل تحرير السودان ويكون المسافرون الأبرياء العزل هدف هجومهم وانقضاضهم .

ويا للعجب ممن يزعمون لأنفسهم الوطنية وتكون أعظم مشروعات الانماء الوطنى هدف نيرانهم وانقضاضهم وتخريبهم .

ويا للعجب من معارضين لحكومتهم تـــكون وسيلتهم فى المعارضة تخريب الممتلكات العامة واحراق المنشآت وهـــدم المرافق والخدمات العامة واقتناص الأبرياء والانتقام العنصرى من أبنـــاء وطنهم الأبرياء المسالمين .

لن تكون هذه أيها الاخوة وسائل الخلاف والمعارضة ولا سبيلا لابداء الرأى ولن تقبل حكومة مهابة أن يملى عليها بالعنف والرصاص والارهـــاب .

ولن تكون هناك حكومة جديرة بالاحترام اذا كانت عاجزة عن حماية الأمن والطمأنينة والاستقرار والسلام .

وعهدى لكم ألا نقمع معارضا أو مخالفا مادامت وسائله مشروعة ودوافعه وقصده بعيدة عن شبهات النفوذ الأجنبى والعمالة الأجنبية وزعزعة السلام والاستقرار .

اننا أيها الاخوة لا نواجه معارضين فى الرأى ولكننا نواجه جيوبا مسلحة للنهب والتخريب والارهاب ولقطع كل وسائل التكامل الوطنى والوحدة الوطنية والارتداد بالعنف الى العزلة والانغلاق والانفصال .

ان الوطن أيها الاخوة يواجه تهديدات التمزق وأخطار الانشطار وسنبذل كل ما فى وسعنا لننقذ وحدة الوطن واستقراره وأمنه وسلامته .

وستظل قوات شعبنا المسلحة كما كانت دائما درعنا فى مواجهة

أخطار التمزق والانشطار وسياج الأمن والطمأنينة والسلام للوطن كله ولأبناء الوطن أجمعين فى الشمال والجنوب والشرق والغرب .. ستظل أيها الاخوة قوات شعبنا المسلحة كما كانت حامية الأرض والشرف ودرع السيادة الوطنية والشرعية الدستورية .

سنظل أيها الاخوة أمناء أوفياء لمبادىء الوحـــدة الوطنية التى أرستها ثورة الخامس والعشرين من مايو وناضلت فى سبيلها ولمـا يمضى عليها بضعة أسابيع سنظل أمناء على هذه المبادىء والتى عبرت الثورة عن جوهرها وروحها فى بيان التاسع من يونيو وفى اتفاقية أديس أبابا والتى تضمنها قانون الحكم الذاتى الاقليمى للمديريات الجنوبية لسنة ١٩٧٢ هذه المبادىء التى تقوم فى جوهرها وأصلها على ركيزة الحكم الذاتى فى نطاق السودان الموحد وعلى الاعتراف بالخصائص الذاتية والمقومات الثقافية لجنوب الوطن .

وأحب أن أعلن بالصـــوت العالى أن اجراءات اللامركزية والتى أفضت الى تقسيم الاقليم الجنوبى الى أقاليم ثلاث لم تنتهك مبادىء الحكم الذاتى ولم تقصد منها ولم تؤد الى انتهاك حقوق المواطنين فى جنـــوب السودان . والسلطة لازالت فى أيدى أبناء جنـــوب السودان وفى أيـــدى مؤسســـات لم تؤد الاجـــراءات الجـــديدة فى نقـــل الســـلطة أو الاختصاص الى الخرطوم أو الى عاصمة أو الى مركز خارج نطاق المديريات الجنوبية كل ما تمخض عنه الأمر هو المزيد من الاختصاص والمزيد من السلطة للمكان ولو للمستويات الأدنى لكل المجموعات الوطنيـــة السكانية فى الاستوائية وبحر الغزال وأعالى النيل ومهما كان الحكم على التجربة فالرأى الأخير فيها للسودانيين أنفسهم ومؤسساتهم ولحكم الدستور .

ولم أسمح بما فوضنى به الشعب من تكليف لسوى التوسع فى الحكم الذاتى والمزيد من لا مركزية السلطة والتغليب الأشـــد لـــروح الاعتراف بالخصائص الذاتية والمقومات الثقافية لـــكل أرجاء جنـــوب الوطن الحبيب .

واننى أيها الاخوة أعلم تماما أن كثيرين بعضهم بحسن نية وبعضهم بسوئها وخبثها روجوا أن مايو قد هدمت ما بنت وانتهكت ما أقامت فالشريعة قائمة بحد السيف والاســـلام قائم بالاكـــراه وهـــذا محض كـــذب وافتراء .

فالاسلام نفسه أيها الاخوة ينهى عن انتهاك حقوق غير المسلمين فلا فرض ولا قسر ولا اكراه ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين (صدق الله العظيم) وحذار من أن تقيم السياسات والاجراءات تحت تأثير الشائعات والمزايدات ومراحل الانتقال وبروح العداء والتربص .

ولقد كررت أيها الاخوة وأكرر اليوم اننا لا ننكر الاعراف والتقاليد الكريمة ولانسمح بأى انتهاك لحقوق أهل الرسالات وحرية الضمير والاعتقاد ولانرضى اهاجة أو اثارة أو استخداما مسيئا للأديان والعقائد ولن نلتفت لأولئك الذين يروجون لحملات صليبية زائفة لدق اسفين الانفصال بين الشمال والجنوب فى الوطن الواحد .

ونعى الناعون أيها الاخوة على الثورة ما أسموه بالاشكالات والمتاعب الاقتصادية فى الجنوب وبطء وتيرة الانماء ولقد كذبوا والله وافتروا على الله الكذب .

وليسأل الناعون أنفسهم ماذا ورثت الثورة فى الجنوب الحبيب ومئات الألوف من العاطلين والمشردين والجائعين ورثت الثورة المدارس المهجورة والمستشفيات المعطلة والكبارى المحطمة وحرائق المزارع والغابات ، ورثت الثورة الكراهية والدم وسوء الظن والريب .

وفى أقل من عقد من الزمان وأمام الصعوبات الهائلة والعجز الكامد لمقومات البناء والانشاء واضمحلال البنيات الأساسية المادية والبشرية أنجز أبناء السودان المستحيلات .

فخلال الفترة من ١٩٧٢ الى ١٩٧٤ أعدنا توطين مليون من اللاجئين ووفرنا لهم سبل العيش والحياة وأعدنا تعمير مدينة جوبا وبنينا فيها المشروعات الأساسية للمؤسسات الاقليمية والطرق والمساكن واستوعبنا الآلاف من العائدين من قوات الشعب المسلحة والشرطة والسجون والخدمة المدنية الاقليمية .

وشرعنا فى بناء مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية مشروع كالنجا العليا للشاى ، مشروع أويل للأرز ، مشروعات الشاى والتبغ الاكتفاء الذاتى من الذرة وتطوير مشروعات الزراعة الآلية فى الرنك وجبل لادو الماليات ووصل جنوب السودان الى مرحلة الاكتفاء الذاتى الكامل من الغذاء الأساسى ، الذرة وأنشأنا مراكز انتاج البذور المحسنة ومشروعات تعمير الغابات والمناشير وجددنا ووسعنا مشروعات جبل قيلو ومنشار كترى وأقمنا معهد تدريب الكوادر الفنية الوسيطة فى الخدمات البيطرية ومعهد يامبيو الزراعى لتدريب الكوادر الفنية الوسيطة فى الزراعة وخدمات الارشاد الزراعى .

وعندما أسست أول حكومة اقليمية عام ١٩٧٢ كانت فى جنوب السودان ثلاث مدارس ثانوية فى رومبيك وملكال ومدرسة جوبا التجارية وفى خلال عشر سنوات أسسنا ثمانى عشرة مدرسة ثانوية عليا جديدة وضاعفنا مرة ونصفا عدد الطلاب فى المدارس الحكومية وتوسعنا فى الخدمات الطبية الأساسية والتى تضمنت أول مشروع من نوعه فى أفريقيا

للصحة الوقائية وأقمنا سبعة عشر مستشفى جديدا وخمســـة مراكز صحية ومائتى شفخانة .

واصلحنا الفى ميل من الطرق المهجورة والمحطمة فى ســـنوات الحرب وبنينا خمسة كبارى جديدة وستمائة وخمسة وعشرين ميلا من الطرق الجديدة ووسعنا وطورنا مطار جوبا والعمل جـــار فى مطـــار ملكال وواو وتقريبا جهزنا أرض النزول للطائرات فى كل قرية كبيرة ولا أريد أن أحصى العشرات من المشروعات التى مازالت قيد التنفيذ أو تعثرت بها السبل ونحن عازمون على المضى فى اكمالها .

والتنمية القومية أيها الاخوة فى نطاق سودان الوحدة انما هى عائد للوطن بأكمله بصرف النظـــر عن موقع مشروعاتها واستثماراتها فثمة اعتبارات فنية واقتصادية محضة تتحكم أحيانا فى طبيعة الاستثمارات وحجمها ومواقع مشروعاتها ومهما تعددت مواقع التنمية على امتداد خريطة السودان فهى بعائدها المـــالى والاقتصادى للسودان أجمع وهى بغرض العمالة فيها لأبناء السودان أجمعين .

هـــكذا كان وسيظل مشروع الجزيرة ومشروع الرهـــد ومشاريع السكر ومشاريع الطرق القومية .

وهذا هو المعنى الأصيل لجامعة الخرطوم وجامعة جوبا وجامعة الجزيرة وسائر مؤسسات التعليم العالى صروحا للسودان كله ولأبناء السودانيين أجمعين ولا تمييز فيه لأبن من أبناء السودان بسبب أصله أو منبته أو موطنه .

والمعنى الأصيل للتنمية القومية يتعارض تماما مع تصنيفها على أساس مواقعها وجغرافيتها وانما يتحدد بمقومات عائدها وانتشار أثارها ونتائجها على امتداد الســـودان كمدن وعبر حـــدود مديرياته وأقاليمه ويصدق هذا المعنى على طريق بورتسودان بالخرطوم كما يصدق على مشروع سكر كنانة مشروعات النقل النهرى فى أعالى النيل وعلى مشروعات التنقيب عن البترول فى بانتيو ويشهد لنا التاريخ بأننا منحنا التنمية فى جنوب السودان الأولويات والأفضليات رغم العوائق والعقبات .

جنوب السودان يشهد اليوم أعظم صروح التنمية طموحا وجسارة وانطلاقا .. يشهد جنوب السودان اليوم صروح الأحلام الكبرى وصروح المستقبل الشامخة وفى درجات مختلفة من الانجاز والتنفيذ .

وشاء المكابرون والمتآمرون أن يجعلوا من أعظم انجازات ثـــورة السودان محلا للاثارة الهوجاء والتآمر والتعويق والتعطيل .

هكذا أثاروا الأكاذيب والافتراء حـــول قناة جونقلى ومشروعات العمران والانماء المرتبطة بها هكذا أثاروا اللغط وحرضوا على الفتنـــة وأهاجوا البسطاء والسذج فى مشروعات البترول فى أعالى النيل وعادوا من جديد يحركون مشـــاعر الانفصالية وأحاسيس التجـــزئة وصـــوروا بافتراءهم وأحقادهم جهود الانماء والاستثمار نهبا لثورة الجنوب وموارد الجنوب .. وكان جهادهم ووطنيتهم هى اعاقة التطور وعرقلة جهــود الانمـــاء وايقاف عمليات البناء والانتـــاج وتثبيط المستثمرين والمنتجين والعاملين .

وأقول لهم ومعى كل أبناء السودان المخلصين لن تكون فى السودان (بيافرا) أخرى ولن تكون فى السودان (كاتنقا) أخرى وسيحطم شعب السودان مؤامرات الســـيطرة على موارده وحيل النهب لثرواته مهمـــا تسترت بدعاوى الحقوق والانصاف وناصرها الأفاكون الدوليون .

أيها الاخوة كلكم يعلم بأن عمليات المخربين كانت تستهدف أكبر مشروعين فى التنمية فى الجنوب مشروع جونقلى ومشروع البترول ولكننا برغم ذلك كنا نسعى كدولة بأن نصلح كل التخريب بسرعة وبالرغم من أن المسئولين من هذه الشركات التى تعمل هناك قد دخلها الذعر والخوف الا اننا بحكمتنا وبسياستنا استطعنا الآن وقد استمعت قبل أن أدخل اليكم خبرا من وزير البترول بأن شركة شيفرون فى غضـــون أســـبوع ستبتدىء العمل مرة أخرى فى التنقيب ونتمنى من الله أن يتبع ذلك الذين يعملون فى جونقلى وفى المشاريع الأخـــرى التى أوقفت وكانت ثالث الأهداف لهؤلاء المخربين أن يوقفوا المواصلات والنقل بين الجنـــوب والشمال والهدف أن يجعلوا من الجنوب وحدة منفصلة منعزلة والهدف الآخر أن يفصلوا أيضا الاستوائية التى لم تدخل أبدا فى التخريب والتى مصرة ومصرة حتى الآن على وحدة السودان ومصر على التمسك بالسلطة التى أعطيت لها وأننى من هنـــا ومن هـــذا المنبر أحيى كل المواطنين فى الجنوب فى الأقاليم الجنوبية الذين يتمســـكون بسلطتهم وأناشدهم بأن يتمسكوا بهذه السلطة ويسعوا لنقلها الى الفئات الأخرى التى أقل فى المستويات .

أيها الاخوة ثورة مايو ثورة العدل وثورة الانصاف لن تســـمح لأى انتهاك لحقوق المناطق المنتجة للثروات والموارد وكان فى حسابها دائما أن تتخذ دائما من سياسات الانصاف ما يدفع المواطنين أن يحتضنوا مشاريع الانماء والتغيير بمشاعر الانتماء والحماية والوفاء .

ان الوحدة الوطنيـــة أيها الاخـــوة تستلزم الرؤية القـــومية لدور المؤسسات القومية وتشـــكيلها وتركيزها ومؤسساتنا القومية ليســـت محض تركيب كمى لأقاليم السودان وانما هى تمثيل نوعى يتسامى على ضيق النظر وعصبية المنبت وتباين المواطن وهى ليست ساحة لاقتسام السلطة أو توزيع المناصب .

المؤسسات القومية أيضا أيها الاخوة هى لكل السودان ولا تخضع لأى تصنيف اقليمى أو تمييز عرقى أو انحياز ثقافى ذلك معنى قوميتها ودلالة انتمائها .

هكذا كانت وستكون قوات الشعب المسلحة هكذا كانت وستكون خدمتنا الدبلوماسية هكذا كانت وستكون جامعاتنا ومعاهدنا العليا .

هكذا كانت وستكون ادارتنا القومية وهكذا كانت وستكون قيادتنا المركزية .

واذا كنت حريصا على أن أجد من أبناء السودان كلهم من يحمل المسئولية فى المؤسسات القومية السياسية والدستورية فلقد كان هدفى المخلص أن أطعم مؤسساتنا القومية بالكفاءات والمهارات من أوسع المجالات والآفاق ولكنى لا أقبل أبدا بدعاوى التجزئة والتمزق المتسترة بثوب المساواة والعدل .

وأحب أن أخطركم أيها الاخوة حينما سمعت ببعض هذا الحديث واستغربت وبدأت أراجع العاملين القياديين فى وقت ما فوجدت من جزيرة صغير على النيل تسمى (مقرات) كان فى الحكومة المركزية ثمانية وزراء ولكننا كنا لا نشعر بذلك ولم نقل أبدا هؤلاء الناس أتوا من جزيرة صغيرة لماذا يعملوا فى الحكومة المركزية اننا لا نسأل ذلك أيها الاخوة ولا لأننا صرنا وحدة واحدة ولكننا نسأل عن الكفاءة نجرى وراء الكفاءات اللازمة ونضع الزول المناسب فى المكان المناسب .

أيها الاخوة الأحرار الثوار أن السودان أكبر الأقطار الأفريقية يتوسط القارة الأم فى مساحة شاسعة هائلة تتخم ثمانى دول أفريقية تشاركه فى أطرافه وحدة البيئة والمجموعات البشرية والمجالات الحيوية الطبيعية وتنطوى احشاؤه على كل ما تزخر به أفريقيا من الأصول والمنابت والحضارات والثقافات والبيئات الطبيعية وكل ما يعرض لجيراننا من اضطراب وفتن وما تموج به منطقتنا من صراع وتفتت ينعكس على السودان زعزعة وارتباكا وفوضى .. فعبر الحدود المشتركة التى لا تعترضها الموانع والعقبات تتدفق علينا الموجات البشرية التى يطاردها الجوع والاضطهاد والموت .

لكل ذلك فان حجر الزاوية فى علاقاتنا الخارجية يقوم على حماية الأمن والسلام المشترك والوقوف أمام أى محاولات لزعزعة الاستقرار والطمأنينة العامة وادانة أساليب التسلل والتخريب والعنف والتهديد والاحترام المتبادل لحقوق السيادة الوطنية والحدود الدولية ولسلامة وأمن جميع دول شعوب المنطقة وحقها فى اختيار أنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بغير تدخل أو وصاية أو اكراه أو تهديد .

أن أفريقيا فى مآسى الجفاف والمجاعات وتهددها أخطـار الأوبئة والمرض فلا أقل من أن نجنبها آلام الحروب الداخلية ودمار الغـزو والعدوان وزعزعة الفتن والقلاقل لابد لنا من أن نناضل ضد القـوى الشريرة التى تجر القارة الى مزالق النفوذ الأجنبى والى السقوط تحت هيمنة الأطمـاع الأجنبية وأن تتجه سياساتنا الى حل مشاكل أفريقيا بالسلام والحوار والاخوة الأفريقية .

ان السودان أيها الاخوة مصمم على حماية كيانه الوطنى والدفاع عن سلامة أراضيه ولن يسـاوم على كرامته واستقلاله ولن يركع أبدا لنفوذ أو مطامع أجنبية وسنقاوم بكل قوتنا وعزمنا وسياسات التدخل فى شئون الآخرين .. وأطماع التوسع وانهاكات الحقـوق والسيادة الوطنية واثارة القلاقل ، وتسلل التخريب .

وعلى هذا الاطار أيها الاخوة ووصلا لهذه السياسة فاننى بالنسبة للمواطنين الذين أعتقد أنهم ضلوا الطريق وانحرفوا عن المسار الجاد أمد يدى مرة أخرى أمد لهم يدى وأقول لهم وأقول لكل من حمل السلاح ضد وطنهم أن يرجعوا لبلادهم ويتركوا هذا التخريب وعهدى بهم أن أنسى كل ما حصل من تأخير لمشروعات التنمية وتقتيل لأرواح الأبرياء وعلينا أن نفوت الفرصة على أعداء السودان الحقيقيين ونعيد ترتيب الصفوف قوة متينة لنحفظ كرامتنا وكرامة السودان ولنعيش معززين مكرمين تحت سماء عفو السودان السمح .. السودان الذى عرفه العالم بأنه القطر الذى يحمى السلام .. السودان الذى يعلمه كل فرد بأنه صادق فى وعده صادق فيما يقول السودان الذى لا يكذب ولا يتدخل فى شـئون الآخـرين .

وأرجو من أصدقاء أفريقيا الحقيقيين أن يعاونوا أفريقيا وأن يعاونوا السودان على منازلة الأعداء الحقيقيين وهى الجفاف فى هذه الأيام الذى تسبب فى الجوع وتسبب فى الأوبئة وتسبب فى المرض وأرجو أن يساعدوا أصدقاء أفريقيا أن يساعدوا السودان وأن يساعدوا أفريقيا على حماية اللاجئين الذين بدأوا يتكاثروا ويدخلوا كثيرا من البـلاد وعلى رأسـهم السودان وأرجو أن يساعدونا على أن نحمى السـلام ونحمى الاستقرار وعلى أن نحترم السيادة والكرامة لأوطاننا ولجيراننا .

الاخوة المواطنون الثوار الأحرار :

أن وقفة أمام ما تشهده بعض مناطق جنوبنا الحبيب لتنهض دليـلا على حجم التآمر الذى يتعرض له السودان تآمر عمره من عمر هـذه الثورة بل هو تآمر سابق على قيام هذه الثورة والتى ما تفجرت الا من أجـل الوحـدة الوطنية وما ناضلت الا فى سبيلها وما قاتلت الا تحت راياتها الظافرة أبدا باذن الله .

ان وقفة أمام الادعاء الكاذب اللئيم بان ما تشهده بعض مناطق جنوبنا الحبيب انما هى مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية بين الشمال المسلم والجنوب المسيحى انما هو ترديد لأكاذيبهم وتركوا ما تشهده لبنان وما وصلت اليه لبنـــان من اقتتال لصالح القوة المؤثرة وبتحريض منها سواء على النطاق العالمى أو النطاق الاقليمى .

اننا نعرف من يحركون الأعمال التخريبية فى جنوب بلادنا نعرفهم لأنهم لم يتستروا على أهدافهم نعرفهم لأنهم لم يخفوا تحالفاتهم نعرفهم لأنهم وبما يشبه الزهو يعلنون عن ارتباطهم بليبيا القذافى أمواله وتسليحه وأهدافه ومراميه نعرفهم بمعسكراتهم خارج بـــلادنا بقواعد انطـــلاقهم نعرفهم كأداة تنفيذية لتحالف تتزعمه ليبيا القذافى وتعمل فى اطـــاره ليبيا القذافى لتدمير وتفتيت وحدة السودان .

نعـــرفهم بافتراءاتهم الـــكاذبة ومذهبهم الزائف نعرفهم بقيادتهم المشبوهة العميلة والتى تتباهى بعلاقاتها بليبيا القذافى وتتبجح بدعمـــه وتمويله لتآمرها وتعلن بغير تستر بانها مع الحلف المعادى للســـودان ثورته للسودان وحدته للسودان بتنميته وتقدمه .

اننا نعرف هذا المخطط اللئيم كما نعرف أطرافه وأهدافه لأنه نفسه هو ما واجهنا تآمره وتحريضه وتخريبه على مدى سنوات من عمر ثورتنا الظافرة حيث كان هدفه وحدتنا الوطنية .

وكان محاولات التخريب تتجه على الدوام لتخريب وحدتنا الوطنية نعرفه لأنه نفسه ما واجهناه من تآمر يوم عمل العقيد القذافى على خلق تكتل عربى اسلامى ضد اتفاقية أديس أبابا يوم وقعت باعتبارها ضربة موجهة لعروبة السودان وللاسلام فى السودان .

نعرفه لأنه نفسه معمر القذافى وراء محاولات التخريب المشهور بالذكرى الأولى للوحدة الوطنية فى السودان فى مارس ١٩٧٢ نعرفه لأنه نفســـه معمر القذافى الذى أعلن وصرح بأن جنوب السودان هو العقبة أمام وحدة السودان مع ليبيا وأن فصل الجنوب عن الشمال فى السودان انما هو الطريق لوحدة ليبيا مع السودان .

نرفه لأنه معمر القذافى الذى هاجم وتهجم على جوزيف لاجو فى خطابه بجامع الخليفة بأم درمان سنة ١٩٧٤ باعتباره عقبة أمام الوحـــدة السودانية الليبية نعرفه لأنه نفسه معمر القذافى الذى كان وراء أحداث سبتمبر ١٩٧٣ حيث أعلن القذافى أيامها أن الطريق الى الوحـــدة مع السودان ومصر انما يمر بفصل جنوب السودان عن شماله .

نعرفه لأنه نفســـه معمر القذافى الذى كان وراء الغـــزو الليبى الفاشل للسودان فى يوليو ١٩٧٦ وهو الغزو الذى كانت فيه اذاعة جوبا هى اذاعة لكل السودان فكانت تلك اضافة الى أحقاده لوحدة الجنوب والشمال فى السودان .

نعرفه أيها الاخوة لأنه نفسه معمر القذافى والذى يعرفه العــالم كله عدوا لدودا للوحدة الوطنية فى كل مكان تآمر عليها فى مصر وتآمر عليها فى تونس وتآمر عليها حتى فى الفلبين وجرانادا .

تآمر عليها حتى فى بريطانيا فهو مع حركة الانفصال فى أيرلندا الشمالية ومع حركة التمزق لمنظمة التحرير الفلسطينية ثم هو العــامل المشترك فى كل مراحل تمزق الوحدة الوطنية فى لبنان .

أن معمر القذافى الذى عرفته الأردن ساعيا لتخريب وحدتها انما هو نفسه معمر القذافى مدمر سفارة الأردن فى طرابلس ، المتآمر على الأردن ووحدته ، المتآمر على الأردن وشعبه .

أن معمر القذافى — أيها الاخــوة — مدعى الأمانة على القومية العربية ، انما هو نفسه معمر القذافى الذى يقف مع ايران ضد العراق ، يساند الخمينى فى سعيه لتمزيق الوحدة الوطنية على امتداد العالم العربى من المحيط الى الخليج والعالم الاسلامى أجمع فى كل مكان .

أن معمر القذافى — أيها الاخوة — الذى يستثمر تحالفاته وصداقاته مع القوى العالمية والقوى الأقليمية لتمزيق الوحدة الوطنيـــة فى تشـــاد وفى السودان لهو نفسه معمر القذافى الذى تصدى له السودان دائما بوحدته وسينتصر عليه دائما السودان بوحدته باذن الله .

أن معمر القذافى داعية الوحدة العربية المزعوم لهو نفســـه معمر القذافى عدو الوحدة الوطنية فى كل مكان .

أنه نفســـه معمر القذافى ، الذى يقف وراء المحـــاولات التخريبية للوحدة الوطنية فى بلادنا الساعى دائما للتصدى لتقدمنا ، المدرك عن يقين أن صلابة الوحدة فى السودان ، انما هى الخطر الأكيد على مخططاته التخريبية فى المنطقة العربية وفى القارة الأفريقية وفى كل مكان .

أن السودان — أيها الاخــوة — مع الوحدة الوطنية ، والقذافى عدوها ، أن السودان مع الحوار لحل المشاكل الاقليمية والداخلية والقذافى خصم عنيد للوفاق والاتفاق بين الأشقاء على مستوى الأوطـــان وعلى مستوى الجيران .

ان السودان بنموذج حققه فى جنوب بلاده وبجنوب بلاده انمـا هو النموذج المعاكس لطموحات معمر القذافى وأحلامه المجنونة ، والتى يسعى على تحقيقها على أشلاء الأوطان وتمزيق الأوطان واقتتال أبناء الوطن الواحـد .

ان معمر القذافى مسلحا ومهولا للعملاء أعداء أوطانهم فى كل مكان ، لهو نفسه الممول والمسلح والمحرض ضد الوحدة الوطنية فى أثيوبيا والآن الأثيوبيين يعتقدون انه هو الصديق الأوفى ولا يعلمون انه الممول الأول لكل الأسلحة التى يحارب بها المواطنون حكومة أثيوبيا فى أديس أبابا .

ان معمر القذافى ــ أيها الأخوة ــ لو أرادها حـربا مع السـودان استهدافا لوحدته ، فسنحاربه ولسوف ننتصر عليه باذن الله .

ان معمر القذافى لو أرادها تحريضا لمن يجاورنا واستجابوا له . فاننا لن نقف مكتوفى الأيدى أمام التحريض والتهديد . أننا نؤمن بصلابة تماسكنا ، بعمق عقيدتنا ، بايماننا الأكيد بأن الاستشهاد فى سبيل الوطن ووحدته انما هو استشهاد فى سبيل الله وهو جهاد فى سبيل الله .

اننا بهذا التصميم وهذا الايمان وهذه الارادة نستطيع أن نرد الضربة ضربات واللطمة لطمـات .

اننا ــ أيها الأخوة ــ لم نحاول حتى الآن ، أن نعبىء قوانا لمواجهة ما نتعرض له عبر حدودنا ، فما زلنا حتى الآن دعاة سلام ودعاة حوار ودعاة تضامن بين الأشقاء فى القارة الأفريقية وفى الأمة العربية .. واننى أناشد مرة أخرى الأخوة الذين يحملون السلاح أن يفوتوا عليهم الفرصة، يفشلوا تخطيطهم فى السودان وفى أفريقيا ، يكشفوه للعالم ليتعلم الدروس المفيدة لسياسة الدول التى تعيش فى تعاون وأمن واستقرار فى المجتمع الدولى .

أيهـا الأخـوة ..

ان الصبر لا يعنى التهاون ، والرغبة فى السلام لا تعنى الاستسلام ولذلك فلن نستمر طويلا فى مواقع الصبر ، ندفع ونقاوم العدوان وانما سيأتى يوم قرارنا بمواجهة العدوان ومطاردة العدوان فى مواقعه وداخل معسكراته أينما وجدت لقد قلنا دائما ومازلنا نقول ، اننا نفضل التراكتور على المدفع وعلى الدبابة ، اننا نسعى للتنمية لا للقتال اننـا مـع توفير الموارد لاستثمار الموارد من أجل حياة أفضل للانسان فى بلادنا ولمن حولنا الا أن سيادتنا الوطنية تظل دائما وأبدا سابقة وسباقة على طموحاتنا حتى للتقدم ، ذلك اننا نبنى للسودان وليس لأعداء السودان ، للسودان موحدا

وليس لسودان مجزأ ومنشطرا ومقسما ، خدمة لأهداف ومطامع اقليمية وعالمية نعرفها ونرصد تآمرها .

اننى أقول وبالصوت العالى ليسمع العالم كله ، اننا لن نخضع الا لارادتنا . ولن نستجيب الا لنداء شعبنا ، اننا لن نفرط فى سيادتنا ، اننا لن نبيع كرامتنا . اننا لن نتهاون فى وحدتنا مهما كان حجم التهديد ومصدره . حجم الخطر وأبعاده ، قوى التآمر وأطرافها .

اننى أقول وبالصوت العالى ليسمع العالم كله ، أن محاولة الخروج بالاسلام كواجهة للتآمر على الوحدة الوطنية فى السودان وتخريب الوحدة الوطنية فى السودان ، انما هى العوبة قديمة متجددة ، حاولها الاستعمار وفشل بعد صراع فى جنوب وطننا استمر لسبعة عشر عاما ، فجاءت ثورة الخامس والعشرين من مايو وحسمته بالحوار وبالسلام وبتأكيد الوحدة بين جنوب الوطن وشماله .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو ، باعلان ميثاق التاسع من يونيو . مبادرة من الثورة فى أسابيعها الأولى ، اعترافا من الثورة بالخصائص الثقافية والعرقية والدينية فى جنوب السودان .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو ، باتفاقية أديس أبابا حيث الحكم الاقليمى فى جنوب الوطن فى اطارها ، هو تأكيد للاعتراف بالتنوع الحضارى والثقافى والدينى فى السودان ، والذى يثرى السودان بالتكامل يؤكد وحدة السودان بالتفاعل .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو بالتوسع فى الحكم الاقليمى للسودان كله ، من حيث هو احترام الخصائص المميزة لمختلف أقاليم السودان .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو بالتوسع فى الحكم الاقليمى فى جنوب السودان بقيام أقاليمه الثلاثة ، وهى الخطوة التى تؤكد التمسك باتفاقية أديس أبابا ، من حيث هى مزيد من تفويض السلطات ليمارسها المواطنون فى جنوب الوطن ، وليس من خارجه .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو فى دستور بلادنا الدائم والذى نص على أن الاسلام فى السودان هو دين الأغلبية ، والمسيحية دين البعض من سكانه ، وان كريم المعتقدات لهى دين البعض من سكان السودان كذلك .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو ، عندما أعلنت النهج الاسلامى والتزمت به ، والذى لم يكن قرار فرد ولا ارادة سلطة ، وانما

كان استجابة للدستور وما نص عليه ، الميثاق وما جاء فيه من قرارات المؤتمرات القومية للاتحاد الاشتراكى السودانى وما التزمت به .

حسمته ثورة الخامس والعشرين من مايو ، حينما رفعت راية النهج الاسلامى تعبيرا عن الاسلام وقيمه . حيث لا اكراه فى الدين ولا اكراه بالدين لا مساس بالعقيدة كل عقيدة ، لا انكار للاديان وانما اعتراف بها، أعتراف بالمسيحية كدين سماوى يدعو كما يدعو الاسلام للمحبة والوفاق والأخاء والسلام والوحدة .

يدعو الى التكافل والتراحم والمودة ، يدعو الى التوحد بالدين وليس التفرق بالدين أبدا .

ان النهج الاسلامى الذى أعلنه والتزم به السودان ، انما هو الاسلام كما عرفه السلف العظيمتعايشا بين مختلف العقائد ، تكريما وتقديرا لكل الأديان ، لا فرض لمنهجه بسلطة واجبار عليه بقوة ، وانما هو دين دعوة ككل دين ، يهتدى به من يشاء أن يهتدى قناعة لا اكراها التزاما لا الزاما .

أن النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزم به انما هو لقيم الأديان جميعا من حيث هو تطهير للمجتمع من الرذيلة أحياء لقيم الفضيلة انكارا للاستغلال والفساد والاستجابة للشهوات ودرء للظلم والظالم .

ان النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزم به انما هو مع حرية العقيدة وليس ضدها حرية العبادة واحترامها هو نهج من الاسلام وبه توقيرا للمسجد والكنيسة على حد سواء .

انه النهج الاسلامى الذى التزم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذى امتنع عن الصلاة فى كنيسة القدس حتى لا تكون سابقة للمسلم بأن يزاحم غير المسلم فى مكان عبادته .

انه النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزمبه والذى هو للحياة وليس ضدها للتقدم وليس نقيضه للمجتمع الفاضل والفرد الفاضل الذى لا يؤذى غيره فى عرضه أو ماله أونفسه .

هو النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزم به والذى يلتقى مع المسيحية وكريم المعتقدات فى غاياتها وتوجيهاتها وقيمها ومبادئها جميعا من حيث هو انكار للشر وادانة له دعوة للخير وانتصارا له امتناع عن الزهو بالرذيلة والاعتزاز بالمنكر والممارسة العلنية الفاضحة لما يغضب الله ويؤذى مشاعر الناس .

انه النهج الاسلامى كما أعلنه السودان والتزم به وهو ذاته نهج المسيحية وقيمها لا استغلال ولافساد ولا جشع ولا استنزاف لأموال الناس بالباطل لا اعتداء على حرمات الناس بالمنكر لا عدوان على حياة الناس ولا تهديد لأمنهم وسلامهم وسلامتهم ..

انه النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزم به انتصارا لكل قيم الأديان بغير تفرقة فما كانت الأديان الا دعوة السماء للناس أن يكون بعضهم لبعض تراحما ومودة تعاملا وتكافلا وأخاء ومساواة لا تفرقة بينهم بعرق أو ثقافة أو موطن أو دين لكل دينه حسب قناعته لكل عقيدته حسب رؤيته لكل مسئولية أمام ربه ونفسه ووطنه .

انه النهج الاسلامى وهو نهج كل دين سماوى انما هو غاية ينشدها الانسان لصالح نفسه ووطنه فى دنياه وآخرته ليس وسيلة للمتاجرة وليس دربا للمزايدة ولا مدخلا لسلطة بأى حال من الأحوال .

انه النهج الاسلامى كما أعلنه السودان والتزم به انما هو نهج كل دين سماوى لا يتعارض معه وانما يتكامل من حيث غاياته فما كان الاسلام الا دين وحدة ومودة وما كانت المسيحية الا دين محبة وسلام .

اننا مع قيم الدين نرفعها ..

اننا لقيم الدين لنعليها ..

اننا بمبادىء الدين كل دين تتوحد صفوفنا ولا تختلف مساراتنا ولن نسمح أبدا أن يكون الدين مدخلا للتفريق أو التمزق والشتات .

ان المحاولات المجرمة واللئيمة لربط المحاولات التخريبية فى بعض أجزاء جنوبنا الحبيب بالنهج الاسلامى انما هى محاولة بشعة ومدانة ومنكرة.

ان التعايش بين الأديان فى السودان كان وسيظل أبدا هو نموذج بغير نظير لكل الأوطان والأمم والتى يتقاتل فى بعضها معتنقوا المذاهب المختلفة فى اطار الدين الواحد والتى يتواجه أبناؤها تحت رايات مختلف الأديان .

ان التعايش بين الأديان فى السودان سيظل أبدا نموذجا بغير نظير للتسامح والتآخى والاحترام المتبادل لمعتنقى مختلف الأديان داخله يكفى أن أشير الى أن السودان يكاد يكون وحده الذى يحتفل بمولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كمناسبة قومية ويحتفل بمولد المسيح عليه السلام كمناسبة قومية كذلك .

ان التعايش بين الأديان فى السودان سيظل نموذجا بغير نظير حيث مسئولية المجلس القومى للشئون الدينية وهو مؤسســة قومية مسئولية مشتركة ومتكافئة فى رعاية مؤسسات كل الأديان فى السودان .

ان الحكم الأقليمى فى السودان ليس دليلا فحسب على انكار التمايز باسم الدين أو الثقافة أو الحق أو الموطن ، انما هو توظيف للسلطة فى كل اقليم وهى سلطة أبنائه ، لاحياء تراثهم وتطوير تقاليدهم واستثمار مواردهم وأيضا مسئولية رعاية مؤسساتهم الدينية واعلان قيم دينهم .

ان المحاولات اللئيمة لربط النهج الاســلامى فى الســودان بمحاولات التخريب فى بعض أجزاء جنوبنا الحبيب ليشهد عليها أن التخريب محــدود فى منطقة من مناطق الجنوب وليس فى كل المناطق .

ان المستهدف بالتخريب مواقع التنمية كما قلت وليست مواقع العبادة أن الغاية من التخريب وحدة السودان وارادته ومعتقدات كل سكانه .

ان محاولة الربط اللئيم بين النهج الاسلامى ومحاولات التخريب فى بعض مناطق جنوبنا الحبيب انما كانت وفى مختلف المراحل تختلق المبررات والواجهات لنشاطها ذلك النشاط المأجور وذلك النشــاط وهو مرة مبرر بمشروع جونقلى وهو مرة مبرر بدراسات وصت باقامة مصفاة للبترول فى كوستى وهو مبرر مرة أخرى حتى الآن بالتوسع فى الحكم الأقليمى فى جنوبنا الحبيب رغم ان التوسع فى الحكم الأقليمى واقامة الأقاليم الثلاثة انمــا هو ارادة الجماهير فمن مواطنى جنوب بلادنا وهو استلهام لنهج ساد فى كل أنحاء السودان وسنخضع دائما لرأى الأغلبية وعلى المجالس الشــعبية ومؤتمرات الاتحاد الاشتراكى السودانى أن تفصح عن رأيها ولا راد لارادة الجماهير سواء ارادت الدمج أو اعادة التقسيم وأحب أن أوضح أكثر بأن هذا يسرى على جميع الأقاليم فى السودان وعلى جميع المناطق فى السودان اذا كان النــاس واذا كانت المجالس التشريعية مع مجالسها السياسية فى الاتحاد الاشتراكى السودانى اتخذت قرارا موحدا مع الأقليم الآخر بارادة أن يلتحموا يندمجوا معه فنحن ليس لنا رأى خلاف أن نطيع هذا الرأى . . واذا كان هناك قرار من الأقليم بأن هناك منطقة داخل الأقليم صارت قوية وصارت تستطيع أن تكون اقليما لوحدها ولها من المصادر ما يمكنها من ذلك فاننا أيضا سنعطى ذلك وهذا ليس جديدا عندما كنا هنا وفى هذه القاعة وعندما كانت الجماهير تتحاور وتتخذ القرار فى عدد أقاليم السودان فى الشمال كان بعض أو كل المواطنين فى دارفور أستطيع أن أقول طلبــوا أن يكون لهم اقليم ، وكانت أسبابهم قوية بأن الاقليم الغربى مساحته واســعة ولن يستطيعوا أن يأتوا من دارفور الى الأبيض مثــلا وهى العاصــمة للاقليم الغــربى .

وعندما رأيت أن هذا الاقتراح مناسبا وانه مدعوم بالرأى من الجماهير وافقت فى الحين ولن يأخذ منى أكثر من دقائق وقد خلقنا أقليمين واحد سميناه كردفان وواحد أقليم دارفور نحن كل شىء بنعمله على حسب ارادة الجماهير .. الجماهير فى الجنوب هى التى طلبت أن يوزع الأقليم الجنوبى السابق الى أقاليم وكانت هناك دراسة عندهم والدراسة هذه وصلت الى ان احسن شىء فى الوقت الحاضر أن يوزع الأقليم الجنوبى الى ثلاثة أقاليم وهى أقليم الاستوائية وأقليم بحر الغزال وأقليم أعالى النيل وهنا أيضا أحب أن أذكر وأنبه الأخوة الذين يتحدثون فى الجرايد وفى الاعلام وفى كل مكان وفى ندواتهم التى أسمعها وخصوصا الندوات الكبيرة جدا والتى لايعملوا الاصطلاحات الخاصة بها ليس هناك مايسمى بأقليم جنوبى الآن هناك ثلاثة أقاليم أعالى النيل والاستوائية وبحر الغزال فعندما تتحدثوا فى الندوات يا أساتذة تحدثوا بان هناك ثلاثة أقاليم وليس اقليم واحد وعندما تكتبوا وعندما تعملوا أوبريت فى الاذاعة ليس هناك اقليمين أيضا هنا ثلاثة اقاليم مش أعالى النيل وبحر الغزال فقط الأوبريت اللى سمعته امبارح فى التلفزيون والليلة الصباح بيغنى لأقليمين بس فقط وأرجو أن يتأكد المؤلف بتاع سلاح الموسيقى أفتكر .

أيها الأخوة أن النهج الاسلامى الذى أعلنه السودان والتزم به انما هو نهج كل دين سماوى كريم يضع حماية الوحدة كمواجهة للفتنة والتى هى أشد من القتل اننا لن نسمح ولن نسمح لادعاءات تضع الاسلام فى السودان كأنه يواجه المسيحية فى السودان فالدين كل دين لله ومن التزم به والوطن لجميع المواطنين مهما اختلفت عقائدهم .

اننا لن نسمح ولن نسمح لمحاولات اثارة النعرات الطائفية والصراعات الدينية أن تتسرب الى بلادنا اننا لن نسمح لمخطط التخريب والتفتيت باسم الدين أن يمر بين صفوفنا يكفى أن أقول اننا أول من نبه لمخططات التقسيم الدينى والطائفى فى المنطقة وأول من أدان العدوان باسم الدين على العراق وأول من أعان العراق على الحفاظ على وحدته الوطنية ضد الهجمة الايرانية التى تدعى لنفسها مسئولية تصدير الاسلام .

أن النهج الاسلامى كما أعلنه والتزم به السودان انما هو نهج الأوائل السابقين بالقدوة فى تاريخ الاسلام وفى تاريخ المسيحية .

الذين قاتلوا من أجل المحبة والوحدة والذين ضحوا من أجل السلام والوفاق الذين انتصروا بوحدتهم وانتصروا لوحدتهم ما تفرقوا بدين ولا تفرقوا لدين وانما عملوا وناضلوا واستشهدوا من أجل احياء واعلاء قيم الدين كل الدين أن يسعد على الأرض السلام وبين الناس المحبة . أن

يتراجع الشر والقهر والبؤس والفاقة والظلم والحرمان . أن يعلو التكافل والتراحم على التنافس والصراع .

أن يكون حكم للناس شورى بينهم قسمة عادلة للثروة والسلطة فى بلادهم ..

اننى أيها الأخوة أدرك المشاكل التى تواجه الشباب والخريجين من ابناء الأقاليم الجنوبية فى فرص الاستخدام والعمل فى وجه العقبات التى سببها المتمردون العملاء وخلال المرحلة الانتقالية للأقاليم الجنوبية الجديدة واننى أوجه وكان هذا مكتوبا أيضا قبل أن أسمع قرار شيفرون وأتمنى أن يكون قرار شيفرون وبقية الشركات الأخرى ولكن بالرغم من ذلك اذا لم يكن القرار صحيحا فاننى أوجه بانشاء صندوق خاص وتنفيذ مشروع خاص لاستيعاب خريجي المدارس والعمالة التى سرحت من مشروعات الانمساء المتوقفة على العمل فى الأقاليم الجنوبية لأن هذه مشكلتنا ويجب أن نواجهها وسنلجأ ليس فقط للخزينة العامة وانما للجهود الذاتية وعون الأصدقاء حتى لا يقع شبابنا فريسة العطالة والاحباط وسأكلف لجنة خاصة لتنفيذ ومتابعة هذا المشروع الطارىء الحيوى هذا زيادة على اننى أوجه حكام أقاليم بحر الغزال وأقليم أعالى النيل وأقليم الاستوائية أن يقوموا فورا أو يقدموا فورا لوزير التخطيط المركزى خطة تنموية سريعة لأقاليمهم تهتم بالخدمات والمشاريع ذات العائد السريع والمشاريع المنتجة ومهما يكن من أمر نحن نريد أن نرى ان الحكام قد أشركوا المواطنين فى عملهم هذا وبدأوا العمل فى التنمية فى توفير الخدمات اللازمة من مدارس من مستشفيات من طرق من كهرباء من مياه للمواطنين فى الجنوب متى كان ذلك ممكنا واننى سأساعد ذلك مهما كان ذلك ممكنا فى كل الأوقات وأرجو أن نقدم الخطة من الحكام لوزير التخطيط القومى والذى أرجو أن يرفعها لى عندما تصله .

أيها الاخوة : مهما كانت المحن والمؤامرات فلن يكون هنالك نكوص عن مبادىء الحكم الذاتى ورد السلطة للشعب وسأظل على عهدى ليبلغ الحكم الذاتى معانيه الحقيقة معبرا عن ارادة الجماهير وقيمها ومثلها بغير اكراه أو قسوة .

واننى أدرك النتائج السلبية للتطاحن على السلطة بين السياسيين فى الأقاليم الجنوبية الآثار الضارة الخصومات الشخصية والدوافع الذاتية على ممارسات الحكم والسلطة وأناشدهم جميعا أن يرقوا الى مستوى التحديات التى تواجه الوطن الحبيب وأن يطبعوا تصرفاتهم بالموضوعية والمسئولية الوطنية .. واننى لا أريد كما سمعت وأرجو ألا يكون هذا صحيح بان المثقف الجنوبى اما أن يكون وزيرا أو يحمل البندقية ضد الحكومة لا أريد أن أسمع ذلك فهذا الشعار سمعته فى انجلترا وأنا عارف فى انجلترا هناك الأعداء كثيرين ولكن لا أريد أن أسمع بهذا الشعار

(المواطن الجنوبى المثقف اما وزير أو عدو فى الغابة يحمل السلاح) هذا غير صحيح لأننا نعلم أن كثير من المواطنين الجنوبيين المثقفين يعملون فى أماكن هامة فى مختلف أنحاء السودان .

ان السودان بنظامه الديمقراطى ومؤسساته ومثله لن ينزلق الى مسالك البطش والقهر ولن نطارد الخصوم والمخالفين وسنوسع صدرنا كثيرا ليكون الحوار وتبادل الرأى وسعة الصدر والصبر سبيلنا ونهجنا وأكرر مرة أخرى للمرة الثالثة واناشد الأخوة الذين يحملون السلاح يوقفوا القتال ويوقفوا التخريب ويتذكروا مرة أخرى ان هذا وطنهم وانهم يؤدوا واجبات أو أغراض لآخرين لتخريب هذا الوطن أرجو أن يتذكروا انهم يقاتلون اخوانهم ويتذكروا انهم يقاتلون فى أرضهم ويقاتلون فى ترابهم وتلك الأرض وهذا التراب التى ترعرعوا ونشأوا فيها أرجو أن يتذكروا انهم يحاربون اخوانهم وآبائهم وأمهاتهم ويتذكروا قبل أن يستمروا فى اطلاق أى طلقة أو استعمال أى متفجرات أو أدوات نسف يتذكروا انهم يخربوا بأيديهم بيوتهم أقول لهم عودوا لوحداتكم ولمصالحكم ولقراكم فستجدوا منى ومن كل المسئولين العفو الشامل لكى نبدأ عملا جديدا قويا يساعدنا فى بناء هذا الوطن الذى يحتاج لكل ابن من ابنائه ولكل جهد من جهد أبنائه .

اننى — أيها الأخوة — أشعر بالضرورة الحاسمة لاصلاح ادارى ومالى فى نطاق الأقاليم الجنوبية الجديدة ومعالجة العجز الدائم فى الايراد والاخفاق المستمر فى مواجهة أعباء الخدمات العامة والمرتبات وسيكون على الحكومات الاقليمية أن تلتزم ببرامج محددة فى هذا الشأن وأن تتحمل الأجهزة السياسية والتشريعية والتنفيذية مسئولياتها كاملة فى هذا الشأن وان شاء الله سأربط هذا مع الخطة التنموية التى سيتقدم بها الحكام الثلاثة وسنتخذ اجراءات الحسم الناجز والنزاهة التامة لمواجهة الفساد والمفسدين ..

الأخوة المواطنون والثوار الأحرار ..

فى يوم عيد الوحدة الوطنية ..

فى يوم تجسيد سيادتنا القومية ..

فى يوم أمتنا السودانية ..

أقسم بالله غير حانث أعاهد الشعب غير ناكس أن تكون ارادة الأمة السودانية وحدة فوق كل ارادة سيادة الوطن السودان الواحد فوق كل تآمر وأكبر من أن يكون دمى وحياتى فداء لوحدة بلادى .

وحدة تشرفت بقيادة ثورة الشعب لتجسيدها وحـــدة تحملت مع جماهير الشعب مسئولية حمايتها وحدة أزود عنها ومعى الشعب كله فى جنوبه وشماله وغربه وشرقه بها حاضرنا ونرسى بها قواعد مستقبلنا لا نتهاون بها ولا نساوم نلتقى فى رحابها ، نتحاور نتشاور فى ظلها اتفاقا ووفاقا نجتهد بالرأى ونتفق بالمشورة هدفنا واحد غايتنا موحدة هو بناء الســـودان كله وان الله لناصرنا ما دمنا نحافظ على الوحدة ضد التفرقة .. ما دمنا على السلام وللسلام ندعمه باتحاد خطانا ووحدة صفوفنا .

الله ناصرنا فما كان هدفنا الا خيرا وما كان سعينا الا سلاما وما كان جهدنا الا من أجل بناء وطن وتوحيد أمة .

سنواجه الملمات بالثبات ورباطة الجأش ومضاء الايمان لن يتزعزع يقيننا ولن تخور عزائمنا ولن ينالنا الجزع والريب .

الحمد لله الذى كرمنى بالجهاد فى سبيل رسالته واعلاء كلمته وبنـــاء مجتمع الفضيلة والشرف والصلاح والتكامل والايثار .

والحمد لله الذى أكرمنى لأنهى عن ما نهى عنه من الفساد والفجور وفســـاد الذمم والعدوان على الحقوق والحرمات والحمد لله الذى جعلنى قائدا على أمة خيرة عاملة .

المجد للسودان موحدا ..

والعزة للسودان متحدا ..

الخلود لذكرى الوحدة الوطنية انجـــاز مايو العظيم وغـــاية مايو العظمى ركيزة البناء وقاعدة النماء .. والله يوفقنـــا والســـلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

• • •

من توصيات المؤتمر الرابع
للاتحـــاد الاشتراكى السودانى

تصدر الحوار داخل لجـــان المؤتمر التمسك بقيادة الأخ الرئيس القائد جعفر محمد نميرى مفجر الثورة وقائد مسيرة التحالف ٠

وقد رأت اللجان فى النهج الاســـلامى الذى ارتكز عليه البرنامج فى كلياته وتفصيلاته أساسا راسخا لتدعيم الوحدة الوطنية بتعبيره عن ضـــمير الشـــعب ودعمه لمقومات حيـــاته ورعايته لحقوق المواطنين على اختلاف أديانهم ، والتمسك بهذا النهج الـــكريم فى عملنا الوطنى مفجر لطاقات الأمة وعاصم لها من الانزلاق فى مهاوى الفســـاد والانحـــلال والتـــواكل ٠٠

وأكدت اللجان وأمنت على صحة الاختيارات الأساسية للثـــورة باعتبارها اختيارات مبدئية لا تفريط فيها ولا مساومة حولها ٠٠

وجاءت توصيات اللجان كافة مجمعة على اقرار واجازة البرنامج السياسى الشامل المرتكز على هذه الاختيارات باعتباره برنامجا معبرا عن طموح وآمال الجمـــاهير فى مستقبل مشرق تبنيه بالجهـــد والعرق وبالاعتماد على النفس والاعتداد بالنفس وضبط النفس ٠٠



خطاب الرئيس نميري

أمام المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية

أبريل ١٩٨١

بســـم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــالى :

« قل ما أسألكم عليـــه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعـــالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين » .

صـــدق الله العظيم

الأخ رئيس المؤتمر العـــالمى للدعوة الاسلامية .

سلام من الله ورحمته وبركاته وبعـــد :

لقد اطلعت على ما نشر وأذيع عن مشروع اقترن باسمى لطبـــاعة مليون نسخة من القرآن الكريم ، وما اقترن بهذا الاعلان من تبرعات كريمة من أخوة وأشقاء للاسهام فى تنفيذ هذا المشروع العظيم .

ورغم نبل القصد فى طرح المشروع باسمى ، ورغم كرم العطـــاء والذى تتعالى دلالته على قيمته مضاعفا ألف مرة ، فان لى رؤية مبدئية تشكل نهجى ومنهجى منذ أن تحملت أمانة التكليف ، وهو نهج يلزمنى أن أكون بموقعى لا بشخصى ، بما يقدرنى الله عليه من جهد لا باسمى ، تفاعلا مع الأمة السودانية والأمة الاسلامية ، واللذان يدفعان خطواتى على درب الانتصار لدين الله ، واعلاء كلمته ، واحياء ذكره .

وذلك دون أن أكون من الناس الا منهم ، ولا اكون فى النـــاس الا بهم ، لا أتمايز عنهم فى رحاب عطاء مطلوب من المسلمين بغير تميز ، والا أدعى انفرادا بواجب هو من دعائم الايمان وأركان الاسلام ، يتساوى المسلمون فى تطلعهم اليـــه .

وحيث تتساوى النوايا ، ينبغى أن تتوارى مبادرات الأفراد ، وقبلها اسماؤهم ، وفى اطار هذا النهج والتزاما به ، فلقد اقترنت بوارق الانجاز السياسى والاقتصادى والعمرانى فى السودان وخارج السودان بخصائصها

فتسمت بمواقعها الجغرافية ، واقترنت بوظائفهـــا الانتاجية واشتهرت بما سعت اليه أو بما تحققه دون أن ترتبط باسم فرد مهما كان موقعـــه ومهما كان اسهامه فاذا كان هذا هو منهجي فيما أخذت نفسي به في شئون أســـهم لها في أمور الدنيا ، فانني أرى أنه من الأحق والآصـــدق أن التزم به في أمور الدين العظيم والكتاب الكريم .

ولذلك كله فانني أرى أن يقترن مشروع طباعة مليون نســـخة من القرآن الكريم الى الساحة الكريمة التي تبلور فيها هـــذا المشروع الجليل فكره ، والجمع الكريم الذي تبناها وراءها .

فليكن مشروع طباعة المليون نسخة من القرآن الكريم ، مشروع المؤتمر العالمي للدعوة الاسلامية بصورة عامة ، واذا كان لابد من التخصيص ، فيكفي أن يضاف الى ذلك ، دورة انعقاده بالخرطوم ويكفيني ذلك شرفا .

وبهذا فان ما جاد به الأكرمون ، وما قد يجودون انما ينبغي أن يكون لهذا المؤتمر فهو صاحب المشروع وليس غيره ، وهو المكلف به دون سواه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

والسلام عليكم ورحمة الله

جعفر محمد نميري
رئيس الجمهورية

٢٦ جمادى الأولى ١٤٠١ هـ .

الموافق أول أبريل ١٩٨١ م .

نص كلمة السيد الرئيس القائد
جعفر محمد نميري

أمام الاجتماع الخامس للمكتب التنفيذي للقيادة المركزية

الخرطوم ٨ ربيع الثاني ١٤٠٥هـ
الموافق ١١ يناير ١٩٨٤م

الأخوة أعضاء المكتب التنفيذى للقيادة المركزية للاتحاد الاشتراكى :

احييكم تحية ثورتكم الخالدة المظفــرة ، واحيى بنــات وأبناء هــذا الوطن العظيم ، والذين أنتظمت صفوفهم بالأمس فى رحــاب اتحــادنا الاشتراكى ، والتقت جموعهم فى ساحاته ، تعبيرا عن عزيمة صــادقة للمضى فى درب الثورة ، وتأكيدا على وقفة ثابتة على المبادىء والأهداف.

احييكم أيها الأخوة ، ونحن نلتقى فى رحاب عام جديد ، تنعقــد فيه عزائمنا على مواصلة الجهاد والمثابرة والتقــدم ، نســتنهض الهمم ونستبق الخطى ، لدفع جهد البناء ونعزز أرادة التغيير ، نجــدد عهدا موثقا ، وعزما مؤكدا ألا تنتكس راية الثورة وألا نتزحزح عن المبــادىء فالثورة التى اختارت ، انما كان اختيارها بالجماهير ، والثورة التى قررت، انما كان قرارها بالجماهير ، هكذا كان تنظيمنا السياسى ، قرارا للجماهير وبالجماهير ، بنت تنظيمها السياسى الرائد من قواعده الى قمته ، أقامت منظماته ومؤسساته وفروعه وأقسامه ومناطقه ، جاهــدت لتجعــل منه ارادة حقيقية للسودان ، وقاعدة أساسية لانطلاقة النهضة فى السودان.

وهكذا كان حكمنا الاقليمى ، اختيارا وطنيا محضا ، اندفعت عبره الجماهير لتبنى وطنها ، وتحقق ارادتها ، وتمارس سلطتها ، حتى غــدت اللامركزية فى السودان مفخرة وطنية وتجربة رائدة عظيمة أخذ منهــا غيرنا ، واستلهم البعض تجربتها وأسلوبها .

وهــكذا كانت وحدتنا الوطنية ، أملا تطلعت اليه القوى الوطنية ، وحلما راودها وهى تعايش الشتات والفرقة فما أصــبح الأمل حقيقــة الا بالثورة وجماهيرها ، وما أضحى الحلم واقعا الا بعزيمة ثوار آمنوا بالوحدة معبرا ، والتوحد غاية ، فكان الجهد المتوج بالنصر ، وكان البذل المكلل بالانتصار . لترفرف فى ربوع الوطن رايات السلام ، ويستبدل الوطن التشتت بالتوحد والتفرق بالتلاقى .

وهكذا كان نهجنا الاسلامى أيها الأخوة وسيكون ، جهادا حقيقيا لاعلاء الارادة الوطنية ، وتحقيق جوهر الحرية ومعناها الأصيل ، فما كان النهج الاسلامى الا عمــلا وطنيا خالصا ، به نعلى قيم الدين الحنيــف ، ونستلهم واقعنا وتراثنا ، ونلتزم بشرع الله لعباده ، وننهض بالمجتمع على عمد راكزة من الأصالة والسمو .

وما كان النهج الاسلامى الا دعوة للعودة الى طريق الحق ، ودعوة للأخذ بأسباب العصر ، فما نحن بدعاة الجمود ولا التحجر ، وما نحن بالذين ينكرون حقائق العصر التى نعايشها ونعيش فيها ، بل نحن بناة دولة لا تغترب عن دينها ، ولا تتنكر لحاضرها . فالنهج الاسلامى بما هو مطروح انما هو ارادة شعب استلهم دينه ، واستوحى واقعه ، وتطلع الى مستقبله ، هو بعث للقيم وأحياء للتراث ونهل من العصر ، هو ثورة ثقافة وحضارة ، تستبدل واقعا وتنظم حياة .

من هنا أيها الأخوة ، فان طريقنا ونهجنا لا يمكن أن يكون رجعة أو ارتدادا بالوطن ، بل هو انطلاقة عظمى نضع بها الوطن على أعتاب التقدم ، ونتمسك فيها بما حققنا وانجزنا ، بناء سياسيا ، سلطة شعبية ، حكما لا مركزيا ووحدة وطنية ، بناء للوطن وتنمية للموارد ، تكاملا مع الأشقاء ، تعاونا مع الأصدقاء ، انفتاحا على الكل بلا حرج ، والاستعانة بالجميع بلا حساسية .

الاخوة أعضاء المكتب التنفيذى :

ان تنظيمنا السياسى بموقعه وواقعه ، هو عماد العمل الوطنى، وركيزة البناء السياسى وهو بميثاقه ونظامه الأساسى ، بوتقة الصهر لبنى الوطن ، والجامعة لقواه وهو بما ارتضت جماهيره وعضويته ، انما هو التنظيم الشامل ، يجمع ولا يفرق ، يوحد ولا يفتت ، يتفاعل مع الحياة ، بل ويقود ركب الحياة .

من هنا أيها الاخوة ، فانه لا ينبغى لتنظيمنا السياسى أن يكون موقعا للجمود ، بل لابد أن يبقىٰ عصب الحركة ومبعث القدرة التى تستند عليها الجماهير وهى تتنادى الى رحابه ، تتفاعل مع شعاراته ، وتندفع لتحقيق غاياته .

ولا ينبغى لتنظيمنا السياسى أن تتأخر خطاه عن الخطى المتقدمة على صعيد الانجاز الوطنى ، بل لابد لها أن تسبق الانجاز ، مبشرة به ، ممهدة له ، مهيئة الطريق وفاتحة للأبواب والقلوب من حوله ، لتندفع الجماهير فى رحاب الانجاز بوعى وادراك والتزام .

ولا ينبغى لتنظيمنا السياسى أن يبقى فى مواقع الانتظار والتردد ، احجاما عن المبادرة أو تقاعسا عن الاقدام ، فهو بالمسئولية صاحب القرار ، بل وأمل القرار ، وهو بالواجب موضع الرقابة على تنفيذ القرار .

ولا ينبغى لتنظيمنا السياسى أيها الاخوة ، أن تقعده أوهام أو شائعات ، عن مواصلة دوره واتصال فعاليته ، فليس العمل السياسى

جهد ساعة أو بعض يوم ، بل هو تفاعل يتصاعد ، وجهد يتواصل بالتزام القيادة والقاعدة ، ويرتقى فيه العمل النضالى الى مصاف الجهاد.

هكذا ينبغى أن يكون تنظيمنا السياسى ، ارادة للتغيير وقيادة له ، تفاعلا ايجابيا مع الانجاز يسبق حتى الانجاز ، نضالا مستمرا للتصاعد لمصلحة الجماهير .

الاخوة أعضاء المكتب التنفيذى :

لقد انقطعت مراحل عظيمة على طريق العمل الوطنى ، أنجزنا خلالها فى برنامج العمل السياسى الذى يلتزم به تنظيمنا السياسى أعظم وأنبل ما نادى به . اذ كان النهج الاسلامى فى أساسه تبشرة من الاتحاد الاشتراكى التزم به رئيسه طريقا فى الولايتين الأولى والثانية ، وأعلنه منهجا وواقعا فى الثالثة من خلال البرنامج السياسى الشامل ، وهو بهذا انما هو الانجاز الأعظم للاتحاد الاشتراكى السودانى ، الذى وعد فانجز، والذى التزم فأوفى .

فما هو النهج الاسلامى ، التزام الاتحاد الاشتراكى فى برنامجه السياسى ، حقيقة يعيشها الوطن ، وواقعا تمارسه الأجهزة والمؤسسات وها نحن اليوم قد قطعنا مرحلة الوعد الى رحاب الواقع . من هنا أيها الاخوة فان النهج الاسلامى ينبغى أن يكون فى موقع القلب من تنظيمنا السياسى ، به يفاخر كانجاز حضارى عظيم له ، وفى سبيله يدافع كالتزام أساسى منه ، بل وفى طريقه يقاتل كل محاولة للاحتواء أو الادعاء عليه .

لقد أكدت أيها الاخوة فى خطابى الى الامة أمسية احتفالنا بذكرى استقلالنا الثامن والعشرين ، ان النهج الاسلامى انما هو عمل سودانى خالص ، لا تملك فئة أن تدعيه ، ولا تملك جماعة أن تحتويه ، وهو فى هذا انما يظل الانجاز الرائع والعظيم لقوى الوطن المتمثلة فى الاتحاد الاشتراكى السودانى . ولقد آثرت بالوضوح والصراحة ، الى اننا سنظل محتكمين الى دستور له المهابة والاحترام ، واننا لا نسمح بازدواج أو تواز لتنظيمنا السياسى أو منظماته وتنظيماته القائمة بالدستور والقانون.

ولئن كان حديثى فى ليلة الاستقلال تأكيدا على مسلمات ، وتأمينا على واقع ، فان الذى جعل من الحديث أمرا مهما ، هو ما شهدته ساحتنا السياسية من شائعات وأوهام ، اطلقها البعض لغرض معلوم ، وعايشها البعض بفروض واهمة . وما كان لذلك أن يحدث فى ظل جهد سياسى حقيقى من تنظيمنا السياسى الذى كاد أن يترك الساحة لمن اغراهم تردد البعض واندهاشة الآخرين ، فتقدموا هم ليملأوا الساحة ، رافعين رايات الادعاء ، وساعين الى الاحتواء .

وما كان لذلك أن يحدث لو تسلم تنظيمنا السياسى زمام المبادرة ، وانطلق بالانجاز داعيـا له ، مبصرا به ، وسـاعيا الى اكسابه روحه الحقيقية ، باعتباره جهدا له ، ووعدا منه ، والتزاما أوفى به .

أيها الاخوة الأعزاء :

انها وقفة مع النفس ونقد للذات أردت بها التـأكيد على موقـع التنظيم السياسى فى حركة العمل الوطنى ، والتأمين على دوره المرجو فى قيادة العمل السياسى . فنحن أيها الاخوة لا نعمل من فراغ ، بل يظـل لمؤسساتنا وأجهزتنا فعاليتها ودورها الرائد ، وهما بفعالية ودور تأكيدا عبر سنوات الثورة ، بحضور رئيس الدولة أو غيابه ، وهما فعالية ودور نجدد بهما أعتزازنا بالأجهزة وتأكيدنا على دور المؤسسات .

الاخوة أعضاء المـكتب التنفيذى :

ان مرحلة دقيقة وهامة يمر بها الوطن وهى مرحلة تسـتدعى من الاتحاد الاشتراكى السودانى يقظة وتأهبا لمواجهة المهام والواجبات . ذلك اننا نتصاعد بالعطاء لوطننا والانجاز لشعبنا وسط عداء يستهدف وحدة الوطن التى بنيناها بالعرق والدم والجهاد . وهو عداء يلتهب كلما مضينا بالوطن صعدا فى درب الانجاز . ولئن كنا بالعزيمة قادرين على مواجهة ذلك العداء ، فـانه ينبغى على كرئيس للاتحـاد الاشـتراكى السودانى ، أن أقف وقفة اجلال واعزاز لأبناء قواتنا المسلحة الباسلة ، والذين ظلوا على المدى يقدمون النموذج الفريد للالتزام والايمان ، والذين استطاعوا أن يصدوا عن الوطن العداء ، وواجهوا كل محاولة لتقويض وحدتنا الوطنية باقدام معهود ، وثبات معروف وبسالة مشهودة .

لقد قدم أبناء قواتنا المسلحة ، شهداء على درب وحدتنا الوطنية، مثلما قدموا الشهداء على درب الثورة . فانضم الى عقد الشهداء نفر جديد من الأوفياء . مهروا وحدة الوطن بالدماء ، مثلما مهر رفاقهم من قبل مسيرة الثورة . فالمجد لشهدائنا فى بوما وملوال والناصر ، المجد لهم نجوما تشع فى علياء الوطن ، وتهدى خطاها على درب الوحدة والاستقرار والسلام .

ولابد لنا فى الاتحاد الاشتراكى السودانى أيها الاخوة ، أن نستلهم تضحيات جندنا وثبات وقفتهم فى سبيل وحدة الوطن وسلامته . فلقد دمج أبناء الجنوب والشمال فى قواتنا المسلحة فى سبيل تأمين وحدتنا الوطنية، فجاءت التضحيات بالحق تعبيرا عن وحدة وطن ، ووحدة هدف ، ووحدة مصـير .

ان اتحـادنا الاشتراكى بمهامه ومسئولياته لمطـالب بجهد عظيم لتعزيز وحدة الوطن وقيادة نضال حقيقى لتعميقها ، ودفع كافة أبنـاء

الوطن الى ساحات العمل الوطنى الرحب اننا مطالبون أكثر من أى وقت مضى الى تنظيم جهد حقيقى ينتظم الوطن كله ، جنوبه قبــل شـــماله ، يتجسد فيه شعارنا السودان أولا وثانيا وثالثا وأخيرا ، ليقود التنظـــيم السياسى فى أطاره حوارا وطنيا يدعم وحدتنا ويعزز استقرارنا ويؤمن للوطن سلامة شعبه وأرضه .

ان جهدا ضخما ينتظر تنظيمنا السياسى بكافة مستوياته وتنظيماته. وهو عمل لابد أن تترجم من خلاله شعارنا المرفوع فى الاعتماد على النفس والاعتداد بالنفس وضبط النفس الى واقع ينهض دليلا على صدقنا فى القول بالعمل .

لابد أن نقبل على واجباتنا التنظيمية بعقل مفتوح وقلب مفتوح .

لابد أن أن ننهض بمسئوليتنا السياسية بادراك لحاجات الساعة، ووعى بمتطلبات الوقت .

لابد أن نواجه بالحسم محـــاولات التقويض والهدم ، متمســـكين بانجاز الثورة ومسلحين بقيم تنظيمنا السياسى وتقاليده .

لابد أن ندعم مسيرة النهج الاسلامى بالتفاف وثيق يحجب عنـــه الاحتواء ويمنع عنه المزايدة .

لابد أن ننطلق بايمان راكز بوحدتنا الوطنيـــة لنزيل عن تربتهـــا الشوائب ، ونقيل عن طريقها العثرات .

لابد أن نستنهض همم قواعدنا وقوانا لنعلى مفاهيم العطاء المتجرد للوطن ، والبذل البعيد عن الغرض ، والمشاركة الفاعلة فى البناء .

لابد أن نستوثق من مواضـع خطونا ، اعتدادا بما أنجزنا ، أعتزازا بما حققنا ، وتأهبا للمزيد من الانجاز فى رحاب الوطن العظيم .

لابد أن نتحفز لمواجهة كافة التحديات ملتزمين بالثـــورة مبـــادىء ، وبالاتحاد الاشتراكى اطارا ، وبالوحدة الوطنية سبيلا ، وبالاسلام نهجـــا وبالعدل والمساواة سلوكا .

لابد أن نزيل للواضعين شتات الأوهام وللحالمين اضغاث الأحلام ، وأن نمضى فى طريقنا ، نبنى عز الوطن بجهادنا ، نعزز الوحدة بنضالنا ، نعلى نهج الاسلام بالتزامنا ، نصنع مجد السودان بعطائنا فما المجـــد الا من صنع الأوفياء الملتزمين .

وما النصر الا من عند الله ..

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » .

(صدق الله العظيم)

ولست أبالى حين اقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

● ● ●

خطاب الرئيس جعفر محمد نميرى

فى الاحتفــــال

بالعيد المئوى لمعركة شيكان

بســم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى فى كتابه الكريم :

« والذين آمنوا وهاجـروا وجاهدوا فى سـبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » .

صــدق الله العظيم

الأخوة المواطنون الثوار الأحرار ..

تحية البطولة لأحفاد الأبطال ، تحية المجد فى أرض المجـد ، ساحة المجد شيكان العظيمة .

تحية هى المجد لكم ولسودانكم ، فما كانت أمجـاد الشـعوب الا تاريخها ، وما كان التاريخ المعطاء لكل الشعوب الا انتصاراته وما كان الانتصار يلهم الا اذا كان دربا يصل المـاضى بالحاضر ليصنع المستقبل .

لقد كانت معركة النصر فى شيكان العظيمة ، اكبر من أن تكون جولة، وأعظم من أن تكون بمعايير النصر احرازا لكسب وتجنبا لهزيمة ، وانمـا كانت بما سبقها وتلاها نقطة التحول العظيم فى بناء الأمة السودانية ، والتى تجمعت مناطق وقبائل وأعراقا وثقافات على صعيد واحد ، رايتها الله أكبر ، شعارها لله الحمد ، غايتها النصر أو الشهادة ، هدفهـا تحرير أرض وبناء أمة وسيادة لدين الله واحتكاما لكتابه .

فما ضلت صفوف الأبطال يوم شيكان عن جوهر دينها ، وما كانت جموع الأبطال يوم شيكان وقبل شيكان الا ايمان بربها وثقة فى قيادتها ، وما أخذت الدين الا بجوهره تسليم لله بغير تواكل ، اعتمادا على الله بغير تخاذل ، جهادا فى سبيل الله عدته المـال والنفس والأهل والولد ، فمـا كان الايمان يقين قلب فحسب ، وانما كان الايمان دافع جهـاد غايته الاستشهاد أو النصر بل الاستشهاد والنصر .

كانت شيكان العظيمة تجمعا للأمة السودانية حول الهـدف ، وتوحد الأمة السودانية حول الغاية ، أن يكون السودان لأهل السودان

كل أهله ، دون تمييز لعرق أو قبيلة أو منطقة أو اقليم ، فما كان أبطال شيكان الا أهل السودان ، ما عرفوا العصبية ولا اعترفوا بها ، ما كانوا للطائفية وانما حربا عليها ، ما كانوا الا لتحرير الأرض ومجد الدين وراية الاسلام مرفوعة فوق كل انتماء .

لقد كانت شيكان العظيمة ، ملحمة بطولة غلبت فيها القوة المؤمنة، القوة القاهرة ، سلاحها وعدتها ، تنظيمها وتشكيلها ما تزودت به من نيران السلاح ، لتبردها وتجمدها نار الايمان ، فكان النصر من الله والله أكبر .

لقد كانت شيكان العظيمة ثقة فى قائد قومى تجمعت له من قـوة ايمانه ، وضوح رؤيته ، يوم تجاوز موطنه فى الشمال ، ليخوض أكبر معاركه فى الغرب ، وليكون مدده موصولا بالسودان كل السودان .

لقد كانت معركة شيكان العظيمة ، وأنتم أحفاد أبطالها ، معـركة القيادة المؤمنة الواعية للامام محمد أحمد المهدى ، والذى ما اغترب عن أهله فى جزيرة لبب فى شمال السودان ، الا لينتصر بأهله فى جبل قدير ، ثم فى الأبيض ، ثم فى شيكان ، ما كان السودان كل السودان الا وطنه ، وما كان أهل السودان على امتداد السودان الا أهله ، ما استعان بعصبية ولا احتمى بصلة رحم ولا جاهد الا بمن آمن بشمول دعوته ، تلك التى تعلو وتتعالى على كل انتماء ، أى انتماء ، الا ذلك الذى حدده الـكتاب الكريم ، انما المؤمنون أخوة .

لقد كانت قيادة الامام محمد أحمد المهدى ، نابعة من دعـوته ، وما الاسلام الا دعوة لوحدة ، وانكار لفرقه ، وادانة لفتنة ، بل وحث على محاربة الفئة الباغية ولو كانت مؤمنة ما دامت تدعو لفرقة أو تعمل لفـرقة ..

لقد كانت قيادة محمد أحمد المهدى ، نابعة من ايمانه بدينه ، وتسليمه لربه ، والتزامه بنهج الاسلام ، والذى ما دعا لعدوان وانما دعا لرد عدوان، ما ترك للسلم بابا الا فتحه ، ولا للوفاق مدخلا الا سهله ، وما فرض القتال على المسلمين وهو كره لهم ، الا دفاعا عن الأرض والعرض والعقيـدة .

هكذا كان محمد أحمد المهدى فى شيكان فى موقف المدافع عن الأرض والعرض والعقيدة فرد الظالمين فارتدوا ، وجاهد البغى فأنهزم البغى ، ولاح نصر الله فى ساعات معدودة ، ليكون النصر لله وللمؤمنين الذين ثبتت قلوبهم على الايمان .

لقد كانت شيكان المعركة قبل الملحمة ، دروس فى شئون القيادة تلك التى يدعمها الايمان ، فما تعجل الامام محمد أحمد المهدى وجنوده ، وانما صابروا وثابروا ، تابعوا العدو وخطواته ، لاحقوا العدو وتقدمه ، ارهقوا العدو بنفسه بعدته رجاله ، بأحماله ودوابه ، فما تقدم العدو فى الطريق الى شيكان الا وسبقه من المجاهدين ما يعوق مساره ، لا ماء ولا كلأ ، لا طعام ولا زاد ، لا راحة ولا استجمام ، كان طريق العدو طريق حرب متصلة ، لا تحسمها مواجهة فاصلة ولا يخمدها قتال يتصل ، وانما هى الحرب كما لا يعرفهـا قائد الحملة ، رغم علم وخبرة ، ومعرفته بالفنون العسكرية .

كانت قيادة الامام المهدى للمعركة ، قيادة عصرية لا بمقاييس زمانها وانما بمقاييس هذا الزمان والذى أصبح فيه القتال علما .

لقد سبق الامام المهدى عصره فى فن الحرب ، فعرف الاستطلاع قبل المواجهة ، وعرف تقدير حجم العدو ونوعية تسليحه ، وعرف الحرب النفسية ضد العدو وكيف يستخدمها وحدد للعدو مساره ، فكانت المعركة كما أرادها المهدى العظيم ، فى مكانها الذى أراده ، وفى موعدها الذى اختـــاره .

لقد حارب مع الامام المهدى جنوده ، تحت راية الايمان ، وتحت راية الاسلام عدتهم الله أكبر ، وشعارهم ولله وحده الحمد على ما ينعم نصرا أو شـــهادة .

لقد حارب مع الامام المهدى وجنوده ، شعب السودان كله ، فعلى طول الطريق الذى قطعته حملة هكس من الخرطوم الى شيكان ، كان كل السودان عيون للامام المهدى تتبعهم ، وعدة للامام المهدى تدعمه ، وانتصار للامام المهدى تفد اليه زرافات ووحدانا .

لقد كانت معركة شيكان العظيمة ، نصر للاسلام وللسودان ، ولوادى النيل كله .

فما كانت ثورة الامام المهدى ، الا صدى لثورة عرابى ، وما كانت دعوة الامام المهدى لافتداء عرابى واستخلاصه من أسره الا دليلا تتصل عبره اصالة الروابط من الحاضر الى المستقبل .

وما كان ما تبقى من جنود عرابى فى حملة هكس ، الا المغلوبين على أمرهم ، بقهر الاستعمار وبطشه ، فما عرف التاريخ ولن يعرف جنودا يساقون لحرب وهم أسرى قيودهم ، يطلقون لمعركة رغم ارادتهم ، يرون فيما يراد لهم مقاتلته رمز خلاصهم .

فما لجأ للامام المهدى فى مختلف مراحل نضاله الا أبناء شمال وادى النيل والذين آمنوا بأن الوطن والرسالة واحدة ، والقيادة واحدة والعدو واحـــد .

الاخوة المواطنون صناع المجد وأحفاد الأبطال :

ان معركة شيكان كملحمة خالدة فى تاريخ بناء الأمة السودانية ، هى مجد ماض والهام حاضر ، ومنارة مستقبل .. هى دلالة على أن الشعوب لا تقهر ، وأن الارادة فوق القوة وأن النصر من عند الله للذين آمنوا وصبروا وصابروا ،فكان جزاؤهم المجد فى الدنيا . والجنة فى الآخرة.

الأخوة المواطنون صناع المجد وأحفاد الأبطال :

نسوف يظل هذا المكان للسودان وتاريخه بل للسودان بتاريخه ، موقعا تستلهمه العزيمة اذا وهنت ، القدرة اذا عجزت ، الصمود كوسيلة لمواجهة المحن والتحديات .

نسوف تظل شيكان المكان والتاريخ والملحمة رمزا لوحدتنا الوطنية ، وراية للأمة السودانية فما انتصر فيها الا السودان كله وما انتصر بها الا الســــودان كله .

لسوف تظل شيكان المكان والتاريخ والملحمة عدة الثوار على أمتداد الاجيال ، ينازلون بها الفرقة حتى تتأكد الوحدة ، يصارعون فيها الشتات ليبقى السودان موحدا ، والأمة السودانية شامخة .

فما كان الامام محمد أحمد المهدى الا ابن السودان كله ، ما قبل للوطن فرقة ولا أرتضى مع الدين تشتت ، فما عرف الطائفية ، وانما ادانها ، ما عرف العرقية وما قبلها ، ما أرتضى الاقليمية وانما حربا عليها ، فكان خليفة من الغرب التعايشى ، وكان من كبار قواده عثمان دقنة من الشرق ، وعبد الرحمن النجومى من الشمال ، وحمد أبو قرجة من كردفان .

وما أختار عاصمة لحكمه الشمال حيث مولده أو الغرب حيث انتصاره ، أو النيل الأبيض حيث بداية التفاف الناس حوله ، وانما أم درمان لتوسطها للسودان شرقه وغربه ، شماله وجنوبه ، وما كانت جيوشه الستة التى حقق بها الانتصار وأقام فى ظلها الدولة ، الا تجمعا لمختلف الأجناس والقبائل ، الذى يضمه السودان الواحد الموحد .

هو الامام محمد أحمد المهدى ، صاحب الانتصار العظيم فى شيكان العظيمة ، وفى غير شيكان الباسلة ، واضع الجذور والأصول للأمة السودانية الموحدة ، والذى ما أرتضى لمجده أن يورث ، وما اختار ولا حتى أشار أن يكون الأمر لبعض أهله ، ذلك أنه بتعاليم دينه وعمق ايمانه

وقومية دعوته ، أن أمر الناس للناس لا يورث ، هو بيعة وشورى ، هو كفاءة تفرض قيادة وتصنع زعامة وغير ذلك لا يكون .

كان الامام محمد أحمد المهدى ، على نهج رسول الله وصحابته ، والذين ما جعلوا أمر الناس الا للناس يولون من يصلح ، تهديهم قناعتهم وخبرتهم ورؤيتهم .

فما كان أمر الناس بعد االرسول صلى الله عليه وسلم الا ابى بكر والذى أجمع الناس عليهم اختيارا وشورى ، وما كان أمر الناس بعده ، الا لابن الخطاب لموقعه فى الاسلام دعوة وبداية دولة ، وما أرتضى عمر ابن الخطاب أن يكون لعبد الله بن عمر فى أمر الناس شيئا من بعده ، وما أختار الناس عليـــا قبل عثمان رغم صلة الدم وصلة النسب بالرسول الكريم .

هذا هو الاسلام نهجه ، هذا هو الاسلام تراث السلف ونهج السلف، والذى استرشد به الامام محمد أحمد المهدى ، فما كان خلفه من ذوى قرباه ، وانما كان ذلك الذى اعطى وجاهد واجتهد وحارب وانتصر فى سبيل نصرة الحق ودين الحق ومجد الاسلام .

ووحدة السودان ، الخليفة عبد الله التعايشى .

الاخوة المواطنون أحفاد الابطال صناع المجد :

هو يوم يأتى الاحتفال به ، ونحن على مشارف التحويل العظيم نحو النهج الكريم ، النهج الاسلامى ، شرعه وشريعته ، نحتكم لله وكتابه ، نحذو حذو الرســـول ونهجه ، نأخذ بالاسلام ونصـــه وقيمه ومبادئه واخلاقياته ، نسبق بالرحمة العقاب ، ندرأ الحدود بالشبهات ، نستبين الحق من الضلال ، نستخلص التوبة خلاصا للتائب ، والصفح ممن يملك الصفح والمغفرة نطلبها لأنفسنا من الله رب العالمين .

لا نأخذ الناس بالشبهات ، لا نرهن الناس فى دينهم ، لا يتجسس ولا نغتاب ، نقترض من الناس الحسنة ، أما السيئة فأمرها لله مادامت باطنة ، وأمرها للقانون اذا ما ظهرت وأضرت .

لا ندعى لأنفسنا على الناس وصاية ، لا نتسلط باسم الدين ، ولا نتشدد اظهارا لتقوى ، فكل نفس بما عملت رهينة ، وكل معلق بطائر فى عنقه ، وليس للناس منأمر الناس الا قول معروف وموعظة حسنة .

لا نتفرق فى الدين الا وحدة ، ولا نتعصب فى الدين فلكل شرعته ومنهاجه ، لا تمايز بين الناس لونهم أو عرقهم أو ثقافتهم ، فالوطن لأهله ، والدين لله رب العالمين .

ننشد الالتزام بالدين قناعة ، حيث لا الزام فى الدين ولا اكراه عليه .

نستلهم الاسلام ما أمر ، وما أمر الاسلام الناس ، الا صلاحـــا فى دنياهم وآخرتهم ، وما صلاح الناس فى الدنيا الا ما أمر الاسلام به ، عون للمحتاج ، وسند للضعيف ، ورعاية لليتيم وذوى الحاجة والقربى .

الا نتكاسل عن عمـــل ، والا نتواكل على جهـــد غيرنا ، أن نصيب من الدنيا ما يكافىء جهدنا فيها ، فكل ما نناله فى شرع الاسلام بغير جهد انما هو حق مغتصب ، ألا نهمل أرضا تزرع ، ولا ماء يجرى ، ولا ثروة تهدر ، أن نتقى اله فى خيرات الله ، لا نهجرها أو نهملها حتى تكون خيرا لعباد الله ولأنفسنا .

أن نكون ما أمرنا الاسلام به ، ألا نستحل ما لا حق لنا فيه ، ولا حق فى أجر بغير عمل ، ولا حق فى عائد بغير جهد ولا حق لأب دون رعاية ولده ،ولازوج دون أنفاق على زوجه ، ولا مكانة لمن يأخذ ولا يعطى .

فليكن امرنا بالاسلام ما أمر الاسلام ، ألا ننهى عن معصية لا ننتهى عنها ، ولا نأمر بمعروف لا نلتزم به ، لا ننصح بصدق ونحسن بكذب ، لا نأمر بعدل ونحن نظلم ، تلك آية النفاق يدينها الاسلام ويرفضها .

أننا على طريق النهج الاسلامى أيها الاخوة غاياتنا قناعة الناس لا أرهابهم بالدين ، تكافل الناس وتواصلهم وتراحمهم وعونهم ، ذلك الى الاسلام أقرب وبالدين أصلح .

الاخوة المواطنون أحفاد الابطال صناع المجد :

أن سودان مايو هو سودان الأصالة لا يغترب عن تراثه وانمـــا يحتفل بأمجاده ، لا ينكر الحاضر تشبثا بالمـــاضى ، لا يهمل المستقبل استغراقا فيما كان .

وانما الأصالة فى سودان مايو ، أن تكون جذورنا قاعدة لانطلاقنا ، أن يكون تراثنا ملهما لحاضرنا ، أن نصوغ امجاد ماضينا دوافع صنع أمجاد مستقبلنا ، أن يكون الدين للحياة لا يخاصمها للتحديث والعلم ، فما كان الاسلام الا دعوة متصلة للفكر والتأمل ، فلا خصومة مع العلم باسم الدين ، ولا انكار للعصر باسم التراث ، ولا حجر على اجتهاد ، ولا تجريح لرأى ، ولا تأثيم لفكر ، ما دام فى رحاب الايمان بالله والوطن وفى اطار الدستور والقانون .

ان سودان مايو ، وقد ظلت دعوته للأصالة مواكبه لحركة تقدمه ،

سوف يكون بالاسلام أقدر على مزيد من التحديث والمعاصرة ، تنطلق مسيرتنا على طريق غاياتنا ، معصومين بالاسلام من الزلل والكبوات .

طريق الايمان طريقنا ، طريق الاسلام نهجنا الاحترام لكل دين منهجنا ، هو الناس كل الناس سواء لا تمييز بينهم ولا تمايز .

أن الانتصار للدين ليس مجرد منكر ننكره ومعروف ندعو اليه ، وانما هو عمل صالح ، وما العمل الصالح الا ما ينفع الناس .

فلتكونوا بدينكم ما أمر دينكم .. أن تصلحوا أمر أنفسكم ، أن تشاركوا فى بناء وطنكم ، أن تدعموا مؤسسات للحكم الاقليمى ، أصبحت السلطة فى ظلها لكم ، أن تعمروا أرضكم أن لا تهملوا ثرواتكم ، أن تتقوا الله فيما أنعم عليكم ، عافية وصحة هى للانتاج والعمل قدره وقوة ، هى للبناء والتعمير ، عزيمة وارادة ، هى لرفع رايات السودان تأكيـــدا لمجده حماية لسيادته ، حرصا على وحدته ، وما الجهاد فى سبيل الله الا نصرة لعباده ، ضد من يبدأهم بعداوة ، او يهددهم بفتنة ، أو يعمل على تفرقة كلمتهم ، ويشتت شملهم .

الاخوة المواطنون أحفاد الابطال صناع المجد :

فلتكن راية المجد فى شيكان خفاقة أبدا .. ولتكن راية النصر فى شيكان عالية دائمة .. بل وليكن مجد شيكان ونصر شيكان مجدا للسودان عزته وكرامته وسيادته ، بنائه وتعميره وتقدمه ، ليكون السودان بعطائه انتصارا لدين الله ، والتزاما بكريم آياته ..

﴿ وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

صدق الله العظيم ..

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ..

القوانين الإسلامية

القــوانين الاسلامية

١ ــ قانون الاجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣

٢ ــ قانون المحــاماه لسنة ١٩٨٣

٣ ــ قانون مجلس القضاء العالى لسنة ١٩٨٣

٤ ــ قانون الاثبات لسنة ١٩٨٣

٥ ــ قانون أصول الأحكام القضائية لسنة ١٩٨٣

٦ ــ قانون النائب العام لسنة ١٩٨٣

٧ ــ قانون حركة المرور لسنة ١٩٨٣

٨ ــ قانون الاجراءات المدنية لسنة ١٩٨٣

٩ ــ قانون العقوبات لسنة ١٩٨٣

١٠ ــ قانون الزكاة والضرائب لسنة ١٩٨٤

١١ ــ قانون المعاملات المدنية لسنة ١٩٨٤

عملا بأحــكام المــادة ١٠٦ من الدستور أصدر السيد رئيس الجمهورية الأوامر المؤقتة التالية وتشمل القوانين :

١ ــ قانون العقوبات لسنة ١٩٨٣ صدر بتاريخ ١٩٨٣/٩/٨

وقد الغى هذا القانون اثنين من القوانين الســابقة وهى قانون العقوبات لسند ١٩٧٤ وقانون مكافحة البغاء لسنة ١٩٧٦ ٠

٢ ــ قانون الاجراءات المدنية لسنة ١٩٨٣ ٠

صدر هذا القانون بتاريخ ١٩٨٣/٨/١٨

وقد ألغى هذ االقانون القانون السابق ـ قانون الاجراءات المدنية لسنة ١٩٧٤ .

٣ ـ قانون المعاملات المدنية لسنة ١٩٨٤ .

صدر بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٨٤ .

وقد ألغى هذا القانون القوانين الآتية :

١ ـ قانون تقييد تصرف السودانيين فى الأراضى لسنة ١٩١٨

٢ ـ قانون التصرف فى أراضى المدن والقرى غير المأهولة لسنة ١٩٢٢

٣ ـ قانون استرداد الأموال الضائعة والمسروقة لسنة ١٩٢٤

٤ ـ قانون الشفعة لسنة ١٩٢٨

٥ ـ قانون التقادم المكسب للملكية والتقادم المسقط لها لسنة ١٩٢٨

٦ ـ قانون الأراضى غير المسجلة لسنة ١٩٧٠

٧ ـ قانون تقييد الايجارات لسنة ١٩٨٢

٨ ـ قانون البيع لسنة ١٩٧٤

٩ ـ قانون الوكالة لسنة ١٩٧٤

١٠ ـ قانون العقود لسنة ١٩٧٤

١١ ـ القسم الخامس من قانون تسوية .

الأراضى وتسجيلها لسنة ١٩٢٥ .

٤ ـ قانون الزكاة والضرائب لسنة ١٩٨٤صدربتاريخ ١٩٨٤/٣/٤

وقد تم بموجب هذا القانون الغاء عدد من القوانين وعددها (٢٠) . قانونا وهى :

١ ـ قانون ضريبة المبانى لسنة ١٩١٨

٢ ـ قانون ضريبة الأراضى المطرية التسور لسنة ١٩٢٤

٣ ـ قانون ضريبة الحيوانات لسنة ١٩٢٤

٤ ـ قانون ضريبة الأراضى واشجار النخيل لسنة ١٩٢٥

٥ ـ قانون العوائد الجليلة لسنة ١٩٢٩

٦ — القسم الثالث والمــادة ٤١ من قانون رخص التجار وضريبة أرباح الأعمال لسنة ١٩٣٠ .

٧ — قانون ضريبة الملاهى لسنة ١٩٥٦

٨ — قانون رسوم التركيز لسنة ١٩٦١

٩ — قانون ضريبة الدخل لسنة ١٩٧١

١٠ — قانون رسوم الدمغة لسنة ١٩٧٢

١١ — قانون ضريبة الأرباح الرأسمالية لسنة ١٩٧٤

١٢ — قانون الصندوق القومى لمــال تركيز الأسعار لسنة ١٩٧٤

١٣ — قانون ضريبة التنمية لسنة ١٩٧٤

١٤ — قانون ضريبة التنمية المفروضة على الدخل لسنة ١٩٧٦

١٥ — قانون ضريبة الدفاع لسنة ١٩٧٩

١٦ — قانون ضريبة المبيعات لسنة ١٩٨٠

١٧ — قانون صندوق الزكاة لسنة ١٩٨٠

١٨ — قانون الرسم الاضافى لسنة ١٩٨١

١٩ — قانون اعتماد الضرائب لمجالس المناطق لسنة ١٩٨٢

٢٠ — قانون رسوم الانتاج والاستهلاك لسنة ١٩٨٣

٥ — قانون النائب العام لسنة ١٩٨٣

صدر بتاريخ ١٩٨٣/٩/٨ وقد ألغى القانون السابق قانون النائب العام لسنة ١٩٨١

٦ — قانون حركة المرور لسنة ١٩٨٣ .

وقد الغى هذا القانون ، القــانون السابق قانون حــركة المــرور لسنة ١٩٦٢ وقانون تغيير حركة المرور ليمين الطريق لسنة ١٩٧٣

٧ — قانون أصول الأحكام القضائية لسنة ١٩٨٣ صدر بتــاريخ ١٩٨٣/٩/٢٨

٨ — قانون الاثبات لسنة ١٩٨٣

صدر بتاريخ ١٩٨٣/١٠/٦ ويطبق القانون على الاثبات فى المعاملات والمسائل الجنائية .

٩ ــ قانون مجلس القضاء العالى لسنة ١٩٨٣

صدر بتاريخ ١٩٨٣/٩/٨

وقد الغى هذا القانون ، قانون مجلس القضاء العالى لسنة ١٩٧٦ .

١٠ ــ قانون المحاماة لسنة ١٩٨٣

صدر بتاريخ ١٩٨٣/٨/٢٥

وقد ألغى هذا القانون ، القانون السابق قانون المحاماة لسنة ١٩٧٠

١١ ــ قانون الاجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣ صدر بتاريخ ١٩٨٣/٨/٨ .

وقد ألغى هذا القانون ، القانون السابق قانون الاجراءات الجنائية لسنة ١٩٧٤

١٢ ــ قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لسنة ١٩٨٣ صدر فى ١٩٨٣/١١/٣ وقد اشتمل على الأمور التى يجوز فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والكيفية والأشخاص الذين يجوز لهم الأمر بالمعروف وتكوين جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

● ● ●

بعض ماجاء في خطاب السيد رئيس الجمهورية

جعفر محمد نميري

الذي ألقاه في الجلسة الافتتاحية

لدورة الانعقاد الثالثة

لمجلس الشعب الخامس حول المنهج الإسلامي

بأم درمان

٧ نوفمبر ١٩٨٣م

الاخوة المواطنون اعضاء مجلس الشعب الموقر :

لقد شهدت الفترة بين دورتى انعقاد مجلسكم نشاطا مكثفا استهدف العمل على تحقيق ما التزمت به أمام الشعب فى الولاية الجديدة من المهام والأهداف الوطنية الكبرى التى حددها البرنامج السياسى الشامل ، والذى تبلورت فيه الاستراتيجيات والخطط والبرامج للعمل الوطنى فى الولاية الثالثة ، وهو برنامج أتى معبرا عن ارادة الثورة والأمة وجاء استكمالا لمهام الثورة التاريخية ومواصلة لبرامج واستراتيجيات العمل الوطنى منذ تفجير ثورة الخامس والعشرين من مايو .

ولقد قطعت العهد أمام مجلسكم هذا وفى بداية مشوار الولاية الثالثة ان اعلى مدى الرسالة وان أجمع القلوب على لباب الدين وجوهر العقيدة معتصمين بالسماحة والاعتدال واليسر وكان هذا العهد وفاء لجماهير الشعب التى صاغت البرنامج السياسى الشامل .

وكما كان البرنامج السياسى الشامل ، ارادة للجماهير تقننت عبر المؤتمر القومى الرابع للاتحاد الاشتراكى السودانى ، فانه كان وعدا وعهدا قطعته أمام مجلسكم الموقر فى حفل التنصيب للولاية الجديدة فى الرابع والعشرين من مايو الماضى ، وهكذا اكتسب البرنامج السياسى الشامل وشرعيته ودستوريته بالاستفتاء عليه كبرنامج ملزم فى الولاية الجديدة .

ولذلك فلم تكن صدفة أن تكون أولى انجازات الولاية الجديدة طرح وتنفيذ استراتيجية العدالة الناجزة ، فى اطار التجسيد للنهج الاسلامى كما طرحه البرنامج السياسى الشامل .

ان الالتزام بالنهج الاسلامى وان تحددت معالمه مع بدايات الولاية الثالثة ، الا أنه فى حقيقته عطاء ثورة تدرجت وما تمهلت منذ تفجيرها فى الوصول اليه كهدف وغاية ، فما كان الاسلام الا دعوة توحيد ووحدة ، لا يتفرق الناس فى ظلها ، ولا تتشتت الارادة فى اطارها ولا فرقة فى الدين ولا تفرقة بالدين .

لقد كانت الثورة الى الدين أقرب ، يوم حققت الوحدة الوطنية يوم أطاحت بالطائفية ، يوم أدانت تعدد الرايات والولاءات ليكون السودان بأهله لا يتفرقون لفتنة ، ولا يتصارعون بفتنة ، حيث الفتنة فى الاسلام أشد من القتل وهى الى الافساد فى الأرض أقرب .

لقد كانت الثورة الى الدين أقرب ، يوم صارعت الالحاد فصرعتـــه
وناطحت الاغتراب الفكرى بالاصالة ، وجسدت الانتماء للأرض أعزازا
واعتزازا بالذات .

لقد كانت الثورة للدين أقرب ، يوم جعلت أمر الناس للناس شورى،
لا يتولى أمرهم الا أنفسهم ، ولا تقود مسيرتهم الا ارادتهم ، ولا يصوغ
انجازهم الا تطلعاتهم وحقهم المشروع فى اقتسام السلطة والثورة ، فكانت
المؤسسات الدستورية والتنفيذية ، وكان الحـــكم الاقليمى والحـــكم
الشعبى المحلى .

ولقد كانت الثورة الى الدين أقرب ، يوم صارعت الالحاد فصرعته
وغالبت الاغتراب الفكرى فغلبته ، لترتفع رايات الاصـــالة والانتمـــاء
للأرض والاعتزاز بالتراث .

ولقد كانت الثورة الى الدين أقرب ، يوم انحازت لمـــا ينفع الناس
اختيارا للأصعب ، وهجرانا للأيسر ، فكانت مشروعات التنمية الأساسية
سابقة على مشروعات الانتاج السريع والعائد العاجل .

هكذا كانت الثورة الى الدين أقرب ، يوم أقر دستور البـــلاد
((**ان الدين الاسلام ويهتدى المجتمع بهدى الاسلام دين الغالبية وتسعى**
الدولة للتعبير عن قيمه)) وكانت الثورة للدين أقرب ، يوم نص الدستور
على أن تعامل الدولة معتنقى الديانات السماوية وأصحاب كريم المعتقدات
الروحية دون ما تمييز بينهم تمسكا بسماحة الدين وفرائضه .

وهكذا عملت الثورة على مضاعفة الجهد تحريرا للكنيسة السودانية
من الهيمنة الأجنبية ، وليشهد عام ١٩٧٤ أول مطران سودانى فى مدينة
جوبا وليشهد عام ١٩٧٥ سودنة رئاسة الكنائس الكاثوليكية ، وليتصل
الجهد ويتواصل لاتمام سودنة جميع الكنائس والأرســـاليات وتأهيـــل
القساوسة السودانيين .

ان الثورة تدرجا على درب النهج الاسلامى ، انما استلهمت مبادىء
وقيم الاسلام ، تسامحه وسماحته لا تسلط ولا تعصب ، ولا فرقة ولا اكراه
فى الدين ، ولا تفرقة بين الناس لعقيدة أو جنس أو عرق لا انتقـــاص
من حقوق المرأة التى كرمها الاسلام وانما المزيد من الحرص والتأكيـــد
على ما يصون كرامتها ودورها المشروع فى الحياة والأسرة .

ان الثورة تدرجا على درب النهج الاسلامى انما اختارت أن تكون
للنهج الاسلامى للمجتمع الاسلامى ترسى قواعده وتقيم ركائزه ، هـــكذا

سبقت القوانين الاسلامية اعادة النظر فى القـوانين الوضـعية حتى لا تتعارض مع الشريعة الاسلامية ، هكذا شهد السودان بل قاد السودان حركة للصحوة الاسلامية المستنيرة بما طرحه فكرا ومارسه عملا وأرساه قواعد ومبادىء شهد لها العالم واستشهد بها المسلمون فى كل أرض .

هكذا تسابق الجهد الرسمى مع الجهد الشعبى فى اقامة المساجد ، حيث أعفيت وبغير استثناء من تكاليف المياه والانارة ، لتكون المساجد فى كل قرية من قرى السودان درة مضيئة فى الليل والنهار . وهـكذا ارتفع صوت المؤذن لتسمعه كل الآذان فى العاصمة والأقاليم .

هكذا تكثف الجهد الرسمى مع الجهد الشعبى فى احياء نور القـرآن الكريم ، ولتتولى الدولة وبرعاية رئيس الجمهورية المهرجان السـنوى لمسابقات حفظ الكتاب .

هكذا استبان للسودان دوره فى مجال الدعوة الاسلامية ليكون فى رحابه المركز الاسلامى الأفريقى والمركز الدولى لتعليم العربية لغـة القرآن لغير الناطقين بها . ولتكون جامعة أم درمان الاسلامية منـارة يتواصل عطاؤها للسودان وللعالم باسم الاسلام وانتصارا له ، وليواصل المعهد العلمى دوره ، ولتتجمع فى السودان غير مرة مؤتمرات اقليمية ودولية وتجمعات لعلماء المسلمين يبحثون فى أمر الاسلام والدعوة .

الا أن ذلك كله ، كان قبل ومعه ، تدرج صاغته سنوات الصـبر والمثابرة ، تلك التى شهدت القضاء على كل ما يتنافى مع الاسلام وقيمه ، فكانت قرارات حظر البغاء ، والمراهنات الرياضية ، وتحريم اقامة محلات بيع الخمر قرب المساجد والمدارس ، واغلاق الحانات والمطاعم خـلال شهر رمضان المبارك ثم التزام القيادة بما تفرضـه عليها مواصـفات القدوة ، حيث صدر منشور القيادة الرشيدة ، اضافة الى جهد فـكرى شارك فيه كل من استطاع بما استطاع تبشيرا بالنهج الاسلامى وتمهيدا لتجسـيده .

الأخوة المواطنون أعضاء مجلس الشعب الموقر ..

ان النهج الاسلامى كالتزام صاغه البرنامج السياسى الشـامل وجسده التدرج ، لا يمكن أن تقف غاياته عند حدود صدور القـوانين الاسلامية وتطبيقها ، تلك مجرد خطوات على الطريق ، ذلك أن النهج الاسلامى قناعة والتزام تستوحى الضمير وتستلهمه قبل أن يكون ردع القانون وزواجره ، حتى تكون صلة الناس بالناس كما أمر الاسـلام صلة مودة ورحمة ، وتكافل وتضامن صلة اتحاد على الحـق وانكار للباطل ، وابتعاد عن التسلط والاكراه والمزايدة ، صلة نبذ للكسـل والتواكل ، صلة تعايش فى رحاب الاسلام السمحة مهما اختلفت الأديان

والمعتقدات . الناس يظلهم الاحترام المتبادل والحماية التى يفرضـها الدستور لكل الأديان وكريم المعتقدات ، لا تفرقة بالدين ولا فرقة فى ظله، لا انقسام بالدين وانما وحدة فى اطاره فما كان دين الله فى الاسلام الا توحيدا ووحدة ، وهو فى المسيحية سلام ومحبة ، وما السودان الا للسودانيين كل السودانيين باختلاف معتقداتهم .

عهدى لكم أيها الاخوة ، أن يظل موقعى بينكم حاميا للوحدة الوطنية ، أصونها وأدفع عنها ما يهددها ذلك واجبى الأول الذى فرضه على الدستور وحدده الى الشعب .

ان العدالة الناجزة وقد ارتكزت على النهج الاسلامى انما هى للعدل والتسامح ، انما هى لحماية المجتمع والفرد جميعا ، هى للمجتمع بضمانات أمنه ، وهى للفرد بحمايته من شرور نفسه ، هى للعدل فى حينه ، هى للحق لصاحب الحق لا تهدره ولا تماطل فيه ، هى التعويض العادل والحماية المشروعة للحق العام والخاص ، هى عين بعين وسن بسن ونفس بنفس الا بتوبة مقبولة مقرونة بعفو لا يملكه الا صاحب الحق فيه .

ان العدالة الناجزة ، وقد ارتكزت على النهج الاسلامى ، انما هى التزام بحدود الله ، وما حدود الله سبحانه وتعالى ، الا ما أمر ونهى فضلا ورحمة بعباده .

● ● ●

بســـــم الله الرحمن الرحيم

امر قيــادى رقم (١)
للقـــوات النظامية

الى الضباط وضباط الصف والجنود ..

لقد صدر عدد من القوانين التى التزمت بالنهج الاسلامى والشريعة الاسلامية والالتزام بحدود الله ، ولقد جاء ذلك بعد تمهيـــد امتـــد من مشارف الولاية الثانية الى مشارف الولاية الثالثة .

حيث سبق وضع القوانين الاســـلامية طرحا للفـــكر الاســـلامى وتطويعا للقوانين الوظيفية حتى لا تتعارض مع النهج الاسلامى روحه ونصه ، بالاضافة الى التزام القيادة ما وسعها الى ذلك سبيلا بمواصفات القيادة الرشيدة ، والتى هى أقرب الى ما أمر الله وحكم .

وبصدور القوانين الاسلامية ، ما نص منها صراحة على الالتزام بالحدود كما هو الحال بالنسبة لقانون الاجـــراءات الجنائيـــة وقانون العقوبات ، وما استرشد منها بالنهج الاسلامى كقانون الحركة وقانون الاجراءات المدنية فان ذلك يعنى نهاية مرحلة التبشير بالنهج الاســـلامى وبداية مرحلة التطبيق للتشريع الاسلامى .

واذا كانت مرحلة التمهيد والتبشير لا تتطلب غـــير وعى النـــاس وقناعتهم ، فان مرحلة التطبيق والتى يقع جانب من مسئوليتها عليكم ، انما هى الوســـيلة التى تتأكد بها القاعدة ، ويتحول من خـــلالها الوعى الى ممارسة ، والفكر الى تطبيق .

ان جوهر التشريع الاسلامى كما جاء فى حـــدود الله وبنص كتابه وكما التزمنا به فى القوانين الاسلامية الجديدة ، لا تســـتهدف من الفـــرد نفسه مهما بلغ جرمه ، وانما تستهدف الردع لغيره طلبهـــا القصـــاص منه ، فعادات القتل رغم بشاعته بالعفو اذا منح وبالمـــال اذا طلب ، ثم جعلت النفس بالنفس مع عفو مرفوع ، ومال مرفوض .

تلك هى شريعة الله آمنا بها والتزمنا ، وهى نفسها ما استوحيناه فى ذات القوانين ، حرصا على المال الخاص والعام الا يهدر ، الحق العام او الخاص الا يضيع ، فكانت قوانين قطع اليد للسارق والقطع من خـــلاف

خــوف ، وطمأنينة بعد روع ، وامساكا عمــا يفسد فى النــاس أموالهم وممتلكاتهم ، والجلد لمن لا يسيىء لنفسه وانما يسيىء لغيره عندما يغيب وعيه بتأثير الخمر ، والرجم لمن يعتدى على الحرمات وهو محصن .

تلك شريعة الله ، أراد بها سبحانه الا أن تكون للناس أمنا بعــد خوف ، وطمأنينة بعد روع ، وامســاك عمــا يفسد فى النــاس أموالهم وحرماتهم .

ان التشريع الجديد والملتزم بشرع الله وحدوده ، كما هو قصاص من مذنب أقر بذنبه ، أو بينة عليه لا شبهة فيها ، فهو للناس كل الناس ترويعا لنوازع الشر فيهم ، حتى لا تظهر ، تبشيرا يقيم الطهر والجنــة والفضيلة حتى تسود .

ولذلك فلقد كان عدلا نزين للناس شرا نمنعهم عنه ، أو ننهى الناس عن باطل دون أن نحميهم منه .

لذلك صدرت قرارات منع الخمر واغلاق مصانعه ومنافذ توزيعه ، الا أن هذه الخطوة رغم أهميتها لا تغنى عن دور للقوات النظامية ألخص أبعاده على النحو التالى :

أولا : ان القوات النظامية الى جانب التزامها بتطبيق القــانون ومسئوليتها عن نفاذه ، فانها مطالبة الى جانب الامتثــال للأوامر الى القناعة الذاتية بجوهر القوانين الاسلامية وقداسة مصادرها .

وذلك يتطلب من قيادتها وعلى كل المستويات القيام بواجب التوعية داخــل صفوفها .

ثانيا : ان القوات النظامية فى مجال مسئوليتها عن فرض ســيادة القوانين الاسلامية انما هى مطالبة بالتركيز على القضاء على مظــاهر مخالفتها اهتمامها بعدم افلات الخارجين عليها .

ثالثا : ان القوات النظامية والمسئولة عن فرض سيادة وهيبــة القوانين الاسلامية لمطالبة بابتداع الجديد من الوسائل فى تنفيذ مهمتها ، ذلك أنها ستواجه ممنوعا كان مشروعا ، ومرفوضــا كان مألوفا بل انها ستواجه ما اعتاد بعض الناس أن يمارسه ، زهوا ، فاذا به وفى ظــل القوانين الاسلامية الجديدة محرم شرعا ، ومجرم قانونا لذلك فان على القوات النظامية أن تتوقع أساليب جديدة فى الخروج على القــوانين أو التحايل عليها ، وعليها أن تتسلح بأساليب جديدة فى مواجهتها .

رابعا : ان القوانين الاسلامية الجديدة والمستمدة من الشريعة السمحة ، انما هى الردع والرحمة بالاضافة الى انها العدل الذى أمر الله الناس به .

فلا شبهة بلا بينة ، ولا أخذ للناس بالظنون ولا ميل مع الهوى ، ولا اتهام بغير دليل ولا انتهاك لحرمة بيوت الناس ، ولا قسوة معاملة وذلك بالاحتكام للقانون واجراءاته .

خامسا : ان القوانين الاسلامية الجديدة ، والتى استوحيناها من الشرع الحنيف وحدود الله ، انما صنفت الجرم ، الى ما يكفى بعضه اعلان التنويه عنه حتى يسقط ، أو ملاحقة العفو له حتى يزول ، أو قبول العوض فيه بما يسقط العقوبة عنه ، الا أن هناك من الجرم ما لا شفاعة فيه بعفو ، ولا مخرج من العقوبة عليه بتوبة من ذلك ما يروع الناس أمنهم ، ويهدد فى الناس طمأنينتهم ، ويهدد فى الناس أموالهم ومصالحهم كالنهب المسلح على سبيل المثال .

وهنا فان على القوات النظامية أن تعى الفارق بين ما يجوز التسامح فيه برضا أطراف الخصومة وبين ما لا يجوز التفريط فيه طرف الخصومة المعتدى عليه .

سادسا : ان القوات النظامية والمسئولة عن الحفاظ على هيبة القوانين الاسلامية وجدية نفاذها ، عليها واجب الملاحقة للبدائل المحتملة وخاصة المخيفة منها والمستترة .

من ذلك على سبيل المثال ، تقطير الخمر وتوزيعه سرا ، والميسر وممارسته بغير علانية .

ذلك ان الهدف من القوانين الاسلامية هى بعث المجتمع الطاهر ، والذى يكون طاهرا اذا ما كان ظاهره غير باطنه .

سابعا : ان القوات النظامية وهى المسئولة عن تطبيق القوانين الاسلامية الجديدة ، عليهاأن‌تعى أنها طرف مسئول عن تقدم الدليل واقامة البينة فاذا اجتهدت كانت للعدل سندا ، واذا قصرت ربما أدانت مظلوما أو أدانت مجرما .

ثامنا : ان القوات النظامية المسئولة عن تطبيق القوانين الجديدة، سوف تواجه تحركات نشطة فى مجال التهريب وخاصة تهريب الخمور ، ذلك أن الاغراء فى هذا المجال سوف يظل لبعض الوقت غلابا وفى هذا المجال فاننى لا أتوقع من القوات النظامية كفاءة الأداء وحدها ، وانما أمانة الأداء أيضا ، حتى لا يسقط حتى أقل القليل من أفرادها ضحية الاغراء والاغواء .

ذلك يكون خروجا على الدين وشريعته ، ذلك يكون خروجا على القانون طبعا .

تاسعا : ان نظرة جديدة لقواتنا النظامية العاملة فى السجون لابد أن تسود ، وان تطلب الأمر اعادة النظر فى لوائح وقوانين ونظام استقرت لعهود طويلة ، ذلك أن السجن فى ظل القوانين الاسلامية الجديدة ، لا ينبغى أن يكون مكافأة لمن أخطأ وعلى حساب من أخطأ فى حقهم ، هو فى اقل القليل مطالب بعطاء من جهده ووقته لتطهير نفسه فى المقام الأول ، هو فى أقل القليل مطالب بأن يكفى من عائد عمله داخل السجن ما يشبع احتياجاته بل هو مطالب بأن ينتج ما يفيض عن احتياجاته وهذا كله يتطلب من القائمين على السجون اعداد دراسة عاجلة لتطوير نظم السجون ولوائحها ومناشط النزلاء فيها .

اضافة الى أن السجون لا ينبغى أن تظل ما نعرف ، ما هو مسموح فى داخلها ممنوع فى خارجها بحكم القانون ، ذلك وضع ينبغى أن ينهى وعلى الفور .

عاشرا : أن القوات النظامية المسئولة عن فرض سيادة القوانين الاسلامية الجديدة ، عليها أن تراجع وفى اطار هذه القوانين مفهومها عن التهريب باعتباره تخريبا اقتصاديا ، الى حقيقته كخروج على شرع الله وبما يضر عباده ، كما أن عليها أن تتأهب لمضاعفات قرار منع تصنيع الخمور وتوزيعها ، وهى مضاعفات من الممكن أن ينشط التهريب الى الخارج معها كمدخل لتهريب الخمور الى الداخل فى مقابلها وتلك جريمة مزدوجة وفرت لها القوانين الاسلامية الجديدة ردع العقاب ، وعلى القوات النظامية أن تكثف من جهدها وتطوع وتنوع من وسائلها لايقاف التهريب وعقاب القائمين عليه مهما كانت سطوتهم .

الاخوة الضباط وضباط الصف والجنود .

ذلك ما هدانا الله وامتثلنا له ، ذلك ما أمرنا به الله فاطعنا ، ذلك سبيل الرشد والهدى ، وماولى الأمر الا للرشد والهدى اذا ابتغى وجه ربه ..

وكلكم فى مواقعكم تتولون من الناس أمورهم حراس أمنهم ، وحصون طمأنينتهم ، وضمان أرواحهم وأموالهم وأعراضهم .

والله الموفق

مشير جعفر محمد نميرى
رئيس الجمهورية والقائد العام لقوات الشعب المسلحة

بيان الرئيس جعفر نميري

يوم ٣٠ من ذى القعدة ١٤٠٣هـ - ٨/٩/١٩٨٣م

استكمال الثورة القضائية الشاملة لتحقيق العدالة الناجزة

مراجعة قانون العقوبات بما يحقق الأمن والعدالة للمواطنين

وتعديل قانون مجلس القضاء الأعلى

تنشر الصحافة فيما يلى البيان الصحفى الذى قدم به السيد رئيس الجمهورية قانونى العقوبات ومجلس القضاء العالى فى اطـار الثـورة القضائية التى قادها لتيسير سبل العدالة الناجزة .

يا أبناء شعبنا الثوار الأحرار السلام عليكم وتحية الاسلام الخالدة والسلام عليكم تحية الثورة الظافرة المظفرة أبدا باذن الله المستنيرة أبدا بنور الله .

أعود فأخاطبكم كما عودتكم وكما وعدتكم استكمالا للثورة القضائية الشاملة لتحقيق العدالة الناجزة ولجعل الأمن يصل الى رءوس الناس ومساكنهم وفى الطرقات وحيثما وجد الناس . وكان لابد فى قمة هذه الثورة القضائية من مراجعة قانون العقوبات بعد أن عمت الجريمة بصورة دخيلة على مجتمع أهل السودان وعلى خلقنا السمح الكريم واهتزت القيم الروحية والخلقية الأصيلة أمام ضربات الجريمة الوافدة والدخيلة على أبناء هذا الشعب النبيل ، ففى آخر احصاء للجريمة كما توضحها مضابط الشرطة لعام ١٩٨٢ كانت معدلات الجريمة كما يلى فى جميع أنحاء البلاد :

اولا : جرائم الموت والأذى كان عددها ١٢٠ر٣٦٢ (مائة وعشرين الف وثلاثمائة واثنين وستين جريمة) .

ثانيا : الجرائم ضد المال كالسرقة والنهب والاختلاس — كان عددها ١٢١ر٧٧١ (مائة واحد وعشرين ألف وسبعمائة وواحد وسبعين جريمة) .

ثالثا : جرائم الشغب والمشاجرات والجرائم ضد الأمن والطمأنينة العامة — كان عددها ٥٦ر٦١٠ (ستة وخمسين ألف وستمائة وعشر جرائم) .

رابعا : مخالفات القوانين الأخرى غير قانون العقوبات — كان عددها ٤٥ر٨٩٥ (خمسة وأربعين الف وثمانمائة وخمسة وتسعين جريمة) .

خامسا : مخالفات حركة المرور — كان عددها ٨٠ر٣٠٣ (ثمانين ألف وثلاثمائة وثلاثة) .

وكانت المعدلات الزمنية لارتكاب الجرائم كما يلى :

أولا : جرائم الأذى الجسيم بمعدل جريمة كل ساعة ودقيقتين .

ثانيا : جرائم الاغتصاب الجنسى بمعدل جريمة كل عشر ساعات وثمانى عشرة دقيقة .

ثالثا : جرائم النهب بمعدل جريمة كل ست ساعات وخمس وعشرين دقيقة .

رابعا : جرائم السطو بمعدل جريمة كل ساعة وست دقائق .

أما القضايا الجنائية المتراكمة فى المحاكم قيد النظر فقد كانت اعدادها كما يلى خلال عام ١٩٨٢ :

الخرطوم ١٠٫٠٨٢ قضية و ٣٫٨٠٢ استئنافا .

الاقليم الأوسط ١٧٫٥٧٢ قضية و ١٫٨٩٦ استئنافا .

الاقليم الشرقى ١٠٫٦٣٠ قضية و ١٫٦٧٤ استئنافا .

الاقليم الشمالى ١٠٫٦٩٠ قضية و ١٫٦٧٤ استئنافا .

اقليم كردفان ٨٫٤٥٧ قضية و ٢٫٢٣٤ استئنافا .

اقليم دارفور ٩٫١٩٢ قضية و ٢٫٥٧٧ استئنافا .

وعلى ضوء هذه الاحصائيات والتزاما بواجبنا نحو جموع هذا الشعب وحرصا على أرواح الناس وأموالهم فقد قررنا مراجعة قانون العقوبات أب القوانين العقابية بغرض ربطه رباطا عضويا وروحيا بالشريعة الاسلامية ، فقد تأكد لنا بالايمان والتجربة أنه لا علاج أنجع من حكم الشرع وتحكيم الكتاب والسنة ردعا للجناة والمعتدين ، وحماية للناس من أن تهدر دماؤهم وأموالهم واحقاقا للحق بعد غياب،وابطالا للباطل بعد فوران وتمكين .

ومن هنا فقد راجعنا قانون العقوبات مادة مادة فوجدنا العجب العجاب .

وجدنا السارق يسجن ليأكل مجانا على حساب المواطن الذى فقد حقه ثم مضى ينفق على سارقة ليطعمه ويعده ليسرق أكثر . أبطلنا هذا

العبث واستبدلناه بقطع اليد وفق الأحكام الشرعية فمن شاء بعد الآن فليسرق ليلقى الجزاء ومن شاء فليعمل ليأكل من عمل يده .

وجدنا النهب المسلح والسطو المسلح يجازى عليه بالسجن الطويل فتساءلنا أعقاب هذا أم ثواب ؟ ثم ألقينا كل هذا جانبا واستبدلناه بالقتل أو القطع من خلاف أو السجن المؤبد .

وجدنا السجن المؤبد يعادل عشرين عاما يعود المتهم بعدها أو قبل انقضائها أشد عزما على ارتكاب أفظع الجرائم . فزدنا مدة التأييد الى ثلاثين عاما فمن شاء أن يكون مواطنا صالحا فسيقضى عمره فى بيته ومحل عمله وحيث شاء حرا طليقا ، ومن اعتدى حل لنا أن نقتص منه للمظلوم وللمجتمع . وقد قال الرسول الكريم .

((**كلكهم يدخل الجنة الا من أبى**)) فكذلك أنتم أيها المواطنون من أراد الخير والعيش الكريم فليبعد نفسه عن حقوق الناس ودماء العباد فان دماءكم وأموالكم بينكم حرام الا بحقها وعند الله الرزق الحلال وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين فلا تهلكوا أنفسكم بالعدوان على أعراض العباد ودماء العباد وأموال العباد لأن فى هذا ضياع دنياكم وفساد آخرتكم .

وجدنا الخمر أم الخبائث وأم الكبائر مباحة فى قانون العقوبات ومحرمة فى كتاب الله فاخترنا كتاب الله على قانون العقوبات المستمد من القانون الانجليزى ووجدناها مع تحريمها قد فتكت بأموال الناس وألقت بهم فى الطرقات يدهسون الناس بعرباتهم ويصادمون المبانى والعربات الأخرى فيقتتلون ويقتلون فاخترنا ما اختار الله لنا وما عند الله خير للأبرار .

وجدنا الزنا مباحا جهارا وبالتشريع فى بلاد كالسودان تغلغل الايمان فى قلوب أهله وتشربته دماؤهم وأصبح جزءا من فطرتهم بها يولدون وعليها يموتون وبين هذا وذاك على نورها يعيشون . ونظرنا ذات اليمين وذات الشمال فلم نجد خيرا مما شرع الله وارتضت الأديان السماوية قاطبة فجعلنا الجلد والرجم عقابا للزناة وفق معايير البينة الشرعية .

ونظرنا فى مسائل الرشوة والفساد فوجدناها انتشرت انتشارا عظيما رغم الوعيد الصارم من الرسول صلى الله عليه وسلم : ((لعن الله الراشى والمرتشى)) .

فشددنا عقوبتها تشديدا وجردنا الراشى من كل منفعة يحصل عليها وضاعفنا له العقاب ، فالرشوة جريمة متعدية الأثر تمتد أضرارها للخدمة العامة فتشلها ولحقوق الناس فتضيعها وتذهب بهيبة العمل العام

والخاص وامتدت العقوبة لتطال الفاسدين فى القطـــاع الخاص الذين يتحكمون فى مصالح العباد بالرشوة والفساد فالعمل الخاص لا يحـــل حراما ولا يحرم حلالا ولا يعطى أحدا حصانة ليست له شرعا ودينـــا . وفى نفس الوقت شددنا العقوبة على الراشى لأنه مفسد فاسد ضـــال مضل وهالك مهلك فليس له بعد الآن الا الجلد والعقاب الشديد .

وجدنا الميسر حلالا فى قانون العقوبات فى واضحة النهـــار خرابا لأموال الناس وبيوتهم يعربد به الأثرياء وأصحاب الجاه على حســـاب أسرهم وعلى حساب القيم والأخلاق فحرمنا ما حرم الله ومنعته ســـائر الأديان السماوية وامتد الاصلاح ليطال أولئك الذين يفتحـــون بيـــوتهم وأنديتهم للميسر فمن فعل ذلك بعد الآن عاقبناه فان عاد صادرنا داره للصالح العام .

نظرنا فى قضايا القتل والأذى فوجدنا المعتدى يسجن فلا يرد للمجنى عليه حق ولا يستفيد شيئا من سجن الجانى . ونظرنا الى واقع النـــاس فوجدنا الناس يقتل بعضهم بعضا ويجرح بعضـــهم بعضا اســـتهتارا بالنفس وهوانا بها وهى عظيمة عند الله فرجعنا الى ما حكم الله به فى التوراة والانجيل والقرآن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص . ومن عفا فأجره على الله . الدية فى النفس والدية فى بتر الأعضاء أو القصاص فلينظر الناس الى الحق أمامهم أبلج ناصعا . ولينظر أحدكم ألا يكون فى مؤخرة الناس اجابة لداعى الحق والاستجابة لمـــا يحييكم .

هذه أيها المواطنون بعض السمات الأساسية لقانون العقـــوبات الجديد ونسأل الله الرضا والقبول وأزف لكم البشرى اننا بعـــد اصـــدار قانون العقوبات ألغينا قانون الطمأنينة العامة وقانون حظر القمار لأنهما أصبحا جزءا من هذا القـــانون .

وفى نفس الوقت نصدر قانون النائب العام تكملة لأجنحة العدالة وترفيعا للأناة فاشترطنا مددا للخدمة تقارب مدد القضاء ووضـــعنا لهم شروطا أخلاقية وسلوكية ترفع المهنة وتزيد احترامها اذ أن مستشـــارى ديوان النائب العام يقومون بدور خطير فى تولى الدفاع عن الحق العام وفى متابعة المجرمين والمعتدين على الحق العام . ومن هنا فقد كان عملهم خليطا من عمل القضاة والمحامين فوجب عليهم أن يتقيدوا بمحاسن أخلاقيات القضاء والمحاماة معا .

ومن هنا نأمل أن يكون هذا استكمالا للحسم القضائى بجناحيـــه وازكاء للتنافس فى الخير بين الفئات القانونية كلها تتبارى فى المســـلك النظيف وفى المظهر اللائق والأداء المتقن .

وتأكيدا لذلك كله عدلنا قانون مجلس القضاء العالى ليواكب الثقة العالية التى وضعناها فى مهنة القانون كلها لتقود هذا الشعب نحو الحق والعـــدل .

ولابد من وقفة مع الاخوة القضاة بعد أن قامت لجنة حصر الكوادر القانونية بعمل وطنى عظيم فراجعت كل حالة على حدة وأوصت بشـــأن كل قاض بما فى ذلك بعض الذين تم عزلهم بموجب القرارين الجمهوريين ٣٤٦ و ٤٤٣ لسنة ١٩٨٣ ، ولقد احترمنا توصيات اللجنة ثقة بها وتقديرا لجهدها واحتراما للحق لأن الحق قديم وهو يعلو ولا يعلى عليه وبهـــذه الروح وحدها فحصنا قرارات وتوصيات اللجنة وصولا للحق والعـــدل وحده دون سواه . وبخصوص المتقدمين الجدد للعمل بالقضاء فقد رأت اللجنة ترك الأمر للسيد رئيس القضاء ليبت فى طلباتهم فتركنا هـــذا الأمر له .

وانى من هذا المنبر أذكر السادة القضاة بأنهم ائمة الناس ، وعلماء الناس وفضلاء الناس ينتشرون فى الأصقع والبوادى فينتشر بهم الوعى والعلم ويسود بوجودهم القانون وترتفع رايات الأمن والنظام . اخترنا أقوى العناصر لأكثر المناطق اختلالا فى الأمن وأكثرها تقاضيا ونشرنا أبناء الشعب فى كل شبر ليردوا لهذا الشعب الجميل أمنا وسلاما وطمأنينة . ونحن نفعل ذلك نذكرهم بقول الله تعالى :

« يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

لم يعد القاضى موظفا بل أصبح مسئولا أمام الله والناس عن الأنفس والأموال .

لم يعد القاضى رجلا من عامة الناس يخطىء كما يخطئون ويجهـــل كما يجهلون بل أصبح القاضى قدوة الناس والاسوة الحسنة فى مســـلكه والحكم بينهم اذا اختصموا . يقيم حد الله ويحكم بحكمه ويقضى بقضاء رسوله فلينظر أحدكم الا يكذب على الله أو يخادع الله فيخدعه الله .

أذكركم اخوانى القضاة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين » . واذكركم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قاض فى الجنة وقاضيان فى النار » .

نقد وضعنا لكم نظاما قضائيا وطنيا فريدا ومتميزا ليسود القانون حقيقة وواقعا فى كل شبر من أرض هذا الوطن الغالى وأنتم أول من يطبق هذا القانون على الناس فاتقوا الله فى الناس واتقوا الله فى أنفسكم « قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .

آسوا بين الناس فى مجلسكم وفى نظركم وليكن دأبكم أن يكون الضعيف عندكم قويا حتى تأخذوا له حقه وأن يكون القوى ضعيفا حتى تستردوا الحق منه .

« ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » .

صدق الله العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

• • •

قائمة بالقوانين التى صدرت
فى
اطار التشريعات الاسلامية

قائمة بالقوانين التى صدرت فى إطار التشريعات الإسلامية

إسم القانون	تاريخ صدوره	القوانين التى ألغيت بموجبه	موضوعات بإيجاز
١ – قانون الهيئة القضائية لسنة ١٩٨٣ م	١٩٨٣/٨/١١	قانون الهيئة القضائية لسنة ١٩٨٢ م قانون عدد القضاة و مرتبات الهيئة القضائية لسنة ١٩٧٦ قانون المحاكم المحلية الشعبية لسنة ١٩٧٧	تجديد هيكل الهيئة القضائية وشروط خدمة القضاة
٢ – قانون الإجراءات المدنية لسنة ١٩٨٣ م	١٩٨٣/٨/١٨ م	قانون الإجراءات المدنية لسنة ١٩٧٤	تنظيم إجراءات المحاكم فى القضايا المدنية
٣ – قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٨/١٨ م	قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٧٤	قانون إجراءات المحاكم فى القضايا الجنائية
٤ – قانون حركة المرور لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٨/٢٥ م	قانون حركة المرور لسنة ١٩٦٢ قانون تغيير حركة المرور بين الطريق لسنة ١٩٧٣	تنظيم ترخيص المركبات ومراقبة حركة المرور ومستلزمات وثائق التأمين
٥ – قانون المحاماه لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٨/٢٥	قانون المحاماه لسنة ١٩٧٠	تنظيم مهنة المحاماة
٦ – قانون العقوبات لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٩/٨	قانون العقوبات لسنة ١٩٧٤ قانون مكافحة البغاء لسنة ١٩٧٦	ناقش جرائم الحدود والقصاص والتعازير وفقاً للشريعة الإسلامية

إسم القانون	تاريخ صدوره	القوانين التى ألغيت بموجبه	موضوعاته بإيجاز
٧ – قانون النائب العام لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٩/٨	قانون النائب العام لسنة ١٩٨١ قانون مرتبات القانونيين بديوان النائب العام لسنة ١٩٧٦	تحديد هيكل وإدارات ديوان النائب العام وشروط خدمة المستشارين القانونيين
٨ – قانون مجلس القضاء العالى لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٩/٨	قانون مجلس القضاء العالى لسنة ١٩٧٦	حدد كيفية تشكيل مجلس القضاء العالى وبين اختصاصاته وسلطاته
٩ – قانون أصول الأحكام القضائية لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/٩/٢٨		تفسير النصوص التشريعية والقضاء فى حالة عدم وجود النص
١٠ – قانون الإثبات لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/١٠/٦		يبين طرق الاثبات فى القضايا المدنية والجنائية وكيفية تقييم ووزن البيانات
١١ – قانون ضوابط الخدمة العامة لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/١١/٣		حدد الإجراءات التى تضمن انضباط الخدمة العامة وبين الظروف والمدد والسلطة المختصة بالإعارة والندب

إسم القانون	تاريخ صدوره	القوانين التى ألغيت بموجبه	موضوعاته بإيجاز
١٢ – قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/١١/٣		اشتمل على الأمور التى يجوز فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والكيفية والأشخاص الذين يجوز لهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
١٣ – قانون قوات الشعب المسلحة لسنة ١٩٨٣	١٩٨٣/١١/٦	قانون القوات المسلحة لسنة ١٩٥٧	أهداف وواجبات قوات الشعب المسلحة الجرائم والعقوبات والمخالفات والجزاءات التى يرتكبها أفراد قوات الشعب المسلحة
١٤ – قانون المعاملات المدنية لسنة ١٩٨٤	١٩٨٤/٢/١٤	قانون تقييد تصرف السودانيين فى الأراضى لسنة ١٩١٨ قانون التصرف فى أراضى المدن والقرى غير المأهولة لسنة ١٩٢٢ قانون استرداد الأموال الضائعة والمسروقة لسنة ١٩٢٤ قانون الشفعة لسنة ١٩٢٨ قانون التقادم المكسب للملكية والتقادم المسقط لسنة ١٩٢٨ قانون الأراضى غير المسجلة لسنة ١٩٧٠	تكييف العلاقات المدنية وفقاً لأحكام الشريعة وذلك بتضمين مجموعة من القوانين المدنية وهى : ١ – العقد ٢ – المسئولية التقصيرية ٣ – الإثراء بلا سبب مشروع

إسم القانون	تاريخ صدوره	القوانين التى ألغيت بموجبه	موضوعاته بإيجاز
		قانون قيد الإيجارات لسنة ١٩٨٢	٤ – البيع
		قانون البيع لسنة ١٩٧٤	٥ – الهبة
		قانون الوكالة لسنة ١٩٧٤	٦ – الشركة
		قانون العقود لسنة ١٩٧٤	٧ – القرض
		القسم الخامس من قانون تسوية الأراضى	٨ – الصلح
		وتسجيلها لسنة ١٩٢٥	٩ – الإجارة
			١٠ – الإعارة
			١١ – عقد المقاولة
			١٢ – عقد العمل
			١٣ – عقد الوكالة
			١٤ – عقد الوديعة
			١٥ – عقد الحراسة
			١٦ – عقد الغرر
			١٧ – عقود التأمينات الشخصية
			١٨ – الملكية وأنواعها
			١٩ – التأمينات العينية

إسم القانون	تاريخ صدوره	القوانين التى ألغيت بموجبه	موضوعاته بإيجاز
١٥ – قانون الزكاة والضرائب لسنة ١٩٨٤	١٩٨٤/٣/٤	قانون ضريبة المبانى لسنة ١٩١٨ قانون ضريبة الأراضى المطرية (العشور) لسنة ١٩٢٤ قانون ضريبة الحيوانات لسنة ١٩٢٤ قانون ضريبة الأراضى وأشجار النخيل لسنة ١٩٢٥ القسم الثالث والمادة ٤١ من قانون رخص التجار وضريبة أرباح الأعمال لسنة ١٩٣٠ قانون العوائد الجلية لسنة ١٩٣٩ قانون ضريبة الملاهى لسنة ١٩٥٦ قانون رسوم التركيز لسنة ١٩٦١ قانون ضريبة الدخل لسنة ١٩٧١ قانون رسم الدمغة لسنة ١٩٧٢ قانون ضريبة الأرباح الرأسمالية لسنة ١٩٧٤ قانون الصندوق القومى لمال تركيز الأسعار لسنة ١٩٧٤ قانون ضريبة التنمية لسنة ١٩٧٤ قانون ضريبة التنمية المفروضة على الدخل لسنة ١٩٧٦ قانون ضريبة الدفاع لسنة ١٩٧٩ قانون ضريبة المبيعات لسنة ١٩٨٠	ناقش أحكام الزكاة والضرائب والأموال التى تجب فيها وطرق تحصيلها والعقوبات على من يمتنع أو يتحايل على إخراج الزكاة . وجوب ضريبة تكافل اجتماعى على كل سودانى غير مسلم يملك النصاب . إنشاء وتكوين ديوان الزكاة ، والضرائب وتحديد اختصاصاته وسلطاته وإجراءات التظلم . رئاسة الجمهورية

إسم القانون	تاريخ صدورها	القوانين التي ألغيت بموجبه	موضوعات بإيجاز
		قانون الرسم الإضافي لسنة ١٩٨١	
		قانون اعتماد الضرائب لمجالس المناطق لسنة ١٩٨٢	
		قانون رسوم الإنتاج والاستهلاك لسنة ١٩٨٣	
		قانون صندوق الزكاة لسنة ١٩٨٠	

كـتب المـؤلف

١ ـ النهج الاسـلامى لمـاذا ؟ ١٩٧٩

٢ ـ السـادات ـ المبادىء والمواقف . ١٩٨١

٣ ـ مهددات الأمن القومى فى الثمانينات (دراسات استراتيجية) ١٩٨٣

٤ ـ النهج الاسـلامى كيف ؟ ١٩٨٥

تحت الطبـع :

٥ ـ الغارة الليبية على أم درمان ـ الأمل والحكاية (دراسة استراتيجية)

٦ ـ التعدد الحزبى فى السودان ـ مسـاره و مصـيره .

٧ ـ جنوب السودان ـ الحـل والقضية .

٨ ـ البترول السودانى ـ ثـروة أم اضـافة ؟

٩ ـ العمق ونظرية الأمن السودانى .

١٠ـ الحـكم الاقليمى فى السودان الى أين ؟

١١ـ التكامل المصرى السودانى ـ النظرية والتطبيق .

١٢ـ السـياسة والأدب ـ دراسـة تطبيقيـة فى الأدب السـياسى لثـورة ٢٥ مـايو .